الحياة بين الكلمات

عبدالفتاح أبو مدين

LITERARY CULTURAL CLUB JEDDAH

بسم الله الرحمن الرحيم

عبدالفتاح أبو مدين

الحياة بين الكلمات

• إلى أستاذنا الأديب الرائد،
عبدالله عبدالجبار،
تقديراً لدوره الريادي

الطبعة الأولى

المحرم 1423هـ - مارس 2002

النادي الأدبي الثقافي
جدة - المملكة العربية السعودية

120

تصدير.!

عثمان محمود الصيني

أخذت كتب الأدب العام منحى في التصنيف يغلب عليه طابع الرحلة في ثقافة الكاتب المتعددة في شتى علوم العربية وفنونها، والتلقائية في تتبع الأفكار واستقصائها دون أن تقتصر على علم محدد أو موضوع معين وإن اتخذت موضوعاً بعينه مدخلاً للحديث وتوطئة للقول، يتضح ذلك جلياً في الكامل للمبرد وكتب الأمالي للقالي وابن الشجري واليزيدي والزجاجي وغيرهم وفي كتب المجالس وغيرها.

ومع ظهور الطباعة وانتشار الصحف والمجلات ظهر منحى آخر في تأليف الكتب يقوم على جمع المقالات المنشورة في الصحف والمجلات وقد تضم إليها بعض الدراسات المطولة أو الكتب الصغيرة على النحو الذي نجده عند العقاد وطه حسين وأحمد أمين والرافعي وزكي مبارك والمازني وغيرهم، وهي لا تخرج عن الجمع والتبويب وإن اتخذ لها أصحابها أسماء تبرر هذا الجمع تحو ساعات بين الكتب وبين الكتب

والناس وأشتات مجتمعات في اللغة والأدب وجميعها للعقاد، وقد تلقى القراء إلى عهد قريب هذا النوع من التأليف بالقبول لأن ثقافة العصر كانت تحتاج إلى الكاتب الموسوعي الذي يقدم شيئاً من كل شيء، ثم بعد انتشار التعليم وغلبة التخصص بدأ القراء يبحثون عن المعرفة المتخصصة، وبدأ القراء يبحثون عن المعرفة المتخصصة حسب اهتماماتهم ومجالاتهم بمعرفة كل شيء عن شيء محدد. وهناك نوع ثالث من التأليف التجميعي كان يقوم به العلماء هو جمع الأفكار والخواطر والشوارد واللطائف في تواليف سميت بأسماء متعددة مثل الكناش والنوادر والتعليقات، سواء ما كان منها من أفكار الكاتب كتعليقة الفارسي وأبي علي الشلوبين أو من اختياراته كألف باء البلوي وكشكول العاملي ومخلاته.

غير أن الأستاذ عبدالفتاح أبو مدين في كتابه هذا اتبع منهجاً رابعاً يشبه في بعض وجوهه أسلوب بعض العلماء في جمع المسائل التي يضمها حقل معرفي واحد أو موضوع معين في كتاب كمسائل أبي علي الفارسي وسفريات ابن هشام الأنصاري مع تباعد ما بين تلك المسائل والموضوعات، كما يشبه من أوجه أخرى صنيع النساخ في جمع الرسائل التي لا يبلغ إحداها مبلغ كتاب مستقل وضمها إلى مثيلاتها في مجموع يحوي عدداً من الرسائل، وهو ما فعله الكاتب في «الحياة بين الكلمات»، فمن محاضرة في ناد أدبي إلى ورقة في مؤتمر أو ملتقى، ومن نقد لكتاب إلى قراءة في كتاب أو حديث عن أدباء أو تعليق يسير على بعض الموضوعات، وهذا النهج شاع كثيراً عند الأكاديميين.

غير أن أهم ما يميز عبدالفتاح أبو مدين في هذا الكتاب وضوح مقصده ببيان هدفه من كل كتابة، وتحديد أدواته التي يتوسل بها للغرض الذي يتوجه إليه، وخلص

بذلك من شرك الدعاوى الكبيرة التي يقع فيها كثير من الكتاب حين ينصبون أنفسهم في ذات الوقت نقاداً وفلاسفة ومفكرين ومؤرخين، ثم يخلصون إلى ما اتهم به زكي مبارك أحمد أمين حين وصفه بأنه تكلم في كل فن ولم يكن في كل فن من أهله، مع ما تحمله هذه العبارة من حدة زكي مبارك وشبهة هجوم الأقران.

فأبو مدين يصف نفسه بقوله «إني امرؤ أعجبه هذا الشاعر أو ذاك فرغب في أن يصحبه وأن يستمع إليه ويعلق ما شافه التعليق بما تأثر به وأعجبه وأشار إلى ما لم يعجبه»، وبذلك خرج من مأزق المناهج النقدية المحددة وطرائق البحث التاريخية واللغوية الصارمة، فهو لا ينصب نفسه ناقداً أو مؤرخاً أو أثرياً، ويصف عمله في كتابه بأنها وقفات ومعياره فيها الذوق والحس، فهو يكره المبالغة وبخاصة إذا تقاطعت مع عربيته وإسلامه، ويتضح ذلك جلياً في نقده لكتاب لويس عوض حين يعرض آراءه على الآيات القرآنية، ويتميز غيظاً متى ما وجد تلك الآراء غير منسجمة مع آيات القرآن، كما تزداد انفعالاته حدة متى رأى الشاعر قد شطح في أبياته أو وجد تأويلاً لأحد الكتاب لبيت شعر على غير ما تقبله ذائقته أو صادف كلمة لا تعجبه من شاعر أو كاتب.

وقبل هذا كله يظل الأستاذ عبدالفتاح أبو مدين رائداً من رواد الصحافة، ورائداً في إدارة الثقافة ورائداً في إنتاج الثقافة عبر المؤسسات، وبعد ذلك الأديب الطلعة النهم للقراءة والكتابة، كشارب البحر كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً.

1422/12/8هـ
2002/2/20م

مفهوم الحرية

ما من شيء - في رأينا - مما قد يكون مجمعاً عليه، بين البشر - وفق رغبات أهوائهم وجبلة نفوسهم - في الراهن من عصرهم، وفي متفرق أمصارهم من **شعار** الحرية. ومما هو مفرق لشملهم، مشتت لآرائهم، في **المواضعة على اصطلاح** الحرية.

لو لم يكن الأمر كذلك لِمَا نسمي نحن العرب - أولائك المكبَّلون بأغلالهم في الزنزاناتَ الفردية للاحتلال الصهيوني من الفلسطينيين أحرارا؟ ولما يسمِّي البعض المرأة الغربية اليوم، وينعتها بالمرأة الحرة؟

لعلنا نسمي السجين بمعنى الطليق فيما هو خلافه، والمغلوب بمعنى الغالب فيما هو دون ذلك، والعبد بمعنى السيد فيما هو ضده، إنما نتكئ على ما في لغتنا العربية من مجازات، واستعارات، تستجيب في توسع مترادفاتها

وأضدادها، واشتقاقاتها، ومرانة استعمالات ألفاظها في مختلف حالات تراكيبها لما في دواخلنا من أحلام وتصورات، وآمال وطموحات، ونحن إذ نفعل ذلك إنما نوهم أنفسنا بأن المدافعين عن أوطانهم لا يستحقون منا سوى أن ننعتهم ونسميهم بما يدخل في نفوسنا ونفوسهم من بهجة وسرور، وبما يحقق - مجازا - رغبتنا ورغبتهم في نصر لم يتعين، وقادم لم يتحقق، وزمن استعصى على التحيّن، ولذلك نفعل عند صدمتنا ودهشتنا بمن توهَّمنا أو أُوهمنا بحكم غلبته علينا أنه ينعم في فسحته ويتمتع بحريته، فيما هو لازال رهين عبودية حاجاته وحبيس شهواته.

لكن... أوَ ليس الاستعمار مؤذن بالتحرر محفز على الاستقلال؟ ثم ما كسب العلماء وأهل الرأي غير أقلامهم التي يستخدمون، وأذهانهم التي يكدونها؟ أوَ ليست العبودية هي أهم متطلبات الحرية وأبرز مظهر تتجلّى فيه الحرية بوضوح اليوم ومنذ نهضة الفرنجة؟

ولعل وصف المرأة في ما وراء البحر بالتحرر مرده إلى خروجها إلى الحياة العامة جنبا إلى جنب الرجل لها ماله وعليها ما عليه، غير أن الواقع ينقل إلينا بالصور الموثقة عبر الشاشات ما آلت إليه هذه الحرة من العبودية، بحشرها في حشد هائل من السلع المختلفة التي تقذف بها آلة التصنيع الجامحة، ولئن وجدتَ مبرراً لحضورها مرافقة ومصاحبة لبعض

تلكم الأشياء ذات الصلة بخاصيتها، فإنك غير واجد من منطق أو حجة للنسبة العالية من الإعلانات التي تبدو فيها شيئا شبه عارٍ في كومة الأشياء المعلبة المكسوة بإحكام، وإن أجهدت نفسك في البحث عن المبررات فلن تجد سوى أن الغاية البعيدة، والهدف الدفين إنما هو تحقيق «العدل» المرغوب، و«المساواة» المشتهاة، ليس بين الرجل والمرأة، وإنما حين يضع المدعي السياسي الذكرُ هذا «العدل» السامق بين المرأة وأشياء الحياة مما تتداوله الأيدي وفق حاجات السوق ، لتستمع به النفوس في غير ضابط ولا رادع سوى ما يقبله الهوى.!

سنضرب صفحا عن محاولة تعريف الحرية في مستواها المفاهيمي التجريدي لاعتقادنا أن ذلك لن يوصلنا إلى شيء ذي أهمية مادام أن المصطلح يقف ضديًا مع مصطلح العبودية، وأن التعريف إن هو إلا شكل من أشكال الضبط والحصر والتحديد، وهو في النهاية سلطة مفهوم تظل عاجزة – في تجريدها – على الالتفاف حول ما ارتبط عبر مراحل التصور البشري بالاطلاق والانعتاق؟ ونظن أن الأولى بنا هو النظر في أهم المراحل التاريخية التي رفعت فيها لافتة الحرية، بحثاً عن مخرج من مأزق من مآزق العبودية التي عاناها الإنسان المعاصر. مع أننا لا ندعي الإحاطة الكلية ولا العلم الجامع – لما حواه التاريخ الطويل لهذه الرحلة، إنما ظنّنا فيما رأينا من علامات فارقة.. وما لمحناه من مفارقات في محطات، رأينا الوقوف عندها بالنظر والتمحيص.

(1)

لجبلّة الإنسان في التدين والعبادة، ولميل من هوى في نفسه مستحكم للتجسيد، دأب على مر العصور وتلاحق الدهور على إبداع الأصنام وعبادة الأوثان، وكلما جاءت رسالة سماوية، وهداية ربانية صد وامتنع إلا قليلاً ممن هُدوا، أما وقد رأى رأي العين كيف تحولت الديانة مع رجال الكنائس من الرهبان والقساوسة إلى آلة بيد الإقطاع والسادة، وما آل إليه وضعه من عبودية وفقر على الرغم ما برز من تقدم في الصناعات والعلوم، برهانا على بوادر تفجر لطاقات إنسانية قادرة وقوى في أعماقه قاهرة، (انطلقت منذ القرن الثاني عشر في أوربا وبرزت مع القرن الثامن عشر كأوضح ما يكون). انبثقت في نهايتها فكرة تقول: لمَ لا يواجه الإنسان مصيره بأن ينصب نفسه صنما عوضا عن الأَصنام الخارجة عن ذاته الفرد؟ ولما كان الرمز الجديد بحاجة إلى إكمال سيطرته على من حوله، وامتلاكه طاقاته المدركة بوعيه المحصَّل عبر التجارب (في العلوم والصناعات)، كان عليه أن يعلن امتلاكه أخيرا لمعنى من معاني رمزيته، وصفة من صفات الجبروت، فكان انبعاث تمثال الحرية (وقد برز هذا التمثال بجلاء، وتجسد واقعا ممكنا، وحقيقة ناصعة مع الثورة الفرنسية 1789م). على حين أننا واجدون بعد ذلك في مسيرة الإنسان الغربي أشكالاً للعبودية، وألوانا للقهر، هي محصِّلة مترتبة ونتيجة آتية من طبيعة هذه

البدعة (الحرية). والسبب - عندي - هو أن الإنسان لما أتيح لطاقاته المتعددة وحاجاته الدفينة، غلب ما هو أقرب لنفسه الشهوية على نفسه الناطقة العقلية، إذ ضعفت هذه على بلوغ الإصابة في الرأي لغلوها المفرط في أوهامها وأحلامها، ولعدم امتلاك مبدعيها وهم أهل الرأي للقوة الفاعلة والعصبة المتينة، بينما تجسدت الأولى في سيطرة قوة سعي الكائن البشري الجامح للامتلاك والتي برزت في قوة السلطة والسيطرة، وهي السيطرة التي جرفته - أي الإنسان - إلى خيار لم يسع إليه بوعيه، هو إحلال صنم جديد (الرأسمالية الصناعية) محل صنم قديم (الإقطاع). مما أيقظه على تبخر وهم الإرادة والاختيار وكل أشكال العقلانية المجردة التي طالما نظَّر لها العلماء وأهل الرأي. وهو الذي دعا أهل الفكر لطرح فكرة تصحيحية (بداية القرن التاسع عشر)، تُعنى بالانتصار لمن لم تنصفهم العقلية التجريدية في واقعهم الآلي البئيس، ولم تمدهم بالنصرة والعون ضد عبوديتهم الجديدة.. ولما كان التعبير الإنساني عن القوة الناطقة التي يملكها أهل العلم والفكر، كان التصحيح في هدفه يحوم حول المناداة بتوسيع دائرة الرأي والسماح بمساحات أوسع من التعبير، وإعطاء أصحاب الرأي المخالف المزيد من الفرص للإبداع والتعبير، وسوف تتحول تلك الأفكار الجميلة السابحة في الفضاء فيما بعد إلى أسئلة ملحة حول ما سيعرف بحرية الإنسان العامل، إذ مثلت هذه الأسئلة أهم تلكم الأصنام الجديدة التي ولدتها أفكار الجهابذة، التي

حملتها أذهان من بعدهم حداد؛ هي أذهان أهل المصلحة والعُصبة من قواد حركة العمال وزعماء النقابات، ووجد هذا الصنم طريقه من خلال، أسباب ثلاثة:

1 - التهديد الذي مثله رمز المشاركة الزاحف (الذي فرضته الأفكار الماركسية)، وهو رمز أكثر إغراقا في المادية وأشد إدعاء لحماية إنسانية الإنسان.

2 - سفور العبودية الجديدة بشكلها الفاقع من جراء حرية الكسب والامتلاك والتي أفرزت فئة من أصحاب رأس المال المتحكمين في رقاب الأكثرية العاملة .

3 - يأس الطبقة العاملة من الطبقة المالكة وآلتها، ووعيها بالتشكل العصَبي المدني حول الرئاسة العمالية وقناعتها بأولوية الحاجة على العقل.

والواقع أن العصبية الجديدة نجحت فيما فشلت فيه النخب الفكرية في تحويل مفهوم الحرية السابح في تصورات ذهنية إلى وقائع تحوم حول ما انبثق عن ذلك من مفاهيم عن الحقوق، فتركز جهدهم لتحقيق منافع تتعلق بتحديد ساعات العمل وتشريع الضمان الاجتماعي للعمال والتعويض عن الحوادث وغير ذلك من الحقوق.

وكما أبدعت العُصبة الأولى (عصبة الثورة الفرنسية) في إزاحة سلطة الإقطاع ومن ورائه الكنسية، منطلقة في ذلك من أوهام أهل الرأي في الحرية والانعتاق وتقدم العلوم وبوار أهل

الظلام واهتراء آلتهم، استطاعت كذلك عصبة العمال أن تبدع في تحقيق مطامحها وحاجاتها الملحة الحياتية، في فرض احترامها وتحقيق طموحها، وأن تُنزل التمثال المتعالي المسمّى (حرية) منازله الأرضية اللائقة به، وأضحت الحرية لدى العمال ليست سوى مجموعة من الحقوق تأخذها بالغلبة والمداراة ممن استبد بجهدها وامتص دماءها. والغريب أن يخرج هذا الغاصب (عصبة الدولة الرأسمالية) منتصرا في المعركة الطاحنة، ليقينه أن معركته الحقيقية ليست مع الحقوق التي يسهل الاستجابة إليها، والعمل على إبداء المرانة معها، إنما العدو الذي يقضّ مضاجع رأس المال وآلياته هو رواج فكرة الاشتراك التي تحولت مع المد الماركسي في العالم إلى سحر تَعِدُ الجماهير المقهورة، المغلوبة على أمرها، بآلتها الجدلية، وبأنساق ماديتها التاريخية إلى أن يؤول الأمر إليهم ويعود النفع عليهم، وتزيد فتُوهمهم بأن توقعاتها حتمية وآراءها مادية طبعية، وأن ليس دفاعها هو عن حقوق مشروعة ومنافع مرجوة، وإنما حُكم عصبتهم العمالية مصير لا مفر منه، ونتيجة صراع طبقي لابد منه، وتذهب بعيداً، فتجنَح بوعدها لأن يتحقق للعمال جنتهم على أرضها بعد أن تسلمهم مفاتيحها، وتفك لهم مغاليقها، لكن هل حققت المادية التاريخية أحلام الضعفاء أخيراً، أم أثبت التاريخ الذي شهدنا، والوقائع التي حضرنا، كيف صار المعسكر الروسي الذي قامت على أركانه (ثورة 1917 البلشفية العمالية) إلى تضعضع أركانه وآل إنسانه إلى التخلف المادي

والتأخر العلمي، وجاع الذي كان يؤمل النفس بالجنة الأرضية الموعودة، وينتظر الخيرات الرضية، ويرنو إلى السعادة المتصلة.!؟

والحقيقة برغم كل ما تقدم أنّ تحول تمثال الحرية إلى مجموعة من الأصنام في ألوان من الحقوق البشرية أبرزها الحقوق العمالية التي أشرنا إليها آنفاً. إنما هو تحول لهذا الرمز اللامعقول إلى رموز أقرب معقولية، وأن ما أفسد على هذه الحرية أن تتحول إلى مدركات بذاتها ممكنة التجسيد على أرضية الواقع، وفي صلب حركة المجتمعات؛ هو قصور الإنسان حين ينصب نفسه مشرّعاً ملهماً وحكيماً محيطاً، وهو قصور في طبع خلقته أساس، وضعف في ذهنه على أن يتجاوز رغباته وهواه إلى النظر في مصالح من دونه من بني جلدته لغلبة متمكنة، وهيمنة مستحكمة للنفس الشهوية على النفس العاقلة.!

ثم إن غلبة النفس الشهوية، برزت كأوضح صورة في ما يسمى اختيار السياسة وإدارة الأغلبية لشؤونها عبر الانتخاب الحر، والاقتراع العام لمن يمثلونهم. ففي حين كان من البدهي أن تجسد هذه الفكرة الجميلة طموح القوة الناطقة في تحقيق الرغبة في إسعاد البشر، انقلبت إلى عبودية تعمل على ترسيخ تحكم أصحاب المال والأعمال في رقاب ليس عمالهم ورعيتهم الذين هم تحت إمرتهم على المصانع فحسب، بل على الأغلبية

الضعيفة من الأمم والشعوب، (وهو ما نراه قائماً إلى اليوم في أبرز أمصار ما يسمى العالم الحر)، إذ تغلب الآلة الرأي وإن ادعى أهل الفكر والرأي قدرتهم على تحويل الأوهام إلى حقائق على أرض الواقع، فذلك لا يعدو سوى ضرب من ضروب الوهم، لأن «مرباهم في التأديب والتعليم في الصنائع والعلوم والديانات ينقص ذلك من بأسهم كثيرا ولا يكادون يدفعون عن أنفسهم عادية بوجه من الوجوه»[1]، وهم أي العلماء بذلك أعجز عن أن يدفعوا عن غيرهم العاديات، وأبعد أن يكونوا ممن تقتضيه طبيعة العمران من البأس والشدة التي هي بيد أصحابها من أهل السلطة.

إذا ما ذهبنا إلى ما ذهب إليه ابن خلدون من أن العلماء العاملون على الاجتهاد بالرأي، والإبداع بالذهن، ليس لهم من أمر الحكم والنفوذ شيء، سوى ما دُعُوا إليه من أهل العصبية والبأس من أهل الحل والعقد لاستشارة غير ملزمة، وإن حصلت دعوة هؤلاء لأولائك فهي مفقدة لجرأتهم، مذهبة للشجاعة والاقدام في هممهم - إلا قليلاً -. وعلمنا كذلك أن لأهل القلم إحساساً مفرطاً لإبداء الحقائق التي في أذهانهم، والصنائع التي تجلت لهم في أحلامهم، وهم وإن تحولوا في عصور نهضتهم من الحكمة التي اقترنت بالأخلاق اقتراناً شديداً؛ واتصلت بأواصر القيم اتصالاً وثيقاً، إلى العلم الوضعي، فمايزال تداخل نفوسهم وتداعب أقلامهم مما نهلوه

من حضارة اليونان في القديم والشرق العريق، مما أوجبته جماعات الحكمة من أن «على كل حكيم أن يحسن الارتياد لموضع البغية، وأن يبيّن أسباب الأمور ويمهد لعواقبها»[2]. أدركنا أن هذا الوعي متحول إلى غير هدفه كلما حيل بينه وبين التنفيذ، رغبةً جامحةً، وقوة هادمة لما يُتوهَّم أنه أصل الداء وعلّة النكوص والردى.!

من أجل ذلك رأينا كيف انشغل الفلاسفة في عصر الأصنام الفكرية، والتماثيل الذهنية، في قضايا تزيد أو تقل تجريداً، لكنها تصب في أغلبها فيما يبعد الإنسان عن حاجاته القيمية ومتطلباته الروحانية، وتغرقه إما في تجريدات وهمية لا طائل له من ورائها كاختراع فكرة «الدين الطبيعي» أو مصارعة طواحين الهواء كفكرة «السيطرة على الطبيعة» باسم العلم، أو هي في الأغلب تزيد في غمسه إلى الأذقان في حاجاته المعاشية، ليتحول من إنسان عاقل إلى إنسان نهم.. إلى ضرورات مصطنعة ومتطلبات لا حدود لها أكثر من استعداداته وقدراته، أما حال الهيئات والمؤسسات المسماة بالتشريعية، والتي ضمت ما تُوُهِّم أنهم ممثلون عن الغالبية من السواد، فهي لم تصل - حتماً - إلى مواقعها، ومجالسها الوثيرة إلا بعد حملة من الدعاية، وهجمة من الإعلان والترويج؛ تمارس فيها شتى أشكال السحر وتنويم الذهن للسذج من البسطاء، والإيهام بالوعود والتلويح بالشعارات،

في صخب من توظيف كل الوسائل الإعلامية والأدوات السحرية للاستيلاء على الألباب بآمال الجنات الوهمية. ثم إن الاحتكام بعد ذلك لقانون النسبة والحسابات الدقيقة في فرز الأصوات لا يتبعه سوى أسئلتنا عما دون الإجماع من الجمع الذي اعترض أو احتفظ ومآله وموضعه من العملية الحسابية، ومصير رأيه بعد تمامها؟، ثم هل يمثل هؤلاء المختارون للتشريع على وجه الحقيقة آراء من علّقوا عليهم آمالهم وسلموا لهم مقاليد أمورهم، وما الضامن في ذلك والمحكّم في أثناء الدورة التشريعية المتعاقد عليها والمتفق بشأنها.؟ وكثيرة هي الأسئلة المترتبة والمسائل العالقة بالأمور التقنية الصرفة التي لا تزال تمثل الجدل والأخذ والرد، ليست آخرها شرعية الجلوس الأخير لرئيس كبرى دول العالم «الحر» أمريكا في عصرنا الحديث على عرش الرئاسة ومشروعية انتخابه واختياره.!

أما أهم تلكم الأسئلة التي تهمنا - نحن العرب - في آننا، والتي تتعلق أشد التعلق بأوضاعنا ، فهي ما مدى مساندة شعوب الأمريكان للصهاينة ومباركتهم لقتل فلذات أكبادنا في فلسطين المحتلة واغتصابهم لأراضينا؟ ما الفاصل بين الحقيقة والوهم فيما يشاع، أن مجالس شيوخهم ومؤسسات مشوراتهم تمثل رأياً عاماً ضد كل ما هو عربي؟ أم أن السذاجة التي عليها حال الأمريكاني، وحرابة الإعلام المهيمنَة عليه قوى الصهيونية المسيطرة في الإعلام ومجالس القرار هي العاملة

على صرف العقول وتحويل المشاعر، على أن تقف على الحقيقة التي لا ينكرها عقل ويندفع نحوها بإنسانية كل شعور إنساني نبيل لنصرة مظلوم، والالتفات بعين الرحمة إلى ملهوف. ومن قبل ألم تكن انجلترا «الحرة» ومن ورائها القوى الأوروبية المهيمنة، هي التي فرضت زرع ذاك الجسم الغريب المسمى «إسرائيل» في قلب بلاد العرب.!؟

وفي رأينا أنه يعود اختراع الحرية صنماً مقدساً وتمثالا معبودا إلى التحفيز ذي الهدف البورجوازي السياسي، للإنسان الغربي الذي لم تعد له بعد التجارب المريرة مع أوهامه في أصنام السادة القدماء (وقد جرب من قبل أشكالا للأصنام المجسدة)، لم تعد له أي ثقة في رجالات الديانة المحرفين، فتوجب تحفيزه وتحشيد طاقاته إلى دورة جديدة من الحضارة، يكون فيها سيداً على نفسه ولو من قبيل المجاز والوهم الإعلاني ليتوسل به عن طريق عُصبته الجديدة، ومن سحر الأفكار التي طالما سميت «خلاّقة» إلى زيادة منتوجه الصناعي وتأهيله لإحكام قبضته على ما دونه، وفرض آلته على من سواه وجلب خيرات ما زخرت به بواطن الأمصار إلى نفعه، حتى يصير فرداً صلباً متحكماً، وهو إذ يصنع هذا الوهم لخاصته بقوة آلة العصبة التي استقامت في النهاية في دولته (الامبريالية الرأسمالية)، وبتجييش من أهل الرأي المقرَّبين من بلاطاتها الحديثة من علماء، إنما يرسل للإنسان الآخر دونه

الذي لم يبلغ بعدُ مبلغه، ولم يرتق على سلم الصناعة رقيّه، رسالة تُعلن أنه يعيش العالم الحر الذي مكنت له هذه «الديانة» الجديدة و«الإرادة» الإنسانية الخارقة التي هي الحرية، كل ما ينعم فيه من الرفاه والرخاء، وأن على من أراد اللحاق بالركب وإدراك الموكب والذب فوق المركب، ما عليه سوى أن يخلع عنه التقليد لماض تليد، ومعتقدات خالية مما فيه صلاحه ورشاده، متأخرة عن طموحه وآماله، وهي بلا ريب الهدف لعبوديته وتردي أوضاعه، مساوية لما كان عليه أمر الكنائس في عهد الظلمات (القرون الوسطى في أوروبا).

ويصادف أن يصل مضمون هذه الرسالة ويفهمها بعض من العرب على الوجه الذي ارتضاه صانعوها من الدقة والبغية، ويُفرغ جهده ليحملها دعوة على الإرادة والأمانة، شعاراً نهضوياً وخطاباً نخبوياً عالياً لأمة ينهشها الجوع وتأكلها الأمية والجهالة، غير ناظر لما تحمله الحرية من مقاصد استعمارية ومرامٍ للهيمنة والعبودية.!

(2)

يصعب الجزم بأن وصول تمثال الحرية لأرض العرب حملته سفن نابليون بونابرت في حملته على مصر (1798). على أن ذلك إنما كان دعما للتبشير بأهمية هذا الصنم القائم مقام الرمز المنقذ في أذهان كثير من النخب التي خالطت من بعيد أو من قريب الفرنجة واستهوتها طباعها، وبهرتها آراؤها في المدينة

الحرة الفاضلة، حتى قد راح بعضهم إلى الدفاع عنها والذبّ عن حماها، ينسبها إلى أهل الإسلام، ويضمها إلى الشريعة و«الحرية والهمة الإنسانية اللتين هما منشأ كل صنع غريب عزيزتان في أهل الإسلام مستمدتان مما تكسبه شريعتهم من فنون التهذيب»[3]، ولئن وجدنا مبررا لمثل هذه التأويلات التي تتأتى مع العديد من مفكري عصر النهضة في العالم العربي، إذ يعودون للموروث الخاص لتأصيل ما أضحى عالميا عاما، فإننا غير واجدين سندا لاستمرار هذا العمل التوفيقي بعد أن خلعت المبادئ «السامية» والقيم العليا «السامقة» عنها قناعها لتتجلى في أبشع صورها مع الامبريالية الاستعمارية بقوتها العسكرية وآلتها الصناعية، لسنا واجدين من تفسير غير اعتبار أن «المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده»[4].

ثم إن هذه العملية التوفيقية وهي منشغلة بالوافد باحثة عما يدعمه في موروثها، لائذة بالتعميم في أحكامها، شغلها تراوحها بين النص وذاك القادم في صوره البهية ومدنيته المتقدمة، وآلة صناعته القوية، عن أن تتجاوز إحساسها بالضعف في الهمة، والتخلف في السير إلى النظر بالأسباب والعلل عبر الغوص في الأغوار البعيدة، والمقاصد الدفينة، فطفقت تدعوا إلى ما أراد لها مستعمرها أن تدعوا إليه، وتكافح من أجل تحقيق وضع ليس هو من منشئه، وعند صناعه

بثابت على حال ولا محدد المعالم، ولا تَحقَّق واقعاً على الأرض، وإنما وُضِع لسببه واستخدم لواقعه الآنف.. من لَمٍّ شمل أمة الفرنجة على أمر يحل محل الديانة، وينوب عن الملة، تحفيزا لهمتها، وحشداً لجهدها، واستعداداً لجولتها لغزو أرض خصبة وسوق رابحة لبضاعة فائضة عن نطاقها. من ذلك ولغياب الوعي الذي أشرنا إليه آنفاً، ولما عليه حال أمة العرب والإسلام بعد أن آل وضع دولة آل عثمان إلى ما آل إليه، واستئثار ورثتها من الحكام في مختلف الأمصار بالسلطان وتعسفهم في سياسة الرعية، وقهرهم للخاصة والعامة، وتضييق المعاش عليها.. وإذا كان هذا المبرر قد دفع في بدايات القرن العشرين بعضا من أهل العصبية من العرب بالاستعانة بالفرنجة لإخراج بقية آل عثمان من أوطانها في بعض الأمصار حلما بتحقيق خلافة عربية خالصة، وسلطة حرة من كل ولاء، وجدنا أن النخبة العربية وقعت هي ذاتها في الوهم عينه، بدفاعها المستميت عن التمثال يفوق دفاع الفرنجة في كثير من الوجوه، وتغفل وهي في صراعها ذاك، أن دولة الفرنجة المتبجحة بحملها لتمثال الحرية ومدينة القانون التي نشعها، فهي لم ترق إلى أبسط مظاهر الحريات التي عاشها المجتمع الرعوي العربي.. والتي وورثها تقليداً عن غير وعي وتنظير عن أسلافه الأولين. لأن ذلك المجتمع.. هو الحقيق بأن نصفه بالمجتمع الحر، المستقل بشؤونه، ذلك أن أفراده

(المجتمع) استغنوا عن غيرهم، «فصعب انقياد بعضهم إلى بعض، لإيلافهم ذلك وللتوحش، ورئيسهم يحتاج إليهم غالبا للعصبية التي بها المدافعة، فكان مضطرا إلى إحسان ملكتهم وترك مراغمتهم، لئلا يختل عليه شأن عصبيته»[5].

ثم إن بعضهم ممن رأى إلى المرأة التي أضحت في حياة الفرنجة ندا للرجل مساوية له في المنافع والمصالح، تنافسه في العمل وتتكاتف معه في أبرز مظاهر صخب الحياة، صدم صدمته وراح مقارناً بين وضعها وامرأتنا العربية التي حكمت عليها عهود الظلام من جهة العادات البالية والتقاليد المتخلفة أن لا ترى نور الله الذي بثه لعباده كافة، إلا مرفوعة على نعش نحو مثواها الأخير. فما زاده ذلك سوى مزيد من سخط على الديانة الإسلامية التي هي براء من غلوّ المغالين وجهل الجاهلين، لأن تعاليمها الواضحة وشرائعها السمحة هي التي مكنت لها النجاة من عادات الدفن التي دأبت عليها الجاهلية الجهلاء، وهي التي أوصت الأباء بالعدل بين الأبناء ذكورا وإناثا لبصيرتها بأن منشأ العقد النفسية ومشاعر الإحساس بالنقص إنما مبعثه النشأة الأولى والانتباه المبكر الذي لم تعه علوم الإنسان النفسية إلا مؤخراً، ثم هي التي جعلت لها في مراحل تضجها الولاية على أموالها، وفي تاريخ المسلمين الأوائل.. ما لا يحصى من رائدات في المعرفة الدينية وشؤون السوق الدنيوية. وبالعقل الخالص، فلا تحتاج المرأة لأن يهب لها من دونها حريتها، لأن النساء شقائق الرجال، وللمرأة

مثل ما عليها بالمعروف، وهي راعية في بيتها.. وستظل ما احتفظت بنواة الأسرة وهيأت النشأة، ورعت بيتها، وأحسنت قيادة مؤسستها الأهم عبر العصور والأمصار، إذ الأسرة هي مفصل حياة المجتمعات، وعصب حركة الفرد والمجموعات، لأنها مصنع الإنسان بالأصالة والأساس، أما المقارنات المبنية على المصادمات فإنها تنتج خلاصات مرعية لأوضاع خلافية، ووقائع متباينة في أركانها ضدية، ثم لم يشهد التاريخ الإنساني مؤسسة تعليمية أكثر استقلالية من مؤسسة الأسرة ما التزمت المرأة فيها بدورها بجدارة، لأنها إن كانت كذلك تكون المخلص الحقيقي للنشء من عقدة العنف وإسار الوصاية، لما جُبلت عليه المرأة من اللين من جانب العطف، والسلاسة من جانب الرقة، وقبل ذلك كله الحنان من عطاء الأمومة والرضاعة، فهل استطاع التعليم الحديث أن يحل محل الأسرة؟

لقد حقق الدعاة منّا في سبيل صنم الحرية ما عجزت عليه آلة الفرنجة بعسكرها وآلتها متكئة على ما في الإنسان من قبول لما جاءه باللين من عشيرته على ما أرغم عليه بالقهر من غيرهم، فهو لهذا رافض نافر مقاوم وللأول - ولو على مضض - مطيع مسلّم، وكان حماة الدعوات الحديثة (من مفكري العرب) قد استؤمنوا على الأمانة وحمّلوا الرسالة فأخصلوا النية وأوفوا بالعهد عن عمق يقين ووعي مكين، حتى ذهب ذلك ببعضهم إلى التنكر لأن يكون للدين محل في

الدساتير، إلا صفة عابرة، وسمة لغير موصوف، من أن دين الدولة هو الإسلام، أما ماعدا ذلك فإننا لا نجد غير تشريعات وضعية، وإيمانا مفرطا برسوم دارسة للتمثال المبجل، وصار مستهجنا في ديارنا الاعتراض على ذلك الغلو في الأصنام، وعاد نقد الدساتير خيانة للأوطان بحجة الخوف من المس بالسيادة الوطنية، وكأن السيادة الوطنية لا تعني سوى ما جمع بين دفتي كتاب بلغ تقديسه عند البعض ما لم يبلغه القرآن المجيد في نفوسهم الوهنة، وهذا مرده لاستحكام مبدأ العبودية للأصنام باسم الحرية حتى عاد لا حرية لأصحابها في أن يعقبوا على تلكم الكتب التي وضعها البشر بأيديهم وقيدوا أنفسهم بتعاليمها، وخنقوا حرياتهم على أن تمسها نقداتهم ومراجعاتهم، وليس غريبا أن يتنكر العبد - بطول العهد- لصنمه ويخونه، ألم يرد في الأثر أن عمر رضي الله عنه على عهد الجاهلية التهم صنمه المصنوع من التمر، استجابة لنداء الحاجة، وكذا تؤكل الأوهام كلما اصطدم الإنسان بحاجاته الملحة.

ولأنه ليس لأهل الرأي من حيلة سوى ما خُوّلوا من أهل النفوذ من بعض أمرٍ أُعطي لهم بقدر تقربهم من المجالس والمناصب، فقد استُعملوا استعمالا ووُظّفوا توظيفا بحسب موازين القوى المرعية التي يحرص أولائك على عدم الإخلال بها في أوطانهم للصلة الوثيقة لهم بالفرنجة من أهل نعمتهم

في تقليدهم وتعيينهم، ولقطفهم ثمار الشهداء الذين ثاروا بحق لأجل تحرير أوطانهم من قهر النصارى المستعمرين فإنهم (أهل النفوذ)، الذين أدركوا أن صفقتهم مع أولئك الغرباء لابد أنها مرذولة عند العامة والخاصة النبيهة، وأن حربها لأجل الاستقرار على ما هي عليه في القادم من أيامها هو الحؤول دون رجوع روح الشهداء في الذرية اللاحقة، وأنه لتحقيق الغاية والمنفعة الدائمة والمصلحة المتصلة، لابد من الحفاظ على الصراع بين المغالين في أصنامهم القديمة على ما وجدوا آباءهم عليه (أهل التقليد)، وبين أولئك الأتباع المغالين هم أيضا في أصنامهم الوافدة، وإعلان تلك الحرب في المجالس وعبر الإعلام على أنها من قبيل واقع من حرية في الرأي، وحق في التعبير، وكانت الغاية البعيدة هي تذويب الطاقات في حروب وهمية كي لا تكون الحياة دُولة بين الجميع وحتى لا ينظر أولئك إلى ما في أيدي غيرهم من أهل الجاه والنفوذ.!

تمثلت تلكم المعارك كأوضح ما تكون في الصراع العنيف بين التجديد (الذي غالباً ما تجلى في شعار القطع مع كل موروث قديم) ضد التقليد (الذي غالبا ما رَفع شعار الركون إلى استدعاء التاريخ لأن يحل في الحاضر)، وحرب التقدم (الذي في معنى الارتقاء الخطّي) ضد التأخر (الذي في معنى الرجوع إلى المجد السالف والتاريخ التالد). ولما كانت أعناق الابتداع والتجديد (التي أخذت على نفسها اتباع الآخر)،

مشدودة إلى الحرية تسحرها الصدمة وتشدها مصالحها فيما توهمت من أشكال وهيئات حديثة قائمة أو مأمولة في حياة الغرب، وكانت أعناق أهل التقليد مشدودة إلى العصور الأولى والبطولات التاريخية، فإنه لم يتم الاتفاق على أمر جامع للنهوض بالأمة ولا النظر الثاقب في وضعها من السلم الحضاري والتأخر الفكري في عصرها الراهن، لأن التحاور لم يخرج عن محور التاريخ بين رافضين له جملة ومنتصرين له بالكلية، أضف إلى أنه لم يخل مسار هذا الصراع الموهوم من عنف مادي حل محل الجدل الكلامي، كلما عمدت العصبة المهيمنة إلى تمكين أحد الطرفين على حساب الآخر وإعطائه بعضا من أمر تبعاً لمصالحها وتوازناتها، فيتجه هذا الطرف يستعمل آلته السلطوية بحكمة معرفية، ليهدم ما بناه عدوه المفترض غير عابئ بحرية فكرية (إن كان من أصحاب صنم الحرية) أو عابئ بالقيم الروحية والشريعة الربانية (.. إن كان من أهل هذا الاتجاه). كل ذلك، وينسى صاحب القلم أن الرابح الأخير في مثل تلكم المعارك هي العصبة المتحكمة الرافضة لكل مبدأ ما كان منه مجسداً في الماضي بالتقليد أو ذاك المجسم في الحرية باتباع الابتداع، لأنها حريصة على مصالحها المحققة لها في النفوذ المرتبطة بوصاية الآخر وحماية الأعاجم، وليس لها مبدأ موصول بهذا ولا بذاك، وهي على استعداد لأن تقايض في كل أمر عدا ما يمس خاصتها من نفع مستمر ومصلحة جارية.

إن السجال الواقع باسم الحرية بين الأقطاب التي لم يخل منها زمن ولا عهد في التاريخ، إذْ لم تخل أذهان البشر بين ميال لماضٍ رأى فيه صلاحه والحفاظ عليه فلاحه، وهي خاصة نلمحها بوضوح لدى من تقدمت به السن وأوغل به العمر، وبين متوثب لمستقبل منتصر لحاضر وهو ما نلمحه فيمن أقبلت عليه الدنيا ولم يبلغ بعد مبلغه منها، وإذا أضفنا إلى ذلك الصراع الذي هو من طبيعة اختلاف الأجيال فيما هو متعلق بتقلب الأزمان، حين تحل بالأوطان المتغيرات.. لما في التاريخ من منعطفات، فإنه باستطاعتنا القول إن تعليق البعض للآمال على أن ذاك السجال الطبعي!، يؤول إلى دحر الماضي بمثل ما دُحرتِ الكنيسة ورجالها عن واقع المجتمع وحياته، هو من طبيعة الوهم، لأن الغرب الذي انتصر للعلمانية وآمن بالحرية وانجرف إلى مهالك الإلحاد، في عنفوان ثورته على العهود البائدة، ليس هو الغرب بعد الحروب الكونية، فهو بعد حربه الثانية طفق يراجع أدبياته ويحمل نفسه مسؤولية الدمار، ويعتذر على ما آلت إليه الإنسانية من جراء تنصيب الإنسان الأبيض مقام السيد الرمز، واستعماله لآلته في جسد من سواه، وهو اليوم يبحث عن الحكمة الراشدة في متون الكتب المقدسة والروحانيات السماوية المنزلة، ليس ذلك من إحساسه بعجز الإنسان عن إسعاد الإنسان، بل لوعي بأن الإنسان في بعده عن الإرادة الهادية والرسالة السماوية العادلة لا يوازي سوى الوحش الكاسر والغول المتعطش للدماء. وليس علينا أن نسأل

بعد ذلك عن مدى توفّق العرب في الأخذ بمبادئ الحرية؟ إن هي كما بينّا لم تأل بصاحبها إلا إلى ما آلت إليه أوضاعهم! وإنما السؤال الجوهري عندنا، هو أي جانب من جوانب حياتنا طغى فيها هذا الوهم أكثر طغيانه وتوضحت معالمه؟ ومدى ما جره على أهل الفكر والقلم عندنا؟.

ليس في نية المستعمر الوارث لتركة.. (الدولة العثمانية) من نية في أن يُورِثها شيئا من حُلمه في الحرية والتقدم والرفاه. وعلى الرغم من أن حملة نابليون بونابرت (1798) جاءت بعد أقل من عقد من الثورة الفرنسية، فإن الفكرة الوافدة لم تزد في وعينا على المستوى النفسي سوى مزيد من الشعور بالضعف والهوان وقلة الحيلة ووهن الهمة، هذا على المستوى النفسي ودواخل الفكر لدى العامة والخاصة، أما على مستوى الشأن العام والنفوذ الشامل ، فقد خلفت الإمبريالية وراءها مَنْ هو لها تابع منقاد محتكر للنفوذ والسلطة بالحديد والنار، نافر من كل نقد، رافض لكل انتقاد، ولأن أهل الرأي ممن آثروا السلامة على المواجهة إلا ما سنحت به الفرصة الخاطفة ودعمته عصبة متربصة، فإن إطلاق اللسان للتعبير كان متجها في عمومه إما لتمجيد ماضٍ تليد، إمعانا في تغييب عامة الرعية بتحريك مشاعرها وتجييش حماستها لجانب من موروثها أضحى تاريخاً ماضياً، ورسماً معفّى، أو بالإقبال هدما في المعتقد والشريعة التي لايزال عليها السواد شادا بالنواجذ.!

وهذه الحركة والجلبة مدعاة لأن تبعث المتتبع الواقف على سطح الحياة لدينا على الاعتقاد أن النهضة العصرية على أشدها، وأن الولادة لعالم حر قرب مخاضه بيد أنها صيحة في واد، ونفخة في رماد، لأن الأمر في جوهره لا يعدو أن يكون حلما موهوماً وصراعاً متوهَّماً، إذْ استمر الانحدار منذ انبعاث ذلك الجدل إلى اليوم، ولم يزد واقعنا إلا تأخرا على تأخره، بالمقارنة إلى تقدم من سوانا، يعود ذلك في رأينا - إلى عدة أسباب أهمها:

1 - غياب آليات التواصل مع القراءة الفاعلة للموروث، المحفزة على الشد بسبل استمراره وتجديده، وانكفاء أهل التقليد على رفع يافطة التراث دون الغوص في أغواره، للكشف عن الحد الفاصل بين رسومه التاريخية المعفيّة وجواهره الثابتة المفرِّعة لأحكامه المتجددة الاجتهادية. هذا الانكفاء الذي جعلها في غياب ليس عن حركة التاريخ ومسار التطور الإنساني فحسب، بل عن التراث الغني الذي ترفعه وتدعي حمايته واحتكار فهمه عمَّن سواها.

2 - غياب الوعي بأن من أبرز مظاهر الحرية الجماعية لدى الغرب، الأخذ برأي الأغلبية مع عدم تهميش الأقلية، وغياب هذا الوعي جعل من النخب المغالية في عصرنتها مع توهمها بملكية الحقيقة وسبل التنوير، جعلها تقف ضداً أمام الرأي العام - من جهة تمسك العامة بالمسلك

الـديـنـي - وتـداخـل هـذا المـوروث فـي نـواحـي الحـراك الاجتماعي. وهو الوقوف الذي يأخذها عليه الكثير ويجعله حداً فاصلاً بينها (النخبة) وبين الوعي ليس بحقيقة الدين فحسب، بل بجوهر التجربة الديموقراطية التي هي مظهر.. من مظاهر الحرية الغربية، والتي ترفعها يافطة في نضالها.

3 - انشغال هؤلاء وأولائك بالقضايا الهامشية عن القضايا الجوهرية، وانقلاب تراتبية الأولويات.

ليس أسهل على المرء من أن يلقي تبعات تأخره الحضاري على غاصب أخذ خيراته، وأورثه مزيداً من التخلف الفكري والصناعي، بيد أن الأرض التي حطّت عليها سفن الوافد كانت مهيأة من أهلها معدّة من أصحابها، وهي قائمة لأن تأخذ عنه كل دعوة بحكم إحساسها بالغلبة وولعها بالتبعية، رضاءً من نفسها وقبولاً مسلّماً من ذاتها. وهي إذ تفعل ذلك وهما منها بأن التحرر من العبودية يمكن له أن يُوهَب ممّن تعلقت أسباب رقيه بهذه العبودية للآخر.. التي في سبيلها مستعد أن يرفع شعار الحرية ليلتهمه مَن دونه.

إن الحرية الحقيقية إن كان لها واقع في رأينا.. لا يمكن أن تعني بحال من الأحوال سوى الكفاح ضد أشكال العبودية، والتي قد تتستر بلبوس الحرية ذاتها، وهو الأمر الأخطر. إنَ ما جاء في الأثر عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه، قوله:

«متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً»، يدعونا لقراءة متأنية تكشف عن أنّ الحرية لا تكون إلا بعد مخاض لأمّ ولود، وأنها في أصلها طبعية، إنما تتحول بالثقافة عبودية إذا ما أراد الإنسان أن يوقف بعقله هذه الحال التي جبل عليها الإنسان، ويحولها إلى عبودية ليخدم بها طبيعته الوحشية، وهي إذا ارتبطت بالأم دلالة على أن الحرية نبعها هو من نبع الإنسان بالأصالة، فهي لا يمكن أن تُتَبَنّى تبنّيا ولا أن يُتَوَهّم أن تُوهَب من مستعمرٍ غاصب. تَلدُ الأمة الحية الولود الحرية بعد مخاض عصيب، كما تلد الأم مولودها حراً، ليس لها من توفيق سوى القوة الربانية والرعاية الإلهية. مع التأكيد أنّ رجوعنا إلى هذا النص لا يتعارض مع ما أشرنا إليه في البدء من تخلينا عن منهج التنظير أو البحث عن التعريفات في بطون الكتب، ذلك أنّ حياة العرب المسلمين بعد الرسالة في يقيننا، قد شهدت فعلا معنى للحرية، فيما ارتبط بفعل تحرير الإنسان من عبودية شهواته أساسا وعبودية غيره من القوى حية كانت أم جامدة. تدلل على ذلك علامات واضحات في تاريخه الحقيقي الواقعي.

إن ترجيح الأولويات يفرض علينا اليوم أن لا ننسى أن العديد من شعوب العرب لازالت ترزح تحت استعمار مباشر وحشي - ليست فلسطين ببعيدة عن أنظارنا ومسامعنا، وكذلك جزء من لبنان وسورية، أما الأخرى فهي تحت

الاستعمار المقنّع باسم الليبرالية (المتوحشة)، والعولمة (المهيمنة)، إلى جانب شعوب إسلامية هي منا بمثابة الأطراف للجسد الواحد لازالت آلة الشيوعية الحمراء المهترئة، والعنصريات الجديدة للنازية المنقرضة تعمل فيها عملها. فالأولوية التي أرى استفراغ الجهد لأجلها وجعلها محور القضية المركزية لموضوع الحرية، وتسخير القلم في سبيلها موقوفا عليها دون سواها، هي المسائل المصيرية لنا وللأجيال القادمة التي.. لن تغفر لنا تقصيرنا في تقديم أضعف الإيمان بالإصداح بالرأي، وقول الحق ولو كره الكارهون.

الهوامش

1) عبدالرحمن بن خلدون ، تاريخ ابن خلدون، دار الفكر، بيروت، 1979، مج 1، ص 106.

2) الجاحظ، رسائل الجاحظ، قدم لها وبوبها وشرحها، على أبو ملحم، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط 1، 1987، ص 65.

3) خير الدين التونسي، أقوم المسالك لمعرفة أهل الممالك، تونس، 1977، ص 158.

4) عبدالرحمن بن خلدون، مصدر سابق، ص 123.

5) عبدالرحمن بن خلدون، مصدر سابق، ص 127.

* * *

الجواهـــري..!

«1»

إنني أؤكد.. في غير تحفظ، أن الأخ الدكتور زاهد محمد زهدي ، قد بذل جهدا مشكوراً.. في تقديم هذه الدراسة الواسعة، عن الشاعر الكبير.. محمد مهدي الجواهري وشعره، وقد أعانه على ذلك صحبته المبكرة لشعر الشاعر، وسيره الطويل معه، ومعرفة الشاعر عن قرب، ثم تعلق المؤلف بهذا الشعر.. الذي ملك عليه نفسه، على ما يبدو، وإعجابه به.. وبإرادة صاحبه وقوته، لأن الشعر القوي.. في تقديري، لا يصدر إلا عن شاعر قوي ، لا يهاب ولا يتردد ، والشواهد قائمة.. عبر تاريخنا. خذ مثلا : المتنبي ، وأبو العلا، وأبو تمام وأضرابهم.. من شعراء العصر الجاهلي والإسلامي، في العصر الأموي والعباسي، وشعراء النهضة.. في العصر الحديث، مثل

الزهاوي والرصافي.. في العراق، وبعض شعراء مصر، مثل البارودي وحافظ إبراهيم، وشعراء الشام، مثل أبي ريشة وبدوي الجبل، وكذلك الحال في الجزيرة العربية وتونس والمغرب، وبقية الأقطار العربية.

إن دراسة الأخ زاهد.. التي بين أيدينا، ممعنة في الجودة والتتبع، والإحاطة بالكثير.. الذي يتصل بالشاعر الكبير وشعره. وليس كثيراً.. أن يكتب نحو ستمائة صفحة، كاتب عن شاعر فحل كالجواهري، بل إنه يستحق.. أن يؤلف في شعره الكثير والغزير، من الأطروحات الجامعية، ودراسات شتى. تعني بشعره وحياته وتشرده ونضاله، سعياً وراء الحرية لشعبه، ولشعوب الأمة العربية، من محيطها إلى خليجها. لكني أطمح أن تكون المنهجية في التأليف أساساً، لتفادي الحشو والتكرار.. اللذين يبعثان على الملل، ويضيعان على القارئ الجاد متعة القراءة والدرس، لأن التكرار.. في أكثر من فصل، يفقد القيمة الدراسية الجادة وهجها.. لأي مؤلف. انظروا مثلاً إلى كتاب المتنبي، الذي كتبه المحقق محمود محمد شاكر، فحين ظهر لأول مرة في طباعة عن «المقتطف». كان متميزا مركزاً، ذا قيمة ومعنى. وحين وسعه مؤلفه، فجعله مجلدين، كثر فيه التكرار والحشو، وفقد قيمته الأدبية، التي عرف بها وتميز في طبعته الأولى.!

إنني أؤكد أن الأخ زاهد يدرك ذلك، غير أن حبه للشاعر

الكبير.. دفعه إلى ما آل إليه كتابه، ليكون ذلك التكرار.. مرات ومرات، في كل الأبواب، وكان ينبغي أن يكون التركيز، هو الهدف الأول، لتقديم دراسة مقننة وافية، في كتاب تبلغ صفحاته من المئات ستاً، ليصبح مرجعا للدارس، قبل القارئ، غير أن الكتاب.. لم يرق إلى هذا المستوى. ولعل أخص ما يفتقده القارئ الجاد، أن المؤلف صرف النظر، وهو في حماسة الاهتمام.. وجمع المعلومات والتكرار، في هذا الاندفاع عن بعض جوانب مهمة، رغم أنه صاحب الشاعر وشعره وابن الشاعر الأكبر سنين، جعله يتجاوز عن النقد .. الذي يحتاجه هذا الكم من الشعر، وهو ما يتطلع إليه قارئ الكتاب، ولم يعن الأستاذ زهدي.. إلا بالمطالع - قوة وضعفا - وبعض الملحوظات. وكنت أود، وربما غيري من قراء كتابه، أن يعنى المؤلف، ويقف على الشعر الضعيف المتكلف والمتوسط، كما عنى بالشعر القوي.. الجيد المتميز، في كل ما كتب وقدم، كما هو دأب ودور الدارس الحاذق، الذي يعنى بدرسه، كما فعل طه حسين في كتابه- مع المتنبي -. وحتى الذين كتبوا مقدمات لدواوين شعرية وكتب ذات قيمة، كما فعل.. الأستاذ عبدالعزيز الربيع، في ديوان: «قدر ورجل»، للشاعر السيد محمد حسن فقي، فقد أعطى ذلك الشعر حقه، من القيم والتقويم، فبلغت مقدمته الدراسية وليس الجانب النقدي، إطراءً فحسب.

ولا يغيب عن بال الأخ الدكتور زاهد زهدي، ولا المثقفين،

ما جرى في عرف البلاغيين، على جعل الأسلوب الوسط.. «الذي تساوت فيه ألفاظه ومعانيه، أصل الأساليب. فإذا زادت الألفاظ على المعاني.. كان الاطناب، وإذا زادت المعاني على الألفاظ.. كان الإيجاز. والبليغ الحق، لا يكون من طبعه الطول ولا الفضول، وإنما يسلك إلى تأدية معانيه إلى ذهن القارئ أو السامع ، طريق المساواة والتقدير، أو طريق القصر والحذف. أما الإطناب أو الإسهاب.. فليس من طبيعة اللغة العربية، لأنها لغة سامية. وأول الفروق بين اللغات السامية واللغات الآرية، أن الأولى إجمالية، والأخرى تفصيلية، ذلك أن طبيعة اللغات الإجمالية، الاعتماد على التركيز، والاقتصار على الجوهر، والتعبير بالكلمة الجامعة، والاكتفاء باللمحة الدالة. أما طبيعة اللغات التفصيلية، فهي العناية بالدقائق، والإحاطة بالفروع، والاهتمام بالملابسات، والاستطراد.. إلى المناسبات، والميل إلى الشرح . ولم تعرف العربية التفصيل والتطويل والمط.. وتعاقب اللفظ.. كلماً أو جملاً على المعنى الواحد، إلا بعد اتصالها بالآرية الفارسية في العراق، والآرية الأوربية في الأندلس.. كما يقول البلاغيون»[1].

«2»

كنت أود.. من المؤلف، أن يقف مع كتاب: «سليم طه

(1) أحمد حسن الزيات، مجلة الأزهر، صفر 1384 - يوليو 1964 - الافتتاحية.

التكريتي»، الذي كتبه عن حياة الجواهري - حكايات مع الأدباء -، لكن الأستاذ زاهد، أشار إشارة عابرة مقتضبة إلى ذلك الكتاب. وأكبر الظن أن مؤلف كتاب «الجواهري»، رافض ما جاء في كتاب التكريتي جملة وتفصيلاً. غير أن الواقع يدعو إلى الوقوف على ذلك الكتاب، يأخذ منه ما يرى أنه حق، ويرد على المزاعم.. التي لا صحة لها، أما أن يرفض جملة وتفصيلاً، فإن القارئ للكتابين، لابد أن يتساءل: لماذا الكتاب اللاحق، الذي عنى بشعر الشاعر وحياته، لم يتوقف عند الكتاب الأول، يحاوره، ويجادل صاحبه بالمنطق، وينقض الباطل فيه بالدليل!؟ لم نر شيئا من ذلك فعله الأخ زاهد زهدي، وهذه حجة تحسب عليه، لأن مبدأ التجاهل المطلق.. ليس من دأب الذين يعنون بالدراسة المنهجية المتقنة.! وخلال السطور التالية، فإني أتوقف عند كتاب.. سليم التكريتي، لأني سبق أن قرأته، وكتبت حلقات نشرتها في صحيفة البلاد، منذ أن وصل الكتاب إلى يدي.!

«3»

يتحدث سليم في كتابه عن الجواهري، فيقول: «ارتفعت مكانة الجواهري وشهرته في آفاق العالم، وأصبح في عداد شعراء الإنسانية، فشارك في مؤتمر المثقفين العالميين، في - بلونيا -، في أغسطس 1984، وكان العربي الوحيد بين خمسمائة مندوب، فاختير عضوا في حركة السلم العالمي».

هذا كلام جميل، لماذا تجاهله الأستاذ زاهد، ولم يشر إليه، ولم يأخذ منه؟.

ويشير سليم إلى أن الجواهري.. في عودته من ذاك المؤتمر، توقف في بلد الجمال - باريس -، فأعجب بها وأخذ يغرِّد:

كأن طيوف الخطايا تتوه مدى، ثم تحتضن الأعينا
كأنك باريس أم الدنى بكل الغموض، بكل السنا
وكم من فم حشوه وردتان هما الشفتان، هما الجمرتان
أراق الزمان دماء الشباب ليرديهما وهما يلهثان

وقال كذلك:

تمسح خداً بخد يذوب من الحب في وجنتيه ندوب
ولاح كما لاح فوق السهوب رؤى شفق في الوجوه الشحوب

●●●

تعلمت كيف يشق الغزل طريق الحياة إذا أظلما

ويقول الكاتب.. إن الشاعر الكبير، مكث في باريس زهاء خمسة أهلة، ورغم ذلك.. لم يتعلم الفرنسية، ولعلي أرى أنه غير معني بتعلم اللغات، وحتى حين ذهب مع الوفد الصحافي.. إلى بريطانيا، وانشق عن الوفد، أختير له مترجم،

ليرافقه في رحلاته وجولاته، ولم نر للمؤلف.. الأخ زاهد.. أي توقف أو إشارة، عن رحلة باريس وبريطانيا.!

«4»

وحين ضاقت الدنيا بالشاعر، ثم حانت ساعة فرج، بانعقاد المؤتمر الثقافي للجامعة العربية.. في الإسكندرية، في عام - 1950 -، ودعي الجواهري إليه، بعيداً عن الوفد العراقي الرسمي، فذهب، وألقى قصيدته: «إلى الشعب المصري»، هاجم فيها الحكومة العراقية، وحين أكمل إنشاده، وقف الدكتور طه حسين، وكان يومها وزيراً للمعارف، فأثنى على الشاعر أبلغ الثناء، كما أثنى على القصيدة.. بما تستحق، ونحن نعرف من هو طه حسين خطيبا بليغاً، حين يطرب لشيء ويعجبه، فإنك تسمع منه العجب.. من سحر البيان! وأعلن الأستاذ العميد للشاعر.. أن الحكومة المصرية على استعداد، للإنفاق على أبناء الشاعر تعليماً وإعاشة في مصر، وهم: فرات، أميرة وفلاح. ولم نقرأ شيئاً من هذا فيما سطره الأخ زاهد في كتابه الكبير عن سخاء الحكومة المصرية، والموقف الكريم.. للأستاذ العميد طه حسين!. أما قصيدة الشاعر في مصر، التي مطلعها:

يا مصر تستبق الدهور وتعثر   والنيل يزخر، والمسلة تفخر

فقد أتى عليها المؤلف في كتابه «الجواهري».

لم يطل بقاء الجواهري في مصر ، فعاد إلى بغداد ، وحصل على امتياز جريدته «الرأي العام». وبدأت في الظهور. ثم دعي إلى تأبين عبدالحميد كرامي.. في لبنان، من قبل رياض الصلح، رئيس وزراء لبنان يومئذ، وحسين العويني، وألحا عليه في الحضور، ذهب إلى هناك، وفجر قذائفه وهجومه.. في رائعته الرائية، التي بدأها بقوله:

باق وأعمار الطغاة قصار   من سفر مجدك عاطر موآر

وعصفت هذه القصيدة بوزارة الصلح.. فاستقالت، وأسندت إلى العويني، ورحل الشاعر.. في أربع وعشرين ساعة من قيام الوزارة الجديدة. وكانت حكومة العراق للشاعر بالمرصاد، لما نالها.. من شواظ قصيدة رثاء كرامي، وأتيح لها الانتقام من الشاعر، حين نشر قصيدته «تنويمة الجياع»، التي يقول فيها:

نامي جياع الشعب نامي   حرستك آلهة الطعام

نامي فإن لم تشبعي   من يقظة، فمن المنام

وكان الجواهري.. يصدر جريدة - الأوقاف البغدادية - ، فعطلت، وفكر الشاعر مجدداً في الذهاب إلى مصر، لاسيما وقد لقي منها ترحيباً على لسان وزير معارفها.. الدكتور طه حسين ، إبان مشاركته في المؤتمر الثقافي لجامعة الدول العربية، والانفاق على أبنائه.. تعلميا وإعاشة. وذهب إلى أمه في

النجف لوداعها، وجاء دافق الشعر.. في أثناء زيارتها، فأنشأ قصيدة بعنوان: «قفص العظام»، نشرت في جريدة - النصير - الدمشقية، ونقلتها عنها.. جريدة - صوت المبدأ -، فنشرت فيها، يوم 1951/6/4، وفيها يقول:

تعالى المجد يا قفص العظام ... وبورك في رحيلك والمقام
حججت إليك والدنيا تلاقي ... عليك بكل قاصمة عقام
وفي صدري، تدور مسومات ... من البلوى عصين على اللجام

ترك الجواهري.. بغداد إلى مصر. وفي مطار القاهرة.. لم يُسمح له بالدخول، فهاتف ابنه فرات.. ليبلغ الدكتور طه حسين الأمر ؛ فأسرع الأستاذ العميد، إلى الاتصال بوزير الداخلية، فؤاد سراج الدين، يطالبه السماح بدخول الشاعر مصر، وجرى ذلك على عجل. ولعل عدم السماح للجواهري بدخول مصر.. كما يبدو بإيعاز من حكومة العراق.!

وفي مصر يومئذ، كانت المقاومة الشعبية.. تكافح الاستعمار؛ فحركت مشاعر الجواهري، فنظم قصيدة يقول فيها:

خلي الدم الغالي يسيل ... إن المسيل هو القتيلُ
مدي بهامك، فالجها ... د لديه من هام تلول
متراكمات، لا تبا ... لي الدّهر يقصُرُ أو يطول

من ها هنا فجر يطـ لُ ، ومن هنا «ليلٌ» يزول
قل للشباب بمصر والـ دنيا ، لمن يُصغي تقول
هذا أوان الجولة الـ كبرى، تبارك من يجول
إن لم تصولوا للذُّيا د عن الحياض، فمن يصول
خوضوا دم المستعمريـ ن، فطالما خيضت وحول
وتصيّدوهم .. مثلما صِيدت لمحترش وعول

ويعلن الكاتب، أن الجواهري.. لم يلق بمصر ما يحلم به، من المجد والشهرة والإشادة بمواقفه البطولية، فقرر.. أن يغادرها ، وبدأ في نظم قصيدة غاضبة. ولعله أخبر.. الأستاذ العميد بذلك، فهوّن عليه. ولعله رجاه ألاَّ يفعل، واكتفى الشاعر بكتابة بيتين اثنين.. هما:

ما انفك يا مصر والإذلال تعويد يسومك الخسف كافور وإخشيد
مقالة كبرت، والحب شافعها حسب المسُودين لو شاؤا لما سيدوا

وعاد الجواهري – خالي الوفاض –. ويقول التكريتي.، في ص «104»: «من الصفات المميزة للجواهري، عدم اعترافه بالوفاء لأي إنسان كان، فكلمة الوفاء.. لا وجود لها في قاموس الجواهري، مثل كلمة – الانضباط –، ولم يوف حاكماً».! وأنا لست أشكك أو أؤيد هذا الاتهام، لأنه قاس

ويشع، لكن هذا الاتهام .. الحكم فيه إلى العارفين والمخالطين للرجل. وأنا لا أزكي على الله أحداً.!

وخلال حركة عام 1958، كان الجواهري.. يعيش في منفاه بمدينة «براغ»، في شقة منحت له من الحكومة التشيكوسلوفاكية، مكث فيها سبع سنوات، ثم استدعته حكومة البعث، ومنحته مرتباً، وطبعت مجموعته الشعرية، وأرسل إلى لندن للعلاج.. على نفقة الدولة ، واستأجرت له شقة في عاصمة اليونان.. يقضي فيها الصيف، على شاطئ البحر ، ومنحته شيكات ينفق منها، كما منحته عشرة - دونمات -، من أرض على الضفة اليمنى.. من نهر دجلة لبناء دار.

«5»

كان الجواهري يسير في الفلك اليساري، ونجد نغمة اليسار في أشعاره، لاسيما خلال الحرب العالمية الثانية.. وما بعدها. ويقول سليم التكريتي: «إن الشيوعيين لم يكونوا يشاركون ي تحرير الصحف التي كان الجواهري يصدرها، وقد نشرت صحف الجواهري بعض مقالات لكتاب شيوعيين.. ». ومنح الشاعر.. امتياز جريدة، أسماها «الجهاد» واعتقل الجواهري مع آخرين، ثم أفرج عنهم، ونظم وهو في المعتقل قصيدة بعنوان: «ظلام»، يقول منها:

ظلام يغور ولجم يغورْ كأنّ ... وزنجي ليل بخيف الدهورْ
كأن ثناياه عش النسور ... كأنّ المجرّة فيها بثور
أقم يا ظلام رواق الضباب ... وشد في فيافيك سود القباب

●●●

أقم يا ظلام رواق الضباب ... وخيِّم فلا نجمة تطلعُ
ولا همسة من فم تسمع ... غفا الحقد بالليل والحاقد

وحين تولى الملك فيصل الثاني الملك، مدحه الشاعر بقصيدة، بعنوان: «ته يا ربيع». فذهب خصوم الجواهري وحساده وأعداؤه، أو - المنقلبون - عليه.. من اليساريين، للنيل منه، واتهامه بالتزلف والسقوط، ونظم فيه أحدهم قصيدة، فيها قذى وسباب! ولم ينل الجواهري شيئا عن قصيدته.. في مدح الملك فيصل الثاني.. سوى إعادة امتياز وإصدار صحيفته - الرأي العام -، وهي مصدر رزقه. وتجددت ثورة الشاعر.. على الحاقدين والحاسدين وغيرهم، فنظم قصيدة بعنوان: «كما يستكلب الذئب»، نشرها.. في آخر يوليو - 1953 -، في جريدته، بعد أسبوع.. من إصدارها، فقال:

عدا عليَّ كما يتسكلب الذيب ... خلق ببغداد، أنماط أعاجيب
خلق ببغداد، ممسوخ يفيض به ... تاريخ بغداد، لا غرب ولا نوب
لو شئت مزّقت أستاراً مهلهلة ... فراح سيان منهوك ومحجوب
إني لأعذر أحراراً إذا برموا ... بالحر يلويه ترغيب وترهيب

نما لعبدان أهواء وعندهم   في كل يوم من التغرير أسلوب
مشت إليَّ بعوضات تلدغني   وهل يحس دبيب النحل يعسوب
ما أغرب الجلف، لم يعلق به أدب   وعنده للكريم الحر تأديب
ويستثير شجاهم أصيد عصرت   منه الخطوب، وشدَّته التجاريب
ما كنت أول محسود تهضَّمه   وكس، وحاربه بالسب مسبوب
يبقى القصيد لظى والأرض مشربة   دماء وتذري مع الريح الأكاذيب

إن الأحداث لا تضعف نفس وهمة القوى وإرداته، ولا تهزمه الخطوب والأحداث. ولقد حدث صراع.. بين عبدالإله الوصي على عرش العراق، ونوري السعيد.. رئيس الوزراء، دفعت الثاني إلى باريس.. بحجة العلاج، ولم يعد.. إلا باشتراطه، حل مجلس النواب، ففعل عبدالإله، وأنشأ في ذلك الجواهري قصيدة بعنوان: «التعويذة العمرية»، وهي قصيدة تهكمية.. ساخرة لاذعة، ويقول سليم التكريتي إنه لم يتمها، وربما كان مرد ذلك خوف العاقبة.. كما يعلل الكاتب، أو أنها ضاعت.. مع ماضاع من أوراقه.. يقول الشاعر:

عوِّذت وجهك بالقمرْ   وبما أضاء، وما ازدهرْ
وبما تفتح من «ضميـ   ـم» النبات، أو نَوْرِ الزَّهر
من شر حاسدك الذميـ   ـم، على سناك المزدهر

يا تحفة العصر الحديـ ث، بحيث تحسده العُصُر
يا أيها «الفكر» العظيـ م، بحيث تنحسر الفِكَر
يا خير من حكم البلا د، وخير من ساس البشر
يا خالق النواب خلـ ـق الطير من طين الحفر
سبحان خالقك المبـ ـرأ كيف صاغك من درر

يذكر المؤلف.. سليم التكريتي، أن عبدالإله، في عام 1955 أراد إرضاء الشاعر وتعويضه عما حل به من كرب وتعب، بمثابة عما أصاب الرجل وأضناه.. وحرمه من الحياة الكريمة، التي كان ينبغي أن ينالها، وهو الصوت المجلجل للعراق.. في العالم العريض، «وإن كانت له تقلبات هي.. من الأسباب في حرمانه وإهماله». وكان التوجه أن يعطي للشاعر أرض زراعية وآلات حرث وحصاد والمواد الزراعية الأخرى، وزين أصدقاء الجواهري له ذلك. وقدر الرجل.. أن هذا المزروع سيحقق له بعض أحلامه، لاسيما في الثراء، وتزوج الشاعر بفتاة ريفية، لكنه طلقها.. بعد التجائه إلى الشام، وشغل بالزراعة، وانشغل عن الشعر ، فلم ينظم سوى قصيدة.. خلال تلك الفترة، عنوانها: «يا أم عوف، في عام 1950.

لقد فاتني.. وقد تذكرت بآخرة، أنه كان ينبغي عليّ أن أشير.. وأنا أقدم هذه النماذج.. التي أتى بها التكريتي، في سياق حديثه عن الشاعر الجواهري. أقول فاتني الوقوف على

الأبيات الجياد، لأشير إليها، لأن الجواهري.. شاعر مطبوع.. من كبار شعراء القرن العشرين. وأشير كذلك إلى أبيات وأشطر.. مهزوزة وضعيفة، ليحيط بها القارئ، وقد شغلت بالأحداث.. التي عاشها الشاعر، وصراعاته ونصبه ومواقفه. ولم يكن في حسباني.. التوقف عند الأبيات التي ساقها سليم، من خلال حديثه وسرده.. لشؤون وشجون الجواهري، وهو قد عايشه زمناً، وعمل معه، وعرفه من قرب. أما أمانة الصدق وتجاوزه إلى ما عداه، فليس من شأني التوقف عند ذلك السرد لحياة الشاعر، وما غمز به ولمز، وشكك وعلل.. وأبدى وحدَّث، معنياً بذلك، إلا إذا كان يبدي ما ينقض ما قرأت.. مما ساقه الكاتب سليم التكريتي، وحينئذ اضطر إلى المقارنة.. بين حالين، وروايات، يعارض بعضها بعضاً، ويناقض بعضها بعضاً كذلك. إلى غير ذلك مما تدعو إليه القراءة والتقصي.. والتحليل والتأمل، لئلا نظلم الشاعر الكبير... إذن هذه الوقفات.. ليست دراسة وتأملات فيها عمق، إنما هي وقوف على نماذج مما ساقه المؤلف، لا تمت إلى الدراسة بمعانيها الواسعة بصلة. وحسبي إنها وقفات سريعة، على صور.. من حياة الشاعر الكبير، وهو قد قدم ثلاثة مجلدات، يمكن الرجوع إليها وقراءتها واستنطاقها.. والتوقف حيث ينبغي ذلك للتأمل. والأبيات التي جاءت في قصيدة الشاعر «أم عوف»، وشكوى الشاعر، شعر جيد، سوى صدر

البيت الثاني.. فإنه لم يعجبني، لأنه ضعيف، وهو قوله: «في كل يوم بلا وعي ولا سبب»، فهو حشو لكلام أو كلمات.. ليست في مستوى القصيدة وجودتها، ولا مستوى شعر الجواهري القوي، وهذا شيء طبعي، أن نجد في شعر أي شاعر فحل.. بعض الضعف والتكلف، وحتى الركاكة. إذ لا يوجد شاعر يجيد في كل ما ينظم ويقول، لأن الشاعر شر، والبشر خطّاء، ذلك أن من طبعه.. أن يصيب وأن يخطئ. ومطلع قصيدة «أم عوف»:

يا أم عوف عجيبات لياليـنا يدنين أهواءنا القصوى ويقصينا

وعنوان القصيدة.. يعود إلى صاحبة كوخ، كان يتوقف عنده الشاعر.. وهو في طريقه إلى مزرعته، فيجد منها التكريم والترحيب.. وهذه القصيدة.. من روائع شعره، وفيها ألم ممض، ولوعة وشكوى.!

وذهب الشاعر إلى الشام مدعواً، للمشاركة.. في الحفل الذي قرر إقامته لمأتم عدنان المالكي، الذي صرع في دمشق، في عام 1956. والجواهري.. في صراعاته وحروبه لا يهدأ، ويتلقى الضربات ، فيضيق بالحياة ومن حوله.. في العراق، فيفر إلى الدول الأوربية الاشتراكية حيناً، وإلى مصر حينا آخر، وإلى سورية ولبنان، لينفس من الكرب الذي يحيط به ويعيشه، وليبتعد بعض الوقت.. عن حياة الاقتتال، وإن كانت لا تهدأ له حال، حتى وهو بعيد.. عن بغداد ، فينسج الملاحم

والبراكين ، ضد أعدائه وشانئيه وحاسديه، لأنه يحس بالظلم والغبن، ذلك.. أنه لم يقدّر كشاعر كبير، وصوت مجلجل لوطنه.. في المؤتمرات والمحافل التي يدعى إليها ويحضرها.!

شد الشاعر الرحال إلى عاصمة الأمويين.. للتنفيس، وليهتبل الفرصة المتاحة، فيلقى شعره، وينال من خصومه.. من الحاكمين في العراق، بصواعقه التي تأتي ليس عرضاً.. من خلال نسيج شعره، وإنما هو يمعن في التعرّيض بمن يكرهونه ويكرههم. ويحاربونه ويحاربهم.! يقول المؤلف سليم التكريتي: «وكان في ذلك الوقت يحس بأنه قد غدا منبوذاً من أطراف الحركة الوطنية، وغير محترم من لدن الطبقة الحاكمة.. التي عقدت لسانه بالمزرعة الموهومة، ولذلك وجد في حضوره حفل - المالكي - متنفساً له، لكي يعيد ما أضاعه من مكانة لدى الشعب». قال الجواهري:

خلّفت غاشية الخنوع ورائي ... وأتيت أقبس جمرة الشهداء
ودرجت في درب على عنت السُّرى ... ألق بنور خطاهم وضّاء
دوى على المستعمرين صواعقا ... وعي الشعوب ويقظة البلهاء
وتكشفوا عريا على أضوائها ... مثل اللصوص بليلة قمراء

إلى أن يقول:

ستدوس أقدام الشعوب كخرقة ... مهروءة من كان سوط بلاء

سيرى عتاد الأجنبي بعينه مرمى عقيدة أمة عزلاء
ستعود تصهر طلقة وقذيفة ترمي الطغاة سلاسل السجناء

وخلال لجوء الشاعر إلى الشام.. لم يمسك لسانه، وهو كالطائر الذي ألف التغريد وهو محلّق.. أو حتى وهو حبيس في قفص. والشعر متنفس الشاعر.. وهاجس نفسه عما يختلج في صدره. وقد نظم في دمشق قصيدة بمناسبة أسبوع الجزائر.. الذي أقيم في سورية، في عام 1956، وهي قصيدة من روائع الشعر العربي، منها:

ردي علقم الموت لا تجزعي ولا ترهبي جمرة المصرع
فما سعرت جمرات الكفا ح، لغير خليق بها أروع
دعي شفرات سيوف الطغا ة، تطبّق منك على المقطع
فسارية العَلَم المستقـ ل، بغير يد الموت لم ترفع
فإنك والموت دون الحيا ض، صنوان للشرف الأرفع
جزائر، دارت بمستعمر رحى، من يضّرس بها يهلع
وأذّن فجر الشعوب الهتو ف، ينشق في يقظة الهُجّع
مشت بك باريس أم الحقو ق، وحشا يدبّ على أربع
تمزّق أظفاره أمة بحق الحياة لها تدعي

سقت تلك الصفحات.. ولعلها طالت، وذلك من خلال

قراءة كتاب الدكتور زاهد زهدي، غير أني.. لم أدخل في التفاصيل، التي سأبدأ فيها بدءاً من هذه السطور. وقرأت كتاب سليم التكريتي، واستنتجت منه.. ما قدمت من صفحات، وتركت الكثير. والسؤال التلقائي: لماذا لم يخصص الأستاذ زاهد صفحات.. من كتابه الضخم، يحاور فيها ما كتب سليم، يقبل منه ما يقبل، ويرفض ما يرفض!؟. لأن القارئ، أي قارئ، قرأ ذلك الكتاب، ويقرأ اليوم دراسة زاهد، سيقول: ما رأى اللاحق فيما كتبه السابق!؟ مع أو ضد!. كنت أتطلع إلى وقفة من الأخ زاهد.. يفنّد فيها ما كتبه سليم عن شاعره. لأن سليماً - عايش الجواهري، وعمل معه في الصحافة، عاش ظروف الشاعر وحاله ، وقال كل ذلك في مؤلفه.. بأسلوب لا تنقصه الصراحة. ومن حق الجواهري.. على مؤلف كتاب «الجواهري، أن يتوقف لحوار كتاب سليم، والرد على ما قد يكون فيه من تجاوزات!. أما أن يقول كلمتين، كإشارة عابرة، ثم لا يأبه لما حمله كتاب التكريتي،، من دعاوى واتهامات، فإن هذا يعني عند القارئ.. أي قارئ، أن ما قاله سليم صحيح، ما لم يأت ما ينقض ذلك بأدلة وحجج ومنطق حواري بيّن. وهذا ما لم يفعله الأستاذ زاهد، رغم ضخامة كتابه.. الذي ألفه عن الشاعر الكبير.!

«6»

ونلج إلى صفحات كتاب - الجواهري -، وتوقفني شبه

جملة، في ص (39»، في السطر الخامس.. قول المؤلف: «وكان من سخريات القدر» إلخ: وهذا تعبير لا يليق بمسلم أن يلقي به، لأنا نؤمن باقتناع.. لا يزعزعه شك، أن القدر خيره وشره من الله تعالى.!. وفي ص (40).. يقول الكاتب: «فقد شاءت ظروف ومصادفات» إلخ. والمشيئة لا تكون إلا لله وحده. ونحن المسلمين نردد: «ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن». ومن المؤسف أن الشاعر نفسه.. يستعمل شبه جملة - سخرية القدر -، كما في قوله، في ص «44»، البيت (3)، من قصيدته في - رثاء أبي التِّمن.

هي للذين لو امتحنت بلاءهم لعجبت من سخريَّة الأقدار

الفصل الأول

ورأيت.. أن المؤلف شغل من كتابه ثلاثين (30) صفحة، عما يقول الشعر عن - مولد الجواهري -، من ص «59 - 88». وهذا إسراف وبذار، وكان ينبغي أن يجمل في ثلاث صفحات، والنتيجة واحدة، لكن المؤلف.. أسرف على نفسه، وأسرف على قارئه بهذا التطويل الممل المجحف، وقد ألمت آنفاً.. إلى معطيات البلاغة وجمالها، وهي تنحو إلى الإيجاز - غير المخل -. وأوشك أن أقول.. إن مثل هذه الإطالة ضرب من العبث، يمارسه بعض الكتاب والمؤلفين،

بدراية، وربما بغير دراية، وليس هذا المسلك منهجا سويا ولا مقبولاً.!

في ص «108» قصيدة .. حائية القافية، منها هذا البيت:

ولقد يحس الشاعرون بأنهم　　　عبء على أوطانهم مطروح

وفي الهامش، يشير المؤلف.. إلى أن جمع كلمة شاعر على «شاعرين»، استعمال نادر، ولكنه صحيح ، ثم يقول: «وربما كان الوزن قد اقتضاه ذلك»، ونحن نطالب الكاتب بتوثيق ما يثبت صحة هذا الجمع، لاسيما وأنه يخاطب مثقفين، يريدون توكيد ما يجزم بصحته، وإلا ألزموا القائل والمؤيد الحجة. ولم أر في مطالعاتي.. جمعا لكلمة شاعر على ما ذهب إليه الشاعر، ولا في بعض قواميس العربية.. التي تحت يدي.!

الفصل الثاني

وفي ص «109» يعلق الكاتب على أبيات للشاعر، من قصيدته: «دجلة الخير»، بقوله: «حتى إنه ليعتبر أن مزامير نبي الله داود كانت ذات أثر خاص ومتميز في إيصال رسالته إلى الناس بما تمتعت به قوة الفن». أما الشاعر الجواهري.. فيقول:

يا دجلة الخير كان الشعر مذ رسمت كف الطبيعة لوحا «سفر تكوين»
مزمار «داود» أقوى من نبوّته فحوىً وأبلغ منها في المضامين

أقول للكاتب وللشاعر.. إن الفن الذي يعنيانه، بعيد كل البعد عن الرسل والرسائل السماوية التي أنزلت إليهم. وأرد على الشاعر.. بأن الطبيعة لا ترسم شيئا، ولا تصنع شيئاً، ذلك أن كل شئ من صنع الله. وقول الشاعر: «مزمار داود أقوى من نبوته»، فذلك سفسطة وعبث وتخريف، وهل يقول إنسان يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر. هل يقول.. إن مزامير داود عليه السلام أقوى محتوى، وأبلغ من الرسالة في مضامينها ؟. إنه هراء وانحراف عن جادة الإسلام.!

وفي ص «110».. يقول الكاتب وذلك حول شعراء العصر الجاهلي: «فإني أكاد أقترب من القول إن شعراء الجاهلية - رغم إنكار وجودهم من قبل الدكتور طه حسين - لم يكونوا سلكوا هذا المنحى» إلخ: والذي أريد التعقيب به في هذا الموضوع.. أن الأستاذ العميد، لم ينكر وجود أولئك الشعراء، وإنما أنكر بعض شعرهم، وقال إنه - منحول -، وساق على ذلك أدلة.. فيما رآه وحمله على الشك.!

في ص «120»، والمؤلف يجول مع الشعراء، فكتابه لم يوقفه على الجواهري وحده، ليحقق هدف الكاتب من التوسع..

من خلال استطراداته وشواهده وإلماماته، يقول المؤلف: «وإذن فقد كان مولد الشريف الرضي إيذانا بمرحلة هامة من مراحل تطور الشعر الذي كاد أن يختفي في العالم كما يقول». وينقل قول الشريف الرضي: «وكونه الفارس الذي لا يأتي بعده شاعر آخر إلا ليكون رديفه على صهوة جواد الشعر الذي يمسك هو بعنانه».

نحن نؤكد أن الشريف الرضي شاعر فحل، وفي عداد الشعراء الكبار وشعره قوي متميز، لكن لا يقول ناقد واع ودارس مجيد، إن الشعر لولا مولد الشريف الرضي لانتهى!. ولا يُسلم أحد من العقلاء وهم كثر أن الشاعر العربي هو - الأوحد -، الذي لا يأتي بعده شاعر آخر يتقدم عليه.! هذا كلام لا يعوّل عليه، لاسيما وأن قائله هو الشريف الرضي نفسه.! وكنت أنتظر من الدكتور زاهد أن يقول كلمته في هذا الإدعاء المرفوض - جملة وتفصيلا ، ولكنه لم يعلق بشيء، وكأنه مقتنع بما نقل إلينا، ونحن لسنا معه.. إذا كان في دائرة التسليم.!

وينقل إلينا المؤلف قول الرضي.. الذي يدعي فيه الصدارة، ولن يأتي من يجاريه!

وإن قوافي الشعر ما لم أكن لها مسفسفة فيها عتيق ومقرف

أنا الفارس الوثاب في صهواتها وكل مجيد جاء بعدي مردف

في ص « 123 » ، يتحدث المؤلف عن شعر الجواهري، وأن الشاعر: «مدّ إلينا بالشعر سبيلا للهداية والرشاد ». وهذا كلام باطل، فما كان الشعر يوما ما سبيلا للهداية والرشاد. ولكن جيده الملتزم حكمة، والحديث النبوي يقول: «لئن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً خير من أن يمتلئ شعراً». ويأتي الشاعر الجواهري، والأستاذ زاهد ، ينحو نحو أستاذه ومثله الأعلى.. فيما قدم. يقول عن القريض، إنه أجل ما خلق الله لخلقه:

وأجل ما خلق الإله لخلقه وحساب فضل الله غير مطاق

في ص « 124 »، يقول المؤلف: «وهكذا نرى أن الشعر لدى الشاعر الراحل هو - كالغيث - فيما يحدثه من أثر طيب في الطبيعة، وكالشمس في إشراقتها ». والجواهري يقول في ص « 125 ».

قد قرأت الشعر في «القرآن» من عهد التصابي

وأتساءل ما الشعر الذي قرأه الشاعر في القرآن أكثر من قول الحق: ﴿**والشعراء يتّبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون**﴾؟ وعقب هذا القول من الشاعر.. في الصفحة نفسها، اسمعوه كشاهد على الشعر والشعراء يقول:

قد سئمت الشعر ما فيه سوى معنى كِذابِ

كل يوم شاعر كالـ ـيوم ينعي في خراب
وقواف لا يلجن الـ ـسمع إلا باغتصاب
لهجة الصدق بها مثـ ـل بياض في غراب

ولست مع المؤلف . في توجهه إلى معنى بعيد، لا يقصده الشاعر ولا يريده، فموطنه ونهره «دجلة».. الذي طالما تغنى به في حب عارم، وشوقه إليه إذا بعد عنه، لا يمكن أن يكون خطابه له ومناجاته.. مداهنة من الشاعر، فالنهر ينبوع حياة، ينفع ولا يضر، نافع لأن منه كل شئ حي.. كما جاء في الكتاب العزيز. ولست أدري، كيف جنح خيال الكاتب وتصوره لمعنىً بعيد ، وهو تشكيك ، وهل الكاتب يشكك في وفاء وحب الشاعر لوطنه ومنه - دجلة -، الذي يردد اسمه على لسانه : يا دجلة الخير ! لو قال هذا الكلام المشكك فيه غير زاهد زهدي، لربما قبل ذلك التفسير من إنسان جاحد شانئ. والبيت الذي أنا بصدده قول الشاعر:

دمشق لم يأت بي عيش أضيق به فضرع «دجلة» لو مسّحت درّار

وتعليق المؤلف على هذا البيت بأن قال: يبدو لي أن عبارة «لو مسّحت» لا تتعلق كثيرا بعملية مسح الضرع.. استدرارا للحليب كما تفعل الحالبة مع الشاة ، قدر ما هي تعني من طرف لا يخفى على القارئ عملية التملّق والنفاق، وهو ما يطلق عليه العراقيون تعبير «مسح الجوخ». وأسأل:

أي جوخ يعني الكاتب؟ وهل الشاعر الكبير هو الماسح !. إن كلام الشاعر صريح، وكارثة كبرى.. إذا كان زاهد يشكك في صدق شاعره الأثير عنده.! والشاعر في خطابه لعاصمة الأمويين، يعلن في صراحة أنه لم يخرجه من بلاده ضيق عيش، ذلك أن ما يجده في نهره المحبب إليه.. يكفيه عيشا وغذاء، بمجرد أن يقف على شاطئه ويمدّ يده إلى صفحته، كما تصنع الحالبة مع الشاة لتدر اللبن. ثقة عارمة وحب عميق في نفس الشاعر وفؤاده.! لقد وقفت حائرا أمام تشكيك الكاتب وتفسيره! ولعلي شككت في هذا التعليق، وأنه جاء خطأ وسبق قلم.. ربما.!

ويقول الشاعر.. من أبيات بعنوان قدر القوافي:

هذا زمان كفيل أن يُكيل لكم صاعاً بصاع وإمداداً بإمداد

ويأخذ المؤلف.. في شرح كلمة - مدّ، وهو مكيال مقداره كذا، ويذهب إلى صحاح الجوهري.. يستمد منها الشرح والتفسير. وهذا الأمر لا يحتاج إلى إيضاح وبيان، لأنه معروف، وأعيذ الكاتب أن يستهين بوعي وإدراك المثقف، فيشرح له أيسر الأمور، لكن لا بأس من تفسير بعض الكلمات الشائعة في اللهجة العراقية الدارجة، وهو ما لم يعن به الكاتب.! وحتى كلمة «يقيني»، التي جاءت في قول الشاعر، ص «131»:

وحرمت النعيم مدّ جناحيه «يقيني» ومن معي كالشراع

فسياق البيت.. صدره وعجزه يبين ما نهض بشرحه الكاتب، في غير ما حاجة.!

في ص «134»، لم يعجبني قول الشاعر في مقطوعتين متتاليتين، في الأولى:

من أين سارت وجدت قائلا أهلا وسهلاً! مرحباً مرحبا!

وفي الثانية قوله:

قولوا لمن هذا القريض يسرني ما قلتم إن راقكم إنشاده

شعر يجيئ به الجمال مكررا منه الجميل متى يكون نفاده

وجميل بل رائع قول الشاعر، ولابد من الإشارة إلى ما يطرب من هذا القريض؛ حتى لا أتهم أنني أتوقف عند الأبيات الضعيفة وحدها. ومن البدهي.. أن الكثير من الشعر الذي لم أذكره مما يعجبني ويطربني مثل أبيات من قصيدة: «قتل العواطف»، وضع لها الكاتب عنوانا – أعلى من الشعر..؟! –. يقول الشاعر المجيد في ص (138):

شكت إليّ القوافي فرط ما انتُبذت من وكنت أراها خير مصحوب

ومنها هذه الأبيات الحسان:

وما اشتكائي إلى الأشعار عن مضض إلا شكية محروب لمحروب

* * *

إن الأديب وإن الشعر قدرهما مطرّحٌ بين منبوذ ومسبوب
لم يبق من يستثير الشعر نخوته ومن يحركه لطف التراكيب
أعلى من الشعر عند القوم منزلة نفخُ البطون وتطريز الجلابيب

ورائعات الأبيات الخمسة، من قصيدته: «حالنا أو في سبيل الحكم»، واختار لها المؤلف عنوانا: - ستضحك قراء التواريخ -، ص - 140 - من شطر أحد الأبيات:

ولا تحسبن الشعر سهلا مهبُه بهذي المساوي بين باد وحاضر
فإن عظيما أن يخلّد شاعرٌ مخازيَ جيل بالقوافي السوائر
سنضحك قرّاءُ التواريخ بعدنا ونبدو لهم فيهن إحدى النوادر
فإن ترني أذكى القوافي بنفثةٍ أراني على كتمانها غيرَ صابرِ
فإني برغم العاصفات التي ترى أقاسي ركوداً لا يليق بشاعر

طين خبيث!

في الأبيات الستة، التي اختارها المؤلف.. من قصيدة: «قال وقلت» في ص- 142، واتخذ لها الكاتب عنواناً: «وهكذا الشعراء..!». تبدأ الأبيات بقول الشاعر:

قال: لله أنتم الشعراء عدد الرمل عندكم أهواء

ثم يقول:

أرأيت الكوّاز أنفس ما يملك   ذخراً طين خبيث وماء

والبيت الأخير:

وكذا كل خالق يترضى   ما تبنى، وهكذا الشعراء

لقد ضقت ذرعا بكلمة - خبيث -، نسبة إلى الطين، والإنسان مخلوق من طين، وهذا سوء تعبير من الشاعر، وسوء وصف، وسوء أدب، ومعنى الكوّاز واضح ، وهو صانع الكوز والجرار إلخ. وكذلك قول الشاعر: «وكذا كل خالق». ونقول ونردد ما جاء في الكتاب العزيز: ﴿**فتبارك الله أحسن الخالقين**﴾.

ونقرأ أبياتا سطحية للشاعر، وكم وددت أن يثبتها المؤلف ويقدمها للقارئ، فذلك أحرى بالشاعر والكاتب معاً، وتبقى في ديوان الشاعر مع جيد شعره ومتوسطه.

الفصل الثالث

في ص «155»، يقول الشاعر:

طال السكوت لأمر   خيرا عسى أن يكونا

وهذا نظم لا يعوّل عليه، ولا يؤبه له - وقوله في ص «156»:

مرحبا بالمتوّجِ الفطريف   حاملاً للعراق بشرى جنيف

وقول الشاعر، في ص « 157 »:

يوم الشهيد تحية وسلام بك والنضال تؤرخ الأعوام

وقول الشاعر، في ص « 159 »:

جلبت لي الهم والهم عنا آه ما أروحني لولا (المنى)

آه ما أخيبني من غارس شجر (الآمال) لكنْ ما جنى

أمل أخشى عليه زمني فلو اسطعت أطلت الزمنا

نظم لا يعتدّ به. وكنت أوثر.. وقد ساقها المؤلف، أن يشير إلى مستواها الفني، لأنه رجل يقدم دراسة عن شاعر كبير، ومن واجبه.. أن يتوقف عند الشعر الجيد فيشيد به، وهو قد فعل، وتلك - أمانة - الدارس، وعند الشعر المهزوز، أو النظم الذي لا يتفق وشاعرية الجواهري الفذة، والمؤلف يجعله في قمة الشعراء.. في العصر الحديث، وقد أشرت آنفاً، إلى أن الجواهري.. ليس أفضل شعراء العصر الحديث - على الاطلاق -.!

ويلمح الكاتب في ص « 170 »، إلى ما يعتري الشاعر من حالات - من تقلب المزاج في اليوم الواحد، بل في الجلسة الواحدة - كما يثبت الكاتب. وفي ص (171) خلال حديثه عن « مطالع » الشاعر، أن بعضها لا يتفق ومكانة الشاعر وأدائه الشعري المتميز، وما وصل إليه من ارتقاء.. بأدائه الجيد، وجدارته وحرصه.

في ص «171»، نقرأ.. في سبعة أبيات كلمة - دمع - خمس مرات. وفي أبيات خمسة.. في الصفحة نفسها، تكررت كلمة: تجربة، تجارب، جربوا، التجاريب، سبع مرات، في أبيات خمسة؛ والكاتب يعلن.. أنها سبعة أبيات. ورغم أنها شعر جيد؛ إلا أن الإسراف في تكرار تلك الكلمة بصيغها المختلفة، أفسد أو شوّه جمالها، أو قل.. قلل من بهائها ورونقها.! ويتكرر في شعر الشاعر لفظتا- سخرية القدر -، وذلك في قوله .. في ص «179»:

سخرّية الناس لا سخرّية «القدر»   هذا التفاوت في الاقذاع والبطر

وقد نبهت آنفا إلى هذا التجاوز المرفوض إسلاميا. وكان خليقا بالمؤلف.. ألا يقدم هذا النمط من الشعر إلينا.!

«7»

وكما ملأ وشغل (30) صفحة عن مولد الشاعر، واختلاف التواريخ، وقد وصفته بالإسراف والتجاوز الممل. يعود الكاتب إلى النمط عينه، فيملأ (33) صفحة.. الفصل الثالث من الكتاب، فيما يشبه البدهيات الطبعية، عن - التصربع - وهو إسهاب ممل، وكان يمكن إيجازه في أقل مساحة. وأتساءل مجدداً: هل الهدف من هذه الإطالة.. غير المجدية تكبير حجم الكتاب وزيادة صفحاته، أم الإفادة من درس.. ليس هنا مجاله ومكانه، وقد يكون في قاعات الدرس

في المدارس العليا والكليات أفيد.! والكاتب الحصيف.. هو الذي يعطي كل حالة متطلباتها والطرح فيها بما يليق، واحترام القارئ.. الذي يقدم إليه الزاد، ليستمتع به، ويفيد منه، ويراعي في ذلك قيمة الزمن، وظروف القارئ الجاد. ولكن حين يؤلف للمدارس، يقدم إليها ما تحتاج إليه، وما يفيدها ويثقف الطلبة فيها.!

الفصل الرابع

إن الكاتب يلتمس العذر للجواهري، في أمر لا عذر فيه «إسلاميا» .. لأنه شرك. واستمعوا إلى الشاعر يقول في ص «205»:

إنـــي ألـــذُ بمـــرّ الجـنـــــى ... بـ «علقمة الفحل» أزجي اليمين

ومبرر الكاتب أنه: «تقدير عال.. من الجواهري لهؤلاء الشعراء الأفذاذ»، ونقول للشاعر وللكاتب: هذا الكلام مرفوض، ولا رخصة فيما يعارض العقيدة الإسلامية السمحة. والتماس الأعذار الواهية.. ضرب من العبث السقيم.!

وفي ص «209» يقدم إلينا المؤلف بيتاً من معلقة زهير بن أبي سلمى، هو قوله:

ومن لم يصانع في أمور كثيرة ... يضرّس بأنياب ويوطا بمنسم

ويشرح الكاتب معنى المصانعة بأنها: «المداراة والمنفعة المتبادلة كأن تصنع عملا لأحد بهدف أن يُكافئك بمثله». وما أراه.. أن المصانعة هي - المداراة - فنعم. أما ما ذهب إليه الكاتب من تفسير، كالمنفعة وما نسميه «المصلحة»، فبعيد ودون همة الشاعر الذي نعرفه، وشهد له الكبار، وفي مقدمتهم - الفاروق - عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي كان يعجب بشعره، وكان يقول في زهير: «إنه لا يمدح الرجل إلا بما فيه، وأنه لا يتتبع حوشي الكلام». والذي قاله المؤلف، فإنه من حوشي الكلام والزاد الرخيص، الذي دون تطلعات ذلك الشاعر المتميز الجاد. وأوشك أن أقول إن الأستاذ زاهد زهدي.. لم يدرس ابن أبي سلمى كما ينبغي؛ وإلا لما قال ما قال من تعبير بعيد عن همة ورؤى الشاعر الجاهلي.. الذي يفرض عليك احترامه والإعجاب بشعره.!

في ص «212»، يسوق المؤلف أبياتاً، «يقول إنه عارض بها قصيدة الجواهري - يا دجلة الخير -، وعند إلقائها بحضور أبي الفرات، لامه في إغفال ذكر أبي الطيّب المتنبي»، حيث احتفى زاهد.. بالبحتري وبشار، مما دفع الأستاذ زهدي إلى ذكر المتنبي في بيت يقول فيه:

«البحتري» و «بشار» وثالثهم　　«أبو محسَّد» راحوا وهو يحييه

وهذا البيت.. عبارة عن نظم وهو كذلك هجاء، وهو

ضعيف البناء والمعاني، والتكلف فيه ظاهر، وعبارة عن - تجميع ألفاظ - بلا معنى. ويعلق السيد زاهد.. بعد الإضافة.. التي أتت على ذكر المتنبي، أنه ذكر المتنبي «وفاء لأبي فرات» الجواهري. وهذا القول يدين الكاتب، لأنه يعني.. أن المتنبي لا يشغله، أو لا يستحق منه الذكر والاحتفاء والإشادة. وهذه سقطة تحسب على صاحب هذا القول.!

نعود إلى التكرار، وهو من قبيل الحشو الزائد. فنجد في ذيل ص «227» إلى ص «232» الإشارة إلى المتنبي في شعر الجواهري، ثم نقرأ قول المؤلف في ص «228» «أما الأوصاف الخاصة التي خلعها الجواهري على ذلك الشاعر العظيم، فإن لها موقعاً آخر سيكون حيث نتناول القصائد الكاملة التي خص بها الجواهري بعض شعراء العهد العباسي ومنهم ، المتنبي في شعر الجواهري». وأقول : لماذا هذا التكرار؟ ولماذا هذه الإطالة المملة ؟ ولماذا لا يكون الحديث عن كل شاعر ورمز ذي قيمة.. في باب واحد وصفحات متتالية، بدل هذه - المطوحة -، و «اللت والعجن»، كما نقول في أمثالنا السائرة!؟ لقد مررت بأربعين صفحة، من : «191-231» في ذكر الشعراء الأعلام.. في شعر الجواهري، ثم بدءاً من ص «233»، نجد الشعراء.. الذين خصهم الجواهري بقصائد كاملة، منهم المتنبي والمعرّي والبحتري ، وقد ذكروا في المقتطفات.. حسبما جاء ذكرهم في قصائد الجواهري.

فلماذا الإطالة والتكرار الممل؟ وقد أخذت المساحة الأخرى «34» صفحة، وقد أضيف إليهم شعراء آخرون، منهم بشارة الخوري، وقد ذكر في المقتطفات!؟ أكبر الظن.. أن هذا الكتاب لو سلم من التكرار، لكانت صفحاته لا تتجاوز الأربعمائة صفحة، بدل «586» أعني لو غربل كما ينبغي، واستبعد منه الحشو.!

في ص «234»، يذكر المؤلف أن ثمة ست قصائد.. لشعراء من العراق، منها ثلاث للشاعر الكبير معروف الرصافي، وأتساءل: لماذا ثلاث قصائد تساق عن الرصافي، والدراسة تختص في هذا الكتاب بالجواهري؟ أليس هذا تجميع ورص شعري بلا داع، أهذا هو ما وصفه المؤلف «بمنهج» رسمه!. والذي لم يعجبني في توجه المؤلف.. هو قول السيد زاهد: «وتجدر الإشارة إلى أنه من بين الشعراء الأربعة من مواطنيه - يعني الجواهري - في العراق لا يوجد سوى عربي واحد هو محمد صالح بحر العلوم، إذ إن الزهاوي كردي من قرية - زهاوة، والرصافي منحدر من أب كردي، أما «بي كه س» فشاعر كردي يكتب الشعر باللغة الكردية»، انتهى كلام المؤلف. والسؤال الذي يطرح نفسه: لماذا هذا التصنيف؟. ولماذا هذه النعرة والعصبية؟ ألم يقرأ أو يسمع الأستاذ زاهد قول من لا ينطق عن الهوى.. صلى الله عليه وسلم: «سلمان منا آل البيت». ولم يقل عليه السلام - الفارسي!.. والفاروق عمر

اللهم رضي الله عنه قال: أبو بكر سيدنا أعتق بلالا سيدنا.!، ولم يقل: بلالا الحبشي!. ويقول عليه السلام: «كلكم لآدم وآدم من تراب»، هذا الذي يقول عنه شاعره الأثير عنده إلى النخاع: «طين خبيث»! ترى الجواهري نفسه.. من أي نفيس المعادن صيغ وتكوّن واصطفاه خالقه، حتى يزدري الطين الذي هو منه؟.. أي منطق يا دكتور زهدي؟ بل أي جاهلية هذه التي ترددها أنت وصاحبك الشاعر الفحل؟ ثم لماذا يعاب على الأمريكان في التفرقة العنصرية؟. عيب أن نسمع هذا ونقرأه.. ونحن في أوج الحضارة وازدهارها، ومن رجل يحمل أكبر الشهادات.. وأي عيب!؟

من القصائد التي قالها الجواهري في - البحتري -، ص «238»:

مدّت بنو العباس كف مطاول نمشي الزمان لهم بكف «مغوله»

ومنها قوله:

فتعلمنْ أن الزمان إذا انتحى شهب السما كانت مداس خيوله

إن شطر هذا البيت رديء.. لا ذوق فيه ولا أدب خطاب!. إن تلك الشهب التي أهانها الشاعر الجواهري، أو الصفانحي، سماها الحق مصابيح، وذكر الكتاب العزيز أن الله زيّن بها السماء الدنيا، وأنها رجوم للشياطين، ولعل منهم

بعض الشعراء.. الذين هم في كل واد يهيمون.! أي أدب هذا وأي خلق يسيغ هذا العبث والبهتان والقول الفائل.!

وفي ص «239»، نقرأ بيتا للمتنبي هكذا:

وإذا كانت النفوس عظاما تعبت في مرادها الأجسام

والصحيح: «وإذا كانت النفوس كبارا». وكلمة كبار.. أروع وأبلغ لفظا ومعنى.!

وأعجبني الشعر الذي ساقه المؤلف، والذي قاله الجواهري.. في شاعر الأمة العربية عبر تاريخها أبي الطيّب المتنبي، مثل قوله: «أيها المارد العظيم» وقوله: «يا صليبا عوداً، سابح الذهن، شريد العينين بين الغمائم»، وقوله:

تحدّ الموت واختزل الزمانا فتىً لوّى من الزمن العنانا

ولم يعجبني صدر البيت التالي؛ لأنه ركيك، وكلمة - خبط - قلقة، وعجزه جيد.

فتىً خبط الدنا والناس طرا وآلى أن يكونهما فكانا

ورائع قول الجواهري في صاحبه المتنبي:

ولما استيأسوا من مستميت فلا أرضاً أراح ولا ضَعانا
أثاروا خلف رحلك عاديات صباحاً تستفز الديدبانا
فكنت الحتف يدركهم عبيدا وأربابا إذا استوفى وحانا

مع أنه لم تعجبني كلمة - استوفى -، لأنها نافرة.. وليست في موضعها، وليست شاعرية. والشعر الذي قيل في شيخ المعرة من القصائد الجياد المتميزة. وأنا مع المؤلف في عدم رضاه عن مطلع قصيدة الشاعر.. في تأبين الشاعر الكبير أحمد شوقي. ولعل لتسكين القافية نصيباً في ثقل المطلع. وبقية القصيدة شعر حي نابض، يليق بأمير الشعراء. وكذلك الحال.. في الشعر الذي قاله الجواهري في شيخ المعرة لائق ومنصف له وجميل.

وشعر الجواهري في شاعر النيل حافظ إبراهيم أكثره فاتر، وهذا النمط من القريض.. ما يتكلفه الشاعر، يقوله ونفسه ليست مهيأة لأن تجيد وتبدع، فينسج تراكيب فيها نفور وثقل، فيصبح الشعر - نظماً -، غير محلق، وغير رائع. وانظروا إلى مطلع قصيدة الشاعر في رثاء حافظ إبراهيم، ترونه فاتراً، والمطالع عناوين القصائد الجياد وغير الجياد. ويمكن أن يكون تعبيرا أبلغ.. لو كتبه ذو بيان.!

نعوا إلى الشعر حرا كان يرعاه   ومن يشقُّ على الأحرار منعاه

وحتى البيت التالي وما بعده، شعر غير حي، لأنه لا يهز قارئه، ولا يشجيه. واقرأوا قوله:

واستدرج الكوكب الوضاء عن أفق   عالي السنا يُحسر الأبصار مرقاه

حوى التراب لسان كله مُلح ما كل محترف للشعر يُعطاه
للأريحية منشاه ومصدره وللشجاعة والإيناس حداه
تخير الكلم العالي فسلطه على القوافي فحلاها وحلاه
شعر تحس كأن النفس تعشقه أو أنها اجتذبت بالسحر جراه
ربع القريض بفذ كان يملأه من الجميلين مبناه ومعناه

أجل.. لو أن ناثراً بارعاً كتب، لكتب أجمل من هذا النظم.. المتكلف الركيك، وحينما مررت بقول الشاعر: «للأريحية منشأه ومصدره»، تذكرت أيام كنت في الجمارك، وتمر بي معاملات منها: شهادة المنشأ، ومصدر السلعة! إن هذا النظم.. لا يليق بالقائل ولا بمن قيل فيه! وما كان ينبغي أن يقدم في كتاب الأخ زهدي، ومع ذلك.. فهو يقدمه ويقول في ص «250»: «ويشير الجواهري بإعجاب شديد إلى شعر حافظ». والإعجاب في تقديري يولد إعجاباً، وهذا ما لم نلقه في كلام الجواهري. ومن الغريب والمؤسف.. أن يقول المؤلف، وكأنه يغالط نفسه أو يسرح بالقارئ.. ليزيّن له نظماً.. لم يرق إلى مستوى الشعر النابض؛ ولا يليق أن ينسب إلى الجواهري، لأنه دون ما ينبغي أن يكون وأن يقدم!. يقول المؤلف: «ويختتم الجواهري مرثيته لحافظ بأبيات رائعة معبرة، تجعلنا – نعتقد – أن القصيدة بكاملها كانت أعلى جودة في مراتب الشعر». وكلمة – نعتقد –، التي اتكأ عليها المؤلف.. ضرب

من المغالطة، فإذا كان واثقاً مما يقول، كان ينبغي أن يجزم ويؤكد.. ما يعتقد، وإلا فلا قيمة لهذا الاعتقاد المهزوز، والشعر أو النظم أمامنا لكل ذي بصيرة، ليسلط عليه مواصفات الجودة والرداءة.! والأبيات التي قال عنها الكاتب رائعة هي:

ما انفك ذكر الردى يجري على فمه ... وما أمرّ الردى، بل ما أحيلاه
ومن تُبرّحْ تكاليف الحياة به ... ويلمس الروح في موت، تمنّاه
إني تعشقت من قبل المصاب به ... بيتاً له جاء قبل الموت ينعاه

نعم هذه الأبيات الثلاثة الخاتمة.. أفضل من سابقاتها، ولكنها لا ترقى إلى الروعة.. التي عناها المؤلف.!

وقصيدة الشاعر الجواهري في «إلياس أبو شبكة»، ضرب من الشعر المتكلف، فالعاطفة فيه ليست جياشة، وهو نائم - إن صح هذا التعبير، لأنه لا يهز قارئه ولا يثيره، وليس هذا نفس الشاعر.. الذي نعرفه. والمؤلف يؤكد ذلك في تعقيبه! يقول الجواهري:

أخي إلياس ما أقسى الليالي ... تنيخ بكلكل وتقول مالي
تسمّعُ إذ تصامم للنجاوى ... وتهمس إذ تخارس للنّمال
وتفرشنا أماني من حرير ... وفي طياتها سم الصّلال
وتدنينا وتبعدنا وتلهو ... بنا لهو العواصف بالرمال

ونلمسُها وتلمسنا عَياناً وتمرق مثل طيف من خيال

كنت أود من الأخ زهدي.. أن يمدنا بشيء من قصيدة الرصافي، التي بعث بها إلى الجواهري، ردا على قصيدته.. «أجب أيها القلب»، ص «254»؛ وذلك ليكتمل العقد النظيم.. في هذه الدراسة.!

الفصل الخامس

وأدلل على التكرار المتجدد عند المؤلف، فهو في «274»، ساق بيتين من قصيدة للجواهري، هما:

لقد خبروني أن في «الشرق» وحدة «كنائسه تدعو فتبكي» الجوامع

هبوا أن هذا «الشرق» كان وديعة فلابد يوما أن ترد الودائع

وفي ص «285» ينقل الكاتب بيتين من القصيدة نفسها، أحدهما الثاني هنا، والبيتان التاليان هما:

وقد خبروني أن في «الهند» جذوة تُهاب إذا ما يمنع الشر مانع

هبوا أن هذا «الشرق» كان وديعة فلابد يوماً أن ترد الودائع

وأنا لي تحفظ على قول الشاعر في بكاء الجوامع، لأنها بيوت ﴿**أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه**﴾، كما جاء في الكتاب العزيز. وليس ثمة وحدة دينية.. بين المسلمين

والمسيحيين - كما قال المؤلف -. ذلك أن المسيحيين مشركون، يقولون «بالتثليث»، ولا يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم رسولا للناس كافة . فالذين يكفرون بمحمد، لا تجمعنا بهم وحدة دينية، ونقول كما قال الكتاب العزيز: ﴿لكم دينكم ولي دين﴾. وكنت أود أن يبعد المؤلف عن الخلط.. لاسيما فيما يمس العقائد، إذ لا يفتي في ذلك إلا أهل الذكر المختصون.!

لقد مررت في قراءتي لكتاب الأخ زهدي.. بالكثير من جياد قصائد الشاعر الكبير.. الجواهري، وأعجبت بها. وأنا قد قرأت شيئاً من شعر الشاعر في ديوانه، ذي المجلدات الثلاثة الكبيرة، فأطربني وهزني جيده، وإن وقوفي على أبيات ضعاف.. مما جمعه الأستاذ زهدي، هي إشارات، لأن المؤلف.. تجاوز عنها، ولم يتوقف عندها، ولأن الشاعر أثير عنده، فالكاتب .. - ربما - ترك للقارئ، أن يكتشف بنفسه الشعر القوي والمتوسط والضعيف، غير أني أرى.. أن أمانة الدارس، أن يدل على ذلك، بالقدر الذي يشيد بروائع الشاعر، وأعترض كذلك.. على بعض تسميته «روائع» لشيء من هذه الأشعار.. لا ترقى إلى الروعة، وقد أشرت، وأنا عابر، وكأن بين عيني تلك المقولة الباقية: «ومن الحب ما قتل».!

وأتوقف عند أبيات .. في ص «287»: من قصيدة الشاعر التي نظمها في عام «1957»، - تضامناً مع شعب سورية -، يقول الشاعر:

بكرت - جُلق - ترمى كسفاً ... من أواذيها وتزجي دُفعا
الشباب الحي ما أعظمه ... دافعاً شيب الحمى مندفعا
أمة سوف تُري خالقها ... أنها قد خلقت كي تبدعا
تصنع المعجز، شتى أمرها ... كيف لوحم لها أن تُجمعا

إن المناسبة التي أنشئت فيها القصيدة، حالة ثورة، وهو اختطاف بعض مجاهدي الجزائر، ابن بلة ورفاقه، وكان ينبغي أن يكون الشعر الذي يقال في هذا الموقف براكين وحمماً.! وأوشك أن أذهب بعيداً، إلى أن الشاعر الكبير، لم يعن بشعره.. في الأمة العربية وإحنها إلا في مناطق محدودة ضيّقة، لا تتجاوز أجزاء من «الشرق العربي»، أما بقية الأمة العربية والإسلامية، فإذا تحدث عنها الشاعر، فليس في قوله عمق، وإنما هو يتكلف ما يقول، كأنه مكره على ذلك، وقد لمست.. ما حملني على الجهر بهذا الرأي ، إلا إذا كان المؤلف الأخ زهدي.. لم يغُص إلى أعماق شعر الشاعر، الذي شارك به في هموم الأمتين الإسلامية والعربية! غير أن النماذج التي أتى بها.. ضعيفة، والتكلف فيها ظاهر، وقد وقفت عليها وقدمتها.. لتكون شاهداً.!

ومن خلال حديث المؤلف في «287»، وهو يتعقب قول حسن العلوي، مؤلف كتاب: «الجواهري ديوان العرب»، الذي يرمز إلى أن - الفصل الشامي -؛ أي الشعر الذي قاله

الشاعر في سورية.. «يظل ناقصاً، إذا لم - يدخل فيه - لبنانيات الجواهري التي أبدع فيها». ورداً على ذلك.. قدم المؤلف شعرا غزلاً جميلاً ورائعاً وممتعاً. وكنت أود - وما تغني الودادة -، لو أن المؤلف، ساق إلينا شعرا من الشعر السياسي.. عن لبنان، بجانب الغزلي، وعلى الأقل أو الأخص، قصيدته الرائعة.. في تأبين - عبدالحميد كرامي -، لأنها شعر قوي، قليل مثله، وهو باق!

في ص «292».. قصيدة فلسطينية ثانية للجواهري؛ أنشأها في دمشق عام 1938، ومناسبتها - اشتداد الثورة الفلسطينية، ضد الانتداب البريطاني.. والهجرة الصهيونية. وشعر هذه مناسبته، إما أن يكون.. في مستوى الحدث، أو لا يكون. أما أن يقول الشاعر، ويلفق أي كلام -، فهو محسوب عليه، ومطلع القصيدة، وهو عندي عنوانها، ذلك أن الشعراء الفحول.. يعنون عناية متميزة بمطالع قصائدهم.! يقول الشاعر:

هبت «الشام» على عادتها تملأ الأرض شباباً حنقا

نادباً بيتاً أباحوا «قدسه» في «فلسطين» وشملا مُزقا

وحتى بقية الأبيات من هذه القصيدة التي ساقها إلينا المؤلف، ليس فيها قوة وحمم، وإنما هي كما يقدم إلينا حكاية أو قصة، وهذا الدليل:

اسمعي يا «جُلق» إن دماً في «فلسطين» مضيماً نطقا
«عربياً» سال من أفئدة «عربيات» تلظت حُرقا
هكذا تعلن صرعى «أمة» إن شعباً من جديد خلقا

ما هي مرامي هذا الشعر - الفاتر -؟ اسمعي يا جلق، وقد سمعت.. أن في فلسطين دماً مهضوماً قد نطق. وأنه عربي من أفئدة عربية، وإعلان صرعى أمة، وأنها وجدت من جديد! ماذا بعد ذلك؟.. أيكفي سرد لا يهز أحداً، لكي يهب، من خلال غليان الدماء الفوارة؛ لتثور ضد المغتصب الباغي، فتملأ الأرض رعباً والفضاء لهباً! أين المحرك.. أيها الشاعر الذي تصغي له الأسماع.. إذا أنشد في هذه المناسبات، ليهب الحماة، كمثل صرخة تلك المرأة: «وامعتصماه!». البون شاسع في الأحوال كلها، حماة وجهاداً وتضحية وفداء، فالأمس غير اليوم، وغد له شأن.. الله أعلم به.!

إن المؤلف.. يعلن في ص «294»، عدم درايته بقصيدة الجواهري: «يافا الجميلة».. إلا عام 1955، يوم حط الشاعر ركابه، ضيفاً على الأستاذ عبدالمقصود خوجه في جدة. وأنا أقول إن ديوان الشاعر طبع في عام 1980، أي مر عليه خمس عشرة سنة، فهل الكاتب لم يطلع عليها، وإنما كما أعلن أنه سمعها من فم الشاعر يوم الاحتفاء به في قصر المضيف العزيز!؟

و«يافا» الشعر، وأنا لا أعرف - يافا - المدينة ، إلا من الإنشاد الأخاذ، وهكذا يكون الشعر ، حين يكون دافقاً من النفس والوجدان، ينساب.. كأنه سلسبيل، رائعاً، كأنه درر، وأبهى من الدرر، لأنه حي نابض.. وضاء، له ألق من أنفاسه ومعانيه، لأنه جمال باهر.. نادر، جذاب:

بـ «يافا» يوم حُط بها الركابُ تمطّر عارض ودجا سحابُ
ولفّ الغادة الحسناء ليل مريب الخطو ليس به شهاب
وقفت موزّع النظرات فيها لطرفي في مغانيها انسياب
وموج البحر يغسل أخمصيها وبالأنواء يغتسل القباب

* * *

أقلتني من الزوراء ريح إلى - يافا - وحلّق بي عُقاب
فيالك - طائراً - مرحاً عليه طيور الجو من حنق غضاب
ركبناه ليبلغنا سحاباً فجاوزه، ليبلغنا السُّحاب

ويتساءل الشاعر، وهو لم تختلط عليه الأمور، غير أن المتغيرات هي التي لاحت لنفسه ووجدانه ، وكأنه لا يدري!. ولماذا كان ما كان؟، ولكنه لا يجد إلا حيرة، تلفه في عقابيلها، ويسمع: هكذا كان، أو هكذا صار. لكن كما قال شاعر تونس الكبير.. أبو القاسم الشابي:

ولابد للـليـل أن يـنـجـلـي ولابـد للـقـيـد أن يـنـكـسـر

ونستمع إلى الشاعر يردد في حيرة:

أحقاً بيننا اختلفت حدود وما اختلف الطريق ولا التراب

ولا افترقت وجوه عن وجوه ولا الضاد الفصيح ولا الكتاب

وقضية فلسطين الطويلة، ملحمة مأساة.. في الأمة الإسلامية والعربية، ونحن نرقب اليوم الذي أتى وعده من السماء، لننتصر على أعدائنا.. ونسترد مقدساتنا وأرضنا إن شاء الله. وعن الإخفاق في انتصار العرب في قضيتهم، وأنا أصاحب الشاعر والكاتب.. في هذه القضية الدامية، وضياع الحق العربي، بناصري الصهيونية، ليعيثوا فسادا في فلسطين، يردد الشاعر الجواهري:

وروح من «صلاح الدين» هبت من الأجداث مقلقة الوساد

إن عصر صلاح الدين وانتصاراته، جاءت من روح الجهاد الإسلامي، من نفوس رخصت في سبيل الله، وبيعت إلى خالقها، والمقابل غال، إنه الجنة للشهيد، والفخر والعزة للمنتصر. وخشيت أن يعيد المؤلف الكرة، حين أشار إلى القصائد التي قالها الشاعر في شعراء، فيجنح الأستاذ زهدي ليعلمنا، كأننا في عصر جاهلي حديث، ونعرات الأنساب والقبيلة الموغلة.. في الحمق والفخر بالجدود. ويوم جاء

الإسلام، قال رسول الهدى صلى الله عليه وسلم: «كلكم لآدم وآدم من تراب». وقال الكتاب العزيز: **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا - إن أكرمكم - عند الله أتقاكم﴾**.! خشيت أن يعيد الكاتب الكرة، لينبئنا أن صلاح الدين - كردي -. نعوذ بالله من نعرات الجاهلية وأوضارها وعنعناتها. والحمد لله الذي أبدلنا بتلك الأعراف خيراً منها وأقوم وأزكى، وهي **﴿خير أمة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله﴾**.! إن الصليبية.. استعانت بالوثنية المغولية ، التي دمرت بغداد عام 1258م - 656هـ، التي اجتاحت الشرق الإسلامي، وهددت الوجود الإسلامي، وقد قدّر الله هزيمتها.. في «عين جالوت» عام 658هـ بجهاد المسلمين الأبطال.

وقصيدة.. «بورسعيد»، ص «308»، فيها تكلف، وهي أشبه بالنثر الركيك، وزنا وتراكيب كلمات، إنها ثقيلة. والكاتب لم يقرظها، ولم يشر إلى عيوبها.! يقول الشاعر:

«كنانة الله» اسلمي إن المنى　　دونك لغو والحياة باطل

«كنانة الله» سيجلو عاصف　　وبمحّي ضر ويُثني واغل

«كنانة الله» اسلمي لأمة　　أنت لها الغاية والوسائل

«كنانة الله» ولله يد　　تلوي يد الطاغوت إذ تصاول

أهذا شعر ينسب إلى شاعر كبير؟ إن إسقاطه أجدر من

الإبقاء عليه، سواء في الديوان، أو أن يثبته مؤلف.. ليقدمه إلى قارئ.. يقرأ شعرا قوياً رائعاً، يعجب به، ثم يصدم بهذا الغثاء الرديء، على أنه شعر .. قاله الجواهري!. وأقول إن البيت الثالث - مثلاً -، لو كتبه تلميذ - نثراً -، لرماه له مدرسه، بأنه تعبير يفتقد إلى الذوق وسلامة الطبع ، وجمال العربية، اللغة الشاعرة ، كما نعتها العقاد.! وأتساءل: ما معطيات: اسلمي لأمة - أنت لها الغاية والوسائل، و- دونك لغو - والحياة باطل -؟. لو أتي بهذا العبث غير الدكتور - زاهد زهدي -، لربما هان الأمر ، ولا أريد أن أتهم المؤلف، بأنه أحياناً.. يقدم «حشواً».. لا قيمة له، ولا خير فيه، فيشككني في قدراته وذوقه واختياراته، ولا أحد يفرض عليه الاتيان بنظم غير ذي قيمة، لأنه يسئ إلى الشاعر! فهل زاهد المحب - الوله - للجواهري - يريد أن يسيء.. إلى من يحب ويؤثر؟ أم أن السرعة، والحرص على توسيع مساحة الكتاب.. وكثرة صفحاته، تدفع إلى هذه الممارسة الرديئة، وغياب الدقة، والجنوح إلى - لم - وجمع ما يصلح وما لا يصلح، وهذا إن صح.. استهجان بقارئ مدرك واع، يميز الغث من السمين، وليس.. كمستسمن ذي ورم؟! ورحم الله المتنبي القائل:

أعيذها نظرات منك صادقة　　　أن تحسب الشحم في من شحمه ورم

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره　　　إذا استوت عنده الأنوار والظلم

يذكر المؤلف، أن الشاعر.. خص «طنجة» في المغرب، بلد ابن بطوطة.. بقصيدة قصيرة، ولكنه - أي المؤلف - لم يقدم إلينا شيئاً منها. وقد أشرت آنفا إلى أن الشاعر يوشك أن يكون «إقليمياً»، وليس شاعر وطن عربي.! فحتى ما قاله عن تونس والجزائر.. لا يمثل القيمة والكم اللذين ينبغي أن يكونا وهو كأنه مدفوع.. بما يشبه الاكراه.! وشاعر الأمة الحق، لا يميز مشرقها عن مغربها.!

إنني أدرك.. أن الشعر غير السياسة، وإلا فما بال شاعرنا يقدم قريضه هدية إلى «مونتجمري».. القائد البريطاني، وآمال الشاعر الحالم.. في قوم.. لا يخلصون إلا لمصالحهم، ولو كان الشاعر حياً.. لقلت له إن السياسة - غير الشعر والأدب! وعجباً أن يساق الشعر إلى قائد إنجليزي.. انتصر في معركة - العلمين - على ألمانيا وايطاليا، في الحرب العالمية الثانية[2] أذاق العراق والبلاد التي استعمرها قومه المر والحنظل والويلات .!

ويا مونتكمري.. لو سقى القول (فاتحاً)	سقتك القوافي صفوها السلسل العذبا
ولو كان ذرب العاطفات بشارة	نثرنا لك الإعجاب والشكر والحبا

(2) العلمين: بلد في غرب الأراضي المصرية - على البحر الأبيض المتوسط.

الفصل السادس

أريد أن أقول.. إن الكاتب قد قرر أن يخصص «أبواباً» لما في شعر الجواهري، فكان أولى به.. ألا يضيع وقتنا ومساحة صفحات، في سوق تلك النتف لشتى المناسبات ذلك في تصوري، هو منهج الكتابة والتأليف.. عند المؤلفين والمحققين الوعاة للمنهج السوي .!

إن الفصل السادس من الكتاب.. الذي أمامي، وتبدأ صفحاته من «315»، خصصه المؤلف لـ: «التفجع والرثاء.. في شعر الجواهري». وإني ألحظ.. أن الشاعر الكبير لم يصنع ما صنع الشاعر أحمد شوقي.. في احتفائه بمصائب العالم العربي، والالتحام برجالاته، حتى إن شعره يكاد ينحصر في بلاده وما حولها، من الشام وفلسطين، على حين أن مكانة الشاعر واسمه كبيران في الوطن العربي. وكان ينبغي أن يهتم بهموم الأمة العربية.. من محيطها إلى خليجها.! ولعل عدم استقراره، صرفت اهتماماته.. عن هموم الأمة العربية. ونجد أن شاعر النيل حافظ إبراهيم.. قد عنى بصناديد الأمة، ولم يغفل عن الاهتمام برجالات صدر الإسلام إلى أن توفاه الله. وكذلك فعل شوقي. ذلك أن في تاريخ أمتنا أبطالاً مجاهدين، قادوا جيوشاً، وحققوا فتوحات، حتى وصلت جيوشهم إلى أقصى الشرق، إلى الصين، وغرباً إلى المحيط الأطلسي، نصروا الإسلام، فنصرهم الله، هؤلاء القادة المغاوير هم من هذه الأمة

التي ينتسب إليها الشاعر والكاتب، ونعتز أيضاً بالإنتساب إليها. وأضرب مثلا بالتتار، الذين دمروا العراق - وطن الشاعر، وغيروا وجه ماء نهرها بتراث هذه الأمة الزاخر بالمعارف، وتصدى للمغول أبطال من المسلمين فدحروهم، وردوهم على أعقابهم خائبين. هذه الحادثة وأمثالها كثير، ألم تحرك مشاعر الشاعر وهمته.. ليشيد بانتصارات أمته وقادتها.. الذين نصروا الله فنصرهم. وكانوا أقل عدداً وعتاداً، ولكنهم كانوا مؤمنين، فكانوا أعلون، لم تشغلهم الدنيا، ولم يغرهم المال، لأنهم لم يخلقوا لهذا وذاك، تاقوا إلى الأعلى والأسمى والأبقى، فحقق الله لهم ما أرادوا، لأنهم كانوا صادقين، فكانوا مع الصادقين.!

وكنت أتوقع أن أرى من المؤلف - من واقع الأمانة في الدرس - رؤية وتعقّباً عن تقصير الشاعر في حق أمته منذ بزوغ فجرها، لأن إغفال أمجادها من قبل شاعر مبرز - نقص -، كنقص القادرين.. الذين عناهم المتنبي بقوله:

ولم أر في عيوب الناس عيباً ... كنقص القادرين على التمام

ونقرأ في ص «324»، ما أشار إليه المؤلف بقوله: «امتداد قصائد الرثاء لدى الجواهري إلى خارج حدود الوطن العراقي والعربي». وحين نبحث ، نجد أن ذلك محدود جداً، كرثاء الشاعر لغاندي.!

في ص «326»، يعقب الكاتب على شعر للجواهري في رثاء «جعفر أبو التمن» فيقول: «إن المنايا تختار الرجال العظام، وهي **تتجاوز الخاملين من الكم المهمل من الناس**»..
وأتساءل: أهذا اعتراض من الكاتب في شيء لا حق له فيه ولا رأي!؟ إنها الآجال المحتومة، ولو جنح الكاتب إلى الكتاب العزيز، لقرأ فيه قول الحق: **﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله﴾**. إذن.. من الواجب التسليم لأمر الله وحكمه.!

وفي ص «337»، وهذا الفصل خصص للرثاء، يقول الكاتب: «كما أن هناك اثنتين من قصائد الرثاء تتجاوز الشخصيات العراقية والعربية إلى **شخصيات من أقوام أخرى، هم جمال الدين الأفغاني** والزعيم الهندي».

كم كنت أود - وما تغني الودادة -، لو أن هذا الاستثناء.. توقف عند الزعيم الهندي، ولم يطل العالم المسلم **جمال الدين الأفغاني**، لكان الكاتب دقيق التعبير موفقاً، بعيداً عن نعرة جاهلية!، هل يرى الأستاذ زهدي أن الأفغاني الزعيم المسلم من «أقوام أخرى»؟. لقد سقت من قبل، خلال هذا البحث، أن الإسلام يصنف الأتقياء على أنهم أكرم الخلق عند الله. لا عنصرية ولا عرقية ، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى. «وأنا كلنا - لآدم - وآدم من تراب». عجباً لهذه النغمة النشاز التي يرددها الأستاذ زهدي في كتابه، وإنها

لمحسوبة عليه، وليست محسوبة له.! ولا أريد أن أتوسع في التجنيس، لأني أكره دعاوى الجاهلية.!

ولا أزال أرى التكرار، وأنا أقرأ فصل التفجع والرثاء، ويلاقيني شعر، سبق أن قرأته في معرض حديث الكاتب عن اهتمامات الشاعر وما خص به من أناس. كالشعر الذي قاله الجواهري.. في - عبدالمحسن السعدون -.. رئيس وزراء العراق سابقا، الذي انتحر ص «338».

لا أريد أن أطيل الوقوف عند هذا الفصل، لأن كثيراً مما حواه «مكرور»، سبق أن قدمه الدارس.. في صفحات سابقة، فلا حاجة إلى إضاعة الوقت.! وسأمر سريعاً، وأتوقف عابراً.. أمام ما ينبغي العناية به والتنبيه إليه.! ففي ص «351» في رثاء الشاعر لعبدالناصر. وخلال هذا الرثاء، يعرج الشاعر على فلسطين ، ويذكّر كما يقول الكاتب بدور صلاح الدين الأيوبي، ونحن لسنا أمام مقارنة ، بين صلاح الدين وعبدالناصر. فالأول كان مجاهداً في أن تكون كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى، فقيّض الله له النصر. والثاني.. كان محارباً، وكانت أصوات أعلامه تردد: **نتحدى القدر.** فعوقبوا بهزيمة نكراء.. **﴿وما ظلمهم الله، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾**!.

ومازال الكاتب زهدي، كأن في نفسه شيئاً غير قليل من أوضار العنصرية والتفرقة، فيردد اسم صلاح الدين في هذا الموقف الانتصاري الباهر، ويضيف الكاتب إلى اسم هذا

المجاهد المسلم العظيم، فيقول: «صلاح الدين الأيوبي»، **المنحدر من بطون الأكراد.!**

الفصل السابع

في عام 1957، والشاعر يعيش في الشام، ينشئ قصيدة.. يهاجم فيها حكام العراق من البعثيين، فيقول في ص «366»:

خزيت «بغداد» من بلد   كل شيء فيه مقلوب

وأنا أعترض على شتيمة - بغداد -، لأنها وعاء، فما ذنبها، وهذا يشبه قول القائل:

نعيب زماننا والعيب فينا   وما لزماننا عيب سوانا

من حق الشاعر أن يهاجم أعداءه.! لكن ما ذنب الأرض والبلد. والشاعر ليس جبانا.. فيلجأ إلى الكناية والرمز، وهذا ما جنح إليه الكاتب.. في شرحه. ويعيد الشاعر شتيمة - بغداد -، فيقول:

خزيت «بغداد» ليس بها   مثل هذا الفحل يعسوب

وأعيد القول.. إلى أن الفصل السابع من هذا الكتاب، قد أعيد فيه القول والتكرار، كأن هذه الحال عادة.. لابد

منها.! وهذا الفصل عنوانه: «السخرية والهجاء في شعر الجواهري». وفي ص «376»، يقول الشاعر في دائرة الهجاء ويقسم بغير الله ، وقد تعقبت مثل هذا التجاوز، الذي يهبط إلى الشرك:

أقسم بالكافور لا أقصد شتم العنبر
لأنت فوق البشر فوق القضاء والقدر

وإني أستغفر الله.. من هذا التطاول.! ومرة أخرى، كما ينبغي ألاَّ ينقل إلينا الكاتب هذا العبث، بل يدعه في ديوان قائله - وحسابه على الله تعالى -.

ينقل إلينا الكاتب.. هجاء الجواهري لـ: «أرشد العمري»، ويثني على قوله بـ - رحمه الله - إذن لماذا نقلت إلينا هذا المكروه؟ ومطلع هذا الهجاء مُضحك. يقول: الشاعر:

تركوا البلاد وأهلها لخيال مسعور بجُنّه

وعجبت من تعليق الكاتب على بيت من هذا الهجو والعبث، فيقول المؤلف: «يشير الشاعر هنا إلى الوظيفة السابقة لأرشد العمري، باعتباره أمينا للعاصمة مسؤولاً عن نظافة الشوارع وعن صحة المستهلكين فيما يشترون من الباعة عدا كونه مسؤولا أيضا عن الفنادق والعاملين فيها ومعظمهم من المسيحيين واليهود إلخ». وأسأل ما هي الغرابة في هذا؟

إنها طبيعة وظيفته.. من مواطنين أو مقيمين، شيء طبعي جدا، فماذا ينكر الكاتب، وهو قد أقحم.. المسيحيين واليهود! أقول: ما هي الغرابة؟

الفصل الثامن

يختص هذا الفصل بالشكوى والانتصاف، كما أشار الكاتب. ونقرأ هذا البيت من قصيدة الشاعر الميمية:

وكم من خمول لاح لي وجه مترف وكم من نبوغ شع في عين عادم

ويشرح الكاتب في الهامش، ص « 399 »، أن العادم، هو المعدم. لكني أرى أن الشاعر قد أخطأ، والكاتب يتستر عليه. ذلك أن العادم اسم - فاعل -، وأن - المعدم - اسم مفعول، فكيف يحل أحدهما محل الآخر!؟ وسياق البيت يتطلب اسم مفعول - معدم -. وكأني بالكاتب يشير.. أن غض الطرف، ولكني لست من نميرا!.

ونقرأ هذا البيت.. في ص « 400 »، من قصيدة للشاعر عن أبي العلاء، وفيه ما يؤكد انحراف الشاعر، فيقول الجواهري:

لكن بي جنفا عن وعي فلسفة تقضي بأن البرايا صُنّفت رتبا

ويعلق الكاتب، عن - مواقف الشاعر السياسية -،

واتهامه - باعتناق الشيوعية -، بما أسماه - الاتجاهات الحزبية المتواجدة -. و«المتواجدة»، تعبير خاطئ، لأنه من «الوجد، ولو قال الموجودة.. لأصاب.! وموضوع الاتجاهات الحزبية لا أريد الوقوف عنده هنا. غير أن سياق هذا البيت الذي سقته فيه رفض لما قدره الخالق سبحانه وتعالى، الذي نجده في الكتاب العزيز، في قوله تعالى: ﴿**أهم يقسمون رحمة ربك، نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً، ورحمة ربك خير مما يجمعون**﴾. لكن الشاعر لا يميل إلى قبول حكم الله وتقديره، فيقول: إن به جنفاً، أي ميل، وسمى تقدير العزيز الحكيم - فلسفة - وهو انحراف ماركسي. رغم أن هذا المذهب آل بأهله إلى الجوع والفقر المدقع، وحرمان قاتل من كل متاع الحياة.! والشاعر لا يريد أن تكون الخلائق رتباً، وإنما شيوعية حمراء محرومة.!

وأقرأ العجب فيما ساقه الكاتب، في ص «402»، تعليقا على قول الشاعر:

يملك الزارع ما يزرع لا عبداً يُسام

وهو من قصيدة «ستالينغراد»، ويذكر أن «تولستوي»، الكاتب الروسي الشهير - وزّع اقطاعيته الخاصة على الفلاحين، بحثا عن تحقيق العدالة -، ويضيف الدكتور زهدي رأي صاحبه الجواهري، الذي يدينه.. بأنه من أنصار الشيوعية

ودعاتها، فيقول زهدي: «إذ يرى الجواهري أن هذه الأحلام لم تتحقق بصورة كاملة إلا في النظام السوفياتي». سبحان ربي!.

وأسأل الكاتب قبل الشاعر.. الذي رحل: أحق هذا؟. وهل نظام السماء وعدل الخالق سبحانه وتعالى، القائل: **﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾**، ليس فيهما عدالة؟ إذن أنظمة الإسلام العادل.. التي هي من عند الله، لم تحقق ما حققه النظام الشيوعي، «الذي أعطى الأرض لزارعيها».! إن الجواهري يتجاهل بل ينكر عدل الإسلام في كل شيء، لأنه تحول إلى رجل أحمر - والعياذ بالله-. وهل عند الروس حقوق لشعبهم أو شيء من حياة إنسانية؟ لا شيء من هذا، ولا قيمة للحياة الآدمية هناك! بل ولا حياة البتة.. تليق بالإنسان الذي كرمه خالقه، في قوله تعالى: **﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات﴾**.

ويقول الجواهري :

يا «تولستوي» ولم تذهب سُدى ... ثورة الفكر ولا طارت هباءا

يا - ثرياً - وهب الناس الثراءا ... قم ترى الناس جميعاً أثرياءا

نـم لجدهم مالكي غلّتهم ... من على عهدك كانوا الأجراءا

وأسأل. كم عدد من أسعدهم هذا المفكر الكبير؟. ولا أمل السؤال: وهل ما ساقه الشاعر الجواهري.. وفق شرح المؤلف: «أن - تلك - الأحلام لم تتحقق بصورة كاملة إلا في

النظام السوفياتي»! إنني أستبعد تجاوزات قدرة فرد، يُزعم أنه أسعد بعض مواطنيه، إن صح القول وصحت الرواية، وأردد قول الحق: **﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا﴾**. وحتمية هذا الادعاء.. تعني أن الشعب السوفياتي أسعد شعوب الأرض، حسب زعم شاعر يقول زوراً وبهتاناً، وينسب الشيء إلى غير أهله.!

وحول دفاع الجواهري عن المرأة، وتعليق الكاتب بما أسماه: «المساواة الحقيقية مع أخيها الرجل». ورب قائل يسأل: المساواة في ماذا؟ وماذا يعني قول الكاتب: «من الانتصار لحقوق المرأة وآدميتها». وإذا قيل ذلك في العصر الجاهلي، فأنا أؤيد ذلك، لكن اليوم.. ماذا يعني بحقوق المرأة وآدميتها؟ ما هي الحقوق الضائعة لها، وهي تتمتع بحقوقها التى شرعها الله فى كتابه العزيز؟ أما آدميتها فهي مصونة، لأنها قوية وصلبة، وليست متخاذلة ولا مستضعفة ولا هينة، ولا مهينة، إنها واثقة من مكانتها، والأدلة والشواهد أمامي كثر. ومن أهم المزايا أنها تعلمت، وهذا من حقها، وبالتعليم وبقوتها وكيدها، و**﴿إن كيدهن عظيم﴾**.. بلغت أربها. ولست حاسدا له، ولكني أريدها أن تذكر نعم الله عليها فتشكرها، وألاّ تكفر بالعشير. أما أن:

تحكم البرلمان من أمم الدنيا نساء تمثل الأقطارا

كما قال الجواهري في ص « 405 »، فذلك ليس من دور المرأة ولا عملها!

وحول الأم والأمهات، ص « 407 »، نقرأ هذا البيت، في ص - 408 -:

وليس رضيع صدرك بالمجاري   وليس ربيب حجرك بالمضام

إنني أرى الكاتب السيد - زاهد -، يلتمس الأعذار للشاعر حتى في أخطائه، ويجنح إلى تفسيرات من **عنده**، مما لا يحتملها المعنى، فهو يقول في الهامش عن **المضام**: « يقصد بها الذي يقر على الضيم وليس الواقع تحته.. مما يوحي به معنى الكلمة». وهذا تخريج لا يساعد عليه سياق البيت ومعنى **المضام**. والأستاذ زهدي.. تطوعا منه يحمل الأشياء ما لا تحتمل، وهي افتراضات مرفوضة، لأنها خاطئة وباطلة.!

ويقول الشاعر، في ص « 410 »:

ولا تقل ترة تبقى حزازتها   فهم على أي حال كنت قد وتروا

وشبه جملة: على أي حال كنت - تعبير ليس شعرياً - والتكرار الحشوي.. الذي أشرت إليه آنفاً، كأنها **عادة**، أصيب بها المؤلف، إضافة إلى ما نلاحظه من تكرار لعناوين وأبيات عن - **دجلة الخير** -. والكلام على هذا النمط .. يدعو إلى الملال، ويبرر أحقية القارىء في اتهام الكاتب بأنه لا يراعي وعيه وإدراكه، أم هي « **غفلة** » من الكاتب، دفعت إليها عادة

غير محببة؟، بيد أن الأمر فيه إسراف، والإسراف منبوذ في حالات ومواقف كثيرة! فدجلة الخير.. تسير معنا عبر صفحات الكتاب، وهذا فرض ثقيل وممقوت، يأباه الذوق والحس، والشعراء والكاتبون ،يفترض فيهم أنهم أولو حس وذوق، ولكنهم أخياف في ذلك ودرجات.! إنني أكره المبالغة، لأن فيها تجاوزاً، وشيئاً من عبث، والكتابة الحقة الجادة، تتطلب دقة وكياسة وقدرة، وإذا خلت من ذلك.. أصبحت ثقيلة لا يعّول عليها، لأنها لا تحترم القارئ الجاد الواعي: انظروا إلى قول الكاتب، في ص «421»، وذلك.. في تعليقه على قصيدة الشاعر، التي عنوانها: «أرح ركابك». أنشأها الشاعر.. حين سئم الغربة والترحال، وأمل أن يترك منفاه، ويرتاح من الكبد. والقصيدة قوية، ومن قصائد الشاعر الجياد وشعره المتميز. والتعبير الذي فيه معاناة، سواء كان شعرا أم نثراً، طالما واتته القوة والتجويد، لأنه صادر عن انفعال، مرده قوة، فيكون الطرح متميزاً.. نابضاً، لأنه تصور لحالة، دفعت إليه إرادة، لا تصبر على الرتابة والضعف والاستخذاء. ومرد ذلك قوة وقدرة.! يقول الشاعر:

أرح ركابك من أين ومن عثر ... كفاك جيلان محمولا على خطر

كفاك موحش درب رحت تقطعه ... كأنّ مغبرّه ليل بلا سحر

يحسب نفسك ماتعيا النفوس به ... من فرط منطلق أو فرط منحدر

أناشد أنت حتفا صنع منتحر ... أم شابك أنت مغتراً بـد...
أم راكب متن نكباء مطوّحة ... ترى بديلا لها عن ناعم السُرر
خفّض جناحيك لا تهزأ بعاصفة ... طوى لها النسر كشحيه فلم يطر

إن تدفق حماسة الكاتب.. دفعه إلى القول، تعليقاً على معطيات هذه القصيدة القوية، في نسيجها ومعانيها وأغراضها، قوله: «إن أكبر خطأ يمكن أن يرتكبه قارئ لهذه القصيدة أن يخلد إلى الهدوء، إذ هو بإزاء عاصفة قرّت إزاءها النسور طاوية أجنحتها متهيبة من الطيران» إلخ. كتابة انفعالية، واتهام لقارئ واعٍ. وكنت أوثر أن يكون تعليق الكاتب ألطف.. من تعبير فيه تجهيل لقارئ، يفترض فيه الوعي والحرص والقدرة والإدراك، أما القارئ الخامل فلا يعبأ له. غير أن منهج الدرس، ليس أسلوب الإثارة والاتهام.! ولعل الكاتب انفعل بالقصيدة، وهو نفسه يشكو الأين والغربة والتشرد، وقد نعذره، لكنا ونحن في حال درس، فإن ذلك يدعو إلى التوازن، ورجحان الرأي قبل غيره من سبل الإندفاع والحماسة.. في غير موضعهما.! إننا نؤكد.. أن الحرمان والضيق بالحياة ورفض الظلم، أنطقت الشاعر المتحفّز الثائر.. بالروائع، يضاف إلى ذلك طموحه. وإن رفضه جرَّ عليه الحرمان والعنت الذي أصبح فيه، وهو ناتج من طبعه وقلقه وهمومه.!

ونقف على ما ألمح به المؤلف، فيما قال الأستاذ حسن

العلوي في كتاب ألفه عن الجواهري، وما مر بالشاعر من حرج في حياته، وأشار إلى قول الشاعر عن **أحمد شوقي،** ص « 426 »:

وسط القصور العامرات وبين قائمة الزهر

ولم تعجبني كلمة قائمة، فهي مبتذلة، وليست شاعرية. إذاً: الجواهري.. يريد أن ينال حظوة.. كحال شوقي، والرأي عندي.. أن شوقي، اضطر فى مراحل عديدة من حياته نتيجة تغيير الخديوى والظروف السياسية بعد منفاه، فهادن وساير، فحفظ بذلك نفسه وكرامته. أما الجواهري.. علّه لم يستطع أن يروّض نفسه، وقد غلبه طبعه الصراعي.. وجره الى خصومات فدفع الثمن من استقراره، فبقى منبوذاً ومحروماً ومشرداً!. ونراه يندب حظه العاثر، فيقول في ص « 427 »:

حبيت بندمان و... نفاظني بأني ما ملكا حُبيت ولا قصرا

ولو بهما متعت مازلت ساخطاً على الدهر إذ لم يحبني حاجة

والشاعر يعلن.. أنه لو نال ما أراد، لبقى **ساخطاً**، ذلك أنه لم ينل حاجة أو حاجات.. لم يفصح عنها.! فهل كان يريد الخلد، وهو مستحيل،.! ولو أن الشاعر صانع وهادن، وسمع مقولة ابن أبي سلمى، لأراح واستراح، غير أن طبعه قتالي، لا يجنح إلى السلم والمداراة، ولكنه العنف الذي لا يهدأ، يقول زهير:

ومن لم يصانع في أمور كثيرة　　　يضرّس بأنياب ويوطأ بمنسم

والشاعر قلق النفس، وقد تعب من العناء، وأجهده السرى، فنراه يردد في ص « 428 »:

ذممت مقاما بالعراق وعلني　　　متى أعتزم مسراي أن أحمد السرى

لعلي أرى شبراً من الأرض خالياً　　　كفاني اضطهاداً أنني طالب شبرا

ونقرأ في ص « 430 ».. وصف المؤلف شاعره، بأنه « قد استقر نهائيا على القمة الشاهقة للشعر العراقي **بل والعربي** »، وقد لا نختلف معه حول مكانه الجواهرى فى الشعر العراقي المعاصر، لكني لا أسلم بقوله عن موقعه: «**الذي لا يضاهيه فيه أحد في تاريخ الشعر العربي الحديث**». وهذا الرأي أو الحكم عليه تحفظ. فهذه الفرادة لا يمكن أن يوصف بها واحد، لأن الشاعر كغيره، لا يجيد في كل ما يقول، فكيف يعطيه الكاتب ما لا يستحق، ولا يقبله الدارسون والنقاد!؟ هذه أحكام عاطفية.. لا يؤبه لها، وهي ارتجالية. وأعجب من قول الكاتب، وهو يقول ما لا يملك ولا يضمن، وهي شطحات شاعر وقول شاعر يرتجل، وهو يردد إعجابه بشاعره، و« أن الأمة لابد مكرمة ذكراه عام « 2900 » للميلاد في المهرجان الألفي لميلاد شاعر العرب الأكبر محمد مهدي الجواهري، كما فعلت للمعري والمتنبي ». وكلمة **لابد**، وهم وعبث! ونسأل: من أعطى الكاتب الحق فى أن يصدر هذه الاحكام جزافاً؟ و هل ستبقى الحياة 900

سنة أخرى؟ ثم كيف نجزم بأن الجواهري شاعر العرب الأكبر؟ عواطف وأحكام مرتجلة أملاها الهوى، وقد تكون هناك عوامل أخرى لاعلاقة لها بالمعايير الأدبية.!، لا تدخل في موازين الدرس المتقن.. والأحكام التي يحتج بها!

وأضحكني قول الشاعر الجواهري، في ص « 431 »:

تطاول القاع حتى استقعرت قمم   واستأسد الغي حتى استنوق الرشد

ونحن لا نعرف إلا استنوق الجمل. فكيف يستنوق الرشد؟ يمكن أن يختل ويغيب، أما أن يوصف بوصف الجواهري، فإنه ضرب من الهلام! وأعجبني قول الشاعر:

وما برح العراق محكّ صبر   يطاق بأرضه غير المطاق

وندم الشاعر الجواهري، على قصيدته، التي قالها يوم تتويج الملك فيصل الثاني، ولعل مرد ذلك.. أن خصومه استغلوا هذا الموقف، حتى إن الشاعر أسقطها من ديوانه، وسماها «النكسة» و- البلية -، و- الهاوية -، و«زلة العصر». والذي أراه أن لا تثريب على الشاعر فيما صنع، لأنه من طبيعة الشعر.. مدح رمز البلاد، والتهنئة بمناسبة التتويج للملك. وأنا مع الكاتب ، نختلف مع الشاعر في هذا التراجع، ومرد ذلك.. أن ذم خصومه له أثر في نفسه، حتى إنه رأى ما صنع سقطة وزلة، وما أطلقه عليها من أوصاف حزينة، كأنه

وقع في كارثة لا توبة منها ولا غفران. في حين أن الأمر لا يعدو أن يكون جزءاً من الحياة ومن التاريخ الوطني!

وأتجاوز «الفصل التاسع»، المختص بـ: السانح والبارح في شعر الجواهري. ذلك أنه كان ينبغي أن يوجه لطلاب المدارس الثانوية، أو أولى تمهيدي.. في الجامعة بكلية الآداب، وليس محل هذا النمط من الشعر هنا .. في هذه الدراسة، التي لم تكن دراسة بمعناها الدقيق. ذلك أن هذا الباب يخرج عن توجه هذا العرض .. الذي عنى به المؤلف، عن شعر الجواهري. إذ لسنا في فصل مدرسي.. حول أمر النقائض والقرائن وما إليهما. وكان الأجدر بالمؤلف أن يخصص فصلاً.. يتحدث فيه عن القوة والضعف والتجديد والابتكار.. عند الشاعر الكبير ، أو يفنّد ما تحدث به ذلك الكاتب العراقي.. «سليم طه التكريتي» عن الشاعر.. والتناقض في حياته، وما لاقى من جراء ذلك من عناء. والقارئ سوف ينصرف عن هذا الحديث .. الذي لا يعنيه ، لأن موضعه كما قلت فصل مدرسي! إذ ماذا يهم قارئ، حين يقرن شاعر.. أي شاعر، بين فعلين مضارعين، مثل: تبتغي وترتجي، أو بين لفظين: المطمع، المطلب. وهذه اللوحات أو الألواح التي يسوقها الكاتب.. ليملأ بها فراغات في فصل !! ذلك أن اللوحات.. تحتاج إلى قاعة.. تعرض فيها، ليراها الزائرون إذا أرادوا، أو كان الأمر يعنيهم.! ولقد امتد الحديث إلى الاستشهاد بآيات من الكتاب العزيز.! وأسأل: ما الدافع إلى ذلك؟ لا أدري.!

وبعـد:

فلعلني قد بلغت أربي.. من هذه الوقفات.. مع هذا الكتاب ، الذي جاءني بتكليف.. أن أقرأه، ثم أستخرج منه.. ثلاثة أو أربعة - محاور -، لتدارسها، واختيار من يتحدث عنها، في لقاء يحدد ذلك.. في منتدى.. يشارك فيه دارسون ومؤلف الكتاب. ولكن لم يتح لي ما طلب مني، لشواغلي، وعقد الملتقى ولم أحضره، وحين أنجزت وقفاتي مع كتاب - الجواهري -، آثرت نشره ، ليقرأه من شاء. وأعلن استعدادي الدخول في حوار مع مؤلفه، أو من يعن له ذلك .. بعقلانية وموضوعية ، وصولا إلى كلمة سواء. وأرجو أن يتاح لي قراءة شعر الجواهري، والوقوف معه، متأملاً ودارساً، ومتمعناً في جيده ورائعه، وكذلك الصور الجمالية فيه، وما انتابه الضعف، وذلك شأن أي شاعر، يخطئ ويصيب، يعلو ويهبط. ومن يدعي في فن من فنون الحياة الكمال.. فقد انزلق بغروره.. ومن دفعه هوى إلى أن يلبس غيره وشاح الريادة والتفرد.. فقد جنى على نفسه ومن عنى. ذلك أن الذي يعمل، يصيب ويخطئ، لأنه بشر خطاء. والله المستعان .

* * *

مقدمة في فقه اللغة العربية..!(*)

قال الله تعالى: ﴿ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته، ءأعجمي وعربي، قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد﴾.

* إن عنوان هذه المقالة.. هو اسم كتاب، ألفه لويس عوض، ونشرته الهيئة المصرية العامة للكتاب، في عام 1980، ويقع في أكثر من ستمائة صفحة . وقد اعترض - الأزهر - على هذا الكتاب، لأنه يسيء إلى العربية.. وإلى تاريخها، وينسبها إلى غير أهلها.. وإلى غير جذورها؛ فلويس يقول إنها من جذور «الهندية الأوربية»، دون أدلة معتمدة، وإنما من خلال اجتهادات، ترد جذور الكلمات إلى لغات شتى: يونانية ولاتينية، وإنجليزية وألمانية وإسبانية إلخ.؛ وكذلك فيه الكثير من المغالطات التاريخية والإساءة إلى الدين وإلى أنبياء الله،

كما سنرى.! إن تدخل الأزهر الشريف.. أوقف توزيع هذا الكتاب المسموم. وليس هذا المؤلف.. أول طعن في الإسلام ولغته، فقد كانت له سابقة.. من هذه المساوئ، التي يسعى إلى دسّها أعداء الإسلام وعقيدته ورموزه ولغته.. لغة الكتاب العزيز.! وقد تصدى الأستاذ المحقق محمد محمود شاكر رحمه الله إلى مزاعم هذا المفتري، ففندها في مؤلفه القيم: «أباطيل وأسمار»، وألجمه بالحجة والأدلة الدامغة، ولويس عوض - عليه من الله ما يستحق -، ليس بدعاً، فهو من شرذمة قليلة.. في العصر الحديث، تصدت للعربية ، التي ظلت تصارع الزمن، قوية متجددة منتشرة. مما غاظ أعداءها سعياً في أن تذهب وتمحي وتذوب كما ذابت لغات، كاللاتينية واليونانية ، فكيف تبقى العربية، حية.. قوية، لا تهن ولا تتراجع، ذلك أنها باقية بقاء الكتاب العزيز.. الذي قال الله في متنه: **﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾**.

لقد دعا أعداء العربية، كما صنع «أتاتورك» في تركيا عام 1928 إلى أن تكتب اللغة التركية بالحروف اللاتينية، ومن الشمال إلى اليمين، فكان له ما أراد ، وفرض على شعبه القبعة أو البرنيط ، بدلاً من (الطربوش)، الذي يُعدّ زياً تراثياً قومياً للأتراك، يستعمل كغطاء للرأس، غير أن محاربي العربية وشانئيها.. باءوا بالفشل والخذلان المبين، حين دعوا إلى أن تكتب العربية بالحروف اللاتينية، كما صنع أتاتورك، لأن اللغة

العربية حمايتها في داخلها وسندها القرآن والسنة، عماد الأمة المسلمة في تشريعها وعقيدتها، فحماها الله.. من التبديل والتحريف، لتبقى تغيظ الكفار والمنافقين والحاقدين عليها، رغم أنهم يمارسون ما يكتبون بها، وببيانها الناصع المبين.! ولست أدري، لماذا يحاربها كارهوها، وقد أجادوها واتقنوا التعبير بها، وأغراهم بيانها المشرق.. فأحسنوا اتقانه، وأخذوا في دروسهم وحجاجهم وخصومتهم الكلامية، يتباهون بفصاحة لغة الضاد، ويصولون ويجولون بمعطيات بيانها ومعانيها وجمال تعبيرها، ومع ذلك يكرهونها ، وقد أحسنت إليهم، فكان جزاءها.. جزاء سنمار!؟. وهم قد كرهوها، لأنهم كرهوا الإسلام وأهله، رغم أن الإسلام هو السلام، ولكنهم يريدون الحرب. والإسلام قوة باقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. فهو إذا لم يجد من يسالمه، فإنه قوة في الحرب، لصد أعدائه، وذوداً عن حياضه، ليظل مهيباً، دفاعاً عن الحق، وردعا للظالم. قال تعالى: **﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾**.

وإذا جنح أعداء الإسلام إلى السلم، فالله أمر عباده في خطاب لرسوله.. في قوله تعالى: **﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله﴾**.

إن المقدمة.. في هذا الكتاب الكبير حجماً ومساحة، عديمة الجدوى، لأن محتواه.. تجميعات وارهاصات تخمينية

متنافرة، يزعم جامعها في فصولها الاثنى عشر، بكلمات من لغات شتى قديمة.. أنها أصل اللغات، ومن تلك الأصول كما زعم «الهندية الأوربية»، وأن العربية مشتقة منها ، وناتجة عنها. وحين نقرأ تلك الألفاظ.. التي قدمها واستشهد بها، لا نجد أي رابط ولا قرابة مع لغتنا، التي هي لغة الكتاب العزيز والسنة المطهرة، ونحن نعتز بها وبالانتساب إليها، لخصائص أخرى بجانب أنها لغة دستورنا السماوي، فهي اللغة الشاعرة، كما سماها الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد رحمه الله، نعم لغة عذبة، غالية، لغة مشرقة، كأنها ضياء يملأ الكون جمالا وبهاء وعزة. ولا أدل على قيمها وروعتها.. من رائعة شاعر النيل حافظ إبراهيم رحمه الله.. على لسان اللغة العربية التي مطلعها:

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي   وناديت قومي فاحتسبت حياتي

رموني بعقم في الشباب وليتني   عقمت فلم أجزع لقول عداتي

إنها تبث حالها.. في ذلك النسيج الرائع، الذي وفق إليه الشاعر الكبير المجيد. وما أجمل قوله، على لسان لغتنا الخالدة:

وسعت كتاب الله لفظا وغاية   وما ضقت عن آي به وعظات

فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة   وتنسيق أسماء لمخترعات

وقوله:

أنا البحر في أحشائه الدر كامن فهل سألوا الغواص عن صدفاتي

ولن تبلى، العربية إن شاء الله، ذلك أنها باقية ما شاء الله أن تبقى، وإن كان لسان حالها يردد مهموما في حسرة.. من تقصير ذويها في الاهتمام بها والحفاظ عليها.. وجعلها في أوائل اهتماماتهم.. دراسة وتعاملا وحفظا ورعاية، فهي كائن حي، وملك للأمة العربية والإسلامية، خليقة أن تقدرها حق قدرها وتنميها وتشيد بها في المحافل، اعتزازا بقيمة.. عز من اعتز بها.

أيهجرني قومي عفا الله عنهم إلى لغة لم تتصل برواة

فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسني ومنكم وإن عز الدواء أساتي

فلا تكلوني للزمان فإنني أخاف عليكم أن تحين وفاتي

أرى لرجال الغرب عزا ومنعة وكم عز أقوام بعز لغات

أتوا أهلهم بالمعجزات تفننا فياليتكم تأتون بالكلمات

إن هذا الكتاب، الذي يزعم صاحبه.. أنه «مقدمة في فقه اللغة العربية». أقول في غير احتياط، أن ليس فيه شيء مما يسمى مقدمة وفق التعبير العلمي؛ وليس بالتالي فيه شيء من «فقه العربية». ولكنه تجميع ألفاظ من مصادر شتى، إن كانت تعنى بلغات شتى، فليس العربية منها في شيء! ولعل

جامع هذه الألفاظ المتنافرة والمتناثرة، عنى بها كاتبها يوم كان يحضر رسائله الدراسية في اللغة الإنجليزية في بريطانيا، فأراد أن يشارك بعض قومه.. الذين تصدوا للغتنا العربية، ليحطوا من شأنها، من خلال حربهم لها، لعلهم وعلّه معهم يظفرون بشيء مما يحلمون به للنيل من هذه اللغة الشامخة، لأن بقاءها يغيظ أعداءها وما أكثرهم.! غير أن المكر السيء لا يحيق إلا بأهله، كما جاء في الكتاب العزيز. فماذا قدم - لويس عوض -، في كتابه.. الذي أنشأه للقارئ العربي؟ سنرى «عجره وبجره» من خلال الوقفات المتتابعة، لأن الكتاب ليس فيه شيء يعتد به أو يعتمد عليه، فمحتواه ألفاظ شتى، من سفاسف، يحاول جامعها أن ينسبها إلى شعوب الأرض، ومنهم أهل الضاد؛ و - نحن - المسلمين العرب، والهدف هو.. الإساءة إلى لغتنا ونسفها، لأنها في رأيه وخياله المريض، لغة من اللغات، التي بادت، أو التي تغيرت.. بعد اندثار الجذور القديمة.! ولويس عوض، فيما يكيد لرموز المسلمين ولغة كتابهم العزيز، ينطبق عليه قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿**الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا**﴾. إن مؤلف هذا الكتاب.. رجل غير مختص فيما جنح إليه، فماذا ياترى هو قائل، سوى أن يظهر فشله الذريع، لأنه تجنى على نفسه، بتجنيه على العربية، ففضحه الله، وحاق به ما استهزأ به. وصدق الله القائل: ﴿**ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله**﴾.

إن كتاب لويس عوض هذا، لم يتح لي شراؤه.. إبّان ظهوره بعد نشره عام 1980. ولكن بعد سنوات، وقد قرأت شيئا مما كتب عنه. سألت أخاً أديباً عزيزاً فاضلاً من مصر.. البحث لي عن نسخة من هذا الكتاب لمطالعته، ولعله يدرك أن الكتاب اختفى.. بعد منع تداوله، فأفضل مشكوراً بأن قدم إليَّ نسخته، وقد شكرته يومئذ، وإني أشكره اليوم مجدداً، حيث أتاح لي الوقوف على ما فيه من أوهام وأباطيل.. سددها إلى لغتنا الحية.. لينال منها، وما هو بقادر.. ولو اجتمع له الإنس والجن، لأن الله حافظ لغة كتابه، بفضله ومنّه، ما بقي في الأرض دين الله الخالص، وهو باق بإرادة الحي القيوم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.!

إن فقه أي علم.. زبدته وسنامه، وإن الذي يتصدى لفن أو علم أو شيء من المعارف، يشترط أن يكون من أهل الاختصاص والعلم به، وإلا فإن ما يعرضه قول مردود عليه، لأنه ليس من أهل الذكر والاختصاص.. الذي زج نفسه فيه، ليفتي ويخمن ويقول بفم مليء معرفة من ثقافة ما تعلم ودرس وتخصص.! وإذا لم يكن كذلك، فإن الرد البدهي عليه:

إذا لم تستطع شيئا فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

لكن الدّعي - لويس عوض -، أقحم نفسه في علم لا يحسنه.! وإذا كان يستطيع بعض القول.. في بعض اللغات،

من خلال دراسته واطلاعه على جذورها خلال درسه للإنجليزية، فما شأنه والعربية ومحتدها، وهو ليس من أهلها.. على الأقل دراسة وتخصصاً!؟ ما شأنه وما لا يحسن؟ وأين الفقه الذي عنى؟. لم نر شيئاً مما جاء في عنوان الكتاب، إلا تلك التجميعات المبعثرة من كلمات «لململها» من مصادر شتى، أشبه بالمربعات المتقاطعة.. التي يتسلى بها قراء المجلات والصحف السيارة!.. فأين الفقه ومدخل الفقه؟. والكاتب لا يستطيع أن يفتي في فقه اللغة الإنجليزية.. التي درس وتخصص فيها، ذلك أن فقه اللغة دراسة متخصصة عالية، لأنها كما أشرت آنفاً زبدة وسنام أي علم أو فن من الفنون؟.. اقول مرة أخرى: ما شأن لويس عوض وعربيتنا وأصلها وفصلها، وهو ليس منها ولا من أهلها والمعنيين بها، سوى أنه الفضول، أو الغرض والمرض ومكر السوء.. الذي لا يحيق إلاّ بأهله، عليه وعليهم دائرة السوء.!

أمة أمية.!

يستهل لويس عوض كتابه ببداية عنوانها: «العرب ولغتهم» (ص 5). وفي (ص 7) يقول: «فالمعلومات عن شمال شبه الجزيرة العربية ووسطها نادرة قبل القرن الثاني ق.م. ويبدو أن حضارتها كانت في الألف الأولى ق.م متخلفة عن حضارة جنوب شبه الجزيرة حيث كانت مملكة سبأ ومعين

وقتبان، وعن حضارة الهلال الخصيب الملتف من العراق إلى الشام الكبير على الساحل الشرقي للبحر المتوسط». ويتابع قوله بأن «العرب إذاً أمة حديثة نسبيا إذا قيست بمن جاورها من الأمم. وهذا غير صحيح ، ويمكن الرد عليه بنصوص التاريخ القديم.! **ونحن عادة نؤرخ للحضارات ببداية عصر التدوين واستعمال الأبجدية**».

ولست أدري، أهو تجاهل من الكاتب.. أم جهل منه، أن العرب كانوا أمة أمية، لا تقرأ ولا تكتب. هذه مسألة خلافيّة لأن هناك ذكراً في القرآن الكريم لأدوات الكتابة كالقلم والقرطاس والمداد.. كما وجدت صحائف ونقوش مكتوبة والحديث طويل. والكتاب العزيز، وقد قرأه لويس عوض، حيث يقول القرآن: **﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته﴾** إلخ. إذاً فإن التأريخ ببداية عصر التدوين، مبدأ لا يعول عليه في تجاهل ظهور الأمة العربية - الأمية -، لأن ذكرها مثبت ومؤكد في مصادر التاريخ، وأكبر شاهد وأصدقه القرآن الكريم. إذاً.. فإن تحديد بدء تاريخ «الأمة العربية» بنحو ثمانمائة سنة قبل ظهور الإسلام لا يعول عليه! ذلك أنه سبق ذلك بقرون، ونحن نعلم أن إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام، تزوج من جرهم حين سكنت مكة وتعلم منها العربية . وإسماعيل ينتمي إلى الألف الثانية قبل الميلاد، أي «1700». والكاتب نفسه يثبت في ص «8» من كتابه أن

«بعض العلماء يرجح أن معظم سكان النبط كانوا يتكلمون لهجة من اللهجات العربية، وخرجت الأبجدية العربية المعروفة بخطها المعروف. وفي الهلال الخصيب قبل الميلاد بقرون في مملكة الزباء أو زينوبيا.. من يتكلمون الآرامية أو من يتكلمون العربية».

ويأخذ هذا الكاتب في الدس، وهو مسلك المنحرفين الضالين، فيقول من خلال حديثه في الدس والتشكيك والافتراضات والتخمين، في ص «9» عن العرب - العاربة -، وهم أهل جنوب الجزيرة العربية، وعرب مستعربة، وهم أهل الشمال. «إن عرب الشمال من أجناس كانت غير عربية ثم استعربت، أو أنهم مولدون من العرب، وغير العرب. وعلى كل فإن عرب الشمال المستعربة، **ينسبون أنفسهم إلى إسماعيل** بن إبراهيم الخليل عن طريق عدنان ومضر. إن مقولة «العرب العاربة» و«العرب المستعربة» من صُنع اليهود وهي أول ما وردت في سفر التكوين، ثم تسللت إلى بعض أقلام المؤرخين، ولم يذكر هذه المقولة من المؤرخين العرب المسلمين سوى البلاذري وابن الأثير وابن خلدون. وإذا سلّمنا بمقولة «العرب المستعربة» فمعنى هذا أن نبينا عليه الصلاة والسلام ليس عربياً (والقرآن يقول إنه عربي) لأن النبي صلى الله عليه وسلم من أبناء إسماعيل عليه السلام (وإسماعيل هو جد العرب المستعربة وليس عربياً أصيلاً كما يقول أصحاب هذه

النظرية). ثم يأخذ الكاتب المنحرف في العبث.. شأنه وشأن لداته الكارهين للعروبة والإسلام. كقوله: «وفي روايات أنهم من عدنان ومضر دون ذكر إسماعيل». أي العرب، إنه نمط من الدس والتشكيك والعبث المكشوف السخيف.

إن أكثر فصول كتاب لويس عوض ومحتوياته، عنيت بالصوتيات، عبر لغات شتى، منها لغتنا العربية، بيد أن الإيهام بالعلمية والموضوعية كشف لنا أنّ الهدف الخبيء الذي يريد لويس طرحه وتقديمه كدراسة للعربية إنما اقحام العربية مع لغات شتى، ليقول بزعمه إنها جميعاً من جذور واحدة أو متقاربة، ليمحو بهذا الزعم المكشوف، وعمله المدسوس كيان العربية كلغة، وما هو بقادر، ونقول له: هيهات!. ولقد حاول غيره من قبله، وسيحاول آخرون بعده.. أن يغمزوا ويلمزوا لغتنا ، لغة الكتاب العزيز، غير أن فشل كيدهم سيكون المحصلة لكل هذه المحاولات الفاشلة الباطلة، وسيظل المسلمون كلما حاول مغرض النيل من هذه اللغة الشامخة.. ترديد قول الحق سبحانه: **﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله﴾**.!

إن هذا الكتاب المزعوم، لن يكون سبيلاً إلى العربية ومقدماتها ودرسها، ولكنه كشكول عريض، يعنى بشيء من الصوتيات في لغات العالم وجذورها عبر تاريخها الطويل، وما العربية إلا ستار، قد أقحمت للإيهام.. من أجل النيل منها، لأنها أغاظت وتغيظ أعداءها وشانئيها، حسداً من عند

أنفسهم! وبغضاً لها؛ وليزيد الإيهام عند لويس عوض.. ومن ينحو نحوه، فإنهم يكتبون بها ويتحدثون، حتى يقال إنهم من محبيها وأهليها! إن كتاباً يكتب بهذا العنوان الزائف.. لمن ورائه الدس والكيد، للإساءة للعربية وأهلها، بأساليب وقحة، لأن كاتبيها لا يستحون، لذلك فهم يفترون، ويقولون عنها الزور والبهتان، لأنهم مبغضون لها، وحاقدون عليها، ذلك أنهم أشد الناس عداوة لها.! إن في هذا المعرض الذي قدمه لويس عوض في كتابه الكثير من التخمين والافتراضات، كقوله في كثير من الصفحات: **وأقرب في ظني**، ص «158». **وربما وجدنا، وربما أعانتنا هذه الدراسة** ص «49». **وربما مادة قرى تنتمي إلى نفس جذر «أرج»** ص «240». **وهي فيما يبدو كلمة** - كئود، وكأداء العربية وهو يقدم كلمة «كيء» بمعنى - تل - أو - «رابية» - أو «هضبة» أو «أكمة». إلى غير ذلك كثير، ومبثوث في صفحات هذا الكتاب المضلل.. دون سند يعتد به أو مرجعية علمية.! إنه كشكول قد يصلح إلى حد ما للذين يدرسون الأصوات في اللغات واستقاماتها ومعطياتها. ونصيب العربية.. أقل نصيب، والهدف واضح بيّن، وهو محاولة إيهام عريض، بأن اللغة العربية.. من هذا المختلط المتعدد، من لغات العالم، من خلال الكثير من التخمينات والافتراضات.. كما ينطق بذلك تفسير المؤلف نفسه، ولا شيء سوى ذلك.! إنها قياسات وضرب أمثلة بعيدة في أكثر

الأحيان والأحوال.! وإن أي دارس جاد لا يطمئن لدراسة غير علمية، ذلك أنها تتكئ على افتراضات وتقولات مختلقة، ينقصها الدليل والتوثيق والأدلة، فهي إذن رصد ونقل غير أمين، فلا يوثق به ولا يعوّل عليه، من غير مؤتمن ولا حجة.!

ومن العجب أن عوض هذا يدلل في كتابه الذي أتحدث عنه بآيات متعددة من الكتاب العزيز. وهو قد قرأه كله. وقرأ قول الحق عن نبيه إبراهيم عليه السلام: **﴿ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن حنيفاً مسلماً ولم يك من المشركين﴾**(1) في ص «9»...: وثار إبراهيم على عبادة قومه ودعا للتوحيد وهاجر غربا إلى كنعان مع مريديه، وكان اسم الإله الواحد الذي عبده إبراهيم «شداي»، أي إله «الجبل». وصدق الله القائل: **﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾**. كيف يتفق لعاقل أن يقول إن نبي الله إبراهيم عليه السلام: «ثار على عبادة قومه ودعا للتوحيد». ثم يقول في الوقت ذاته: وكان اسم الإله الذي عبده إبراهيم - شداي -. فلو كان الذي أتى بهذين القولين المتناقضين «مجنوناً». لعذرناه، ولكن أن يأتي به من يتصدى لما يسميه وأضرابه دراسة في جذور لغات شتى، وهو تجميع لمقدمات صوتيات، وليس مقدمة في فقه اللغة العربية.! فذلك هو الجنوح والإفك والمروق.. لاسيما وأن قائل هذا التناقض الشنيع قرأ القرآن، بدليل استشهاداته في دراسته بآيات شتى منه.! ولعلّ الله أراد أن يفضحه، فقال ما قال.!

إن الكتاب العزيز يسوق إلينا في سورة «الأنعام» تأملات الخليل، وهو يبحث عن سبل الهداية .. قبل الوصول إلى منهاج الله القويم، فتقول الآيات: ﴿فلما جنّ عليه الليل رأى كوكبا، قال هذا ربي؛ فلما أفل قال لا أحب الآفلين * فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي؛ فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين * فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر، فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون * إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين﴾. ونبي الله إبراهيم الذي حطّم أصنام قومه وتحداهم، ﴿وقال كيف تعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون﴾ وقال لأبيه وقومه: ﴿إنني براء مما تعبدون * إلا الذي فطرني فإنه سيهدين﴾، وجعلها كلمة باقية في عقبه. ووضعه قومه في المنجنيق ليرموا به في النار، وجاء جبريل رسول السماء عليه السلام.. في ذلك الموقف الجلل، فقال: «ألك لي حاجة»، فيرد عليه بلسان الواثق بخالقه: «أما إليك فلا» ولسان حاله يردد.. «علمه بحالي يغني عن سؤالي». ويأمر رب إبراهيم والسموات والأرض والكون.. فيقول: ﴿يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾. وقال سبحانه: ﴿وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين﴾. واقرأوا جدال إبراهيم عليه السلام لأبيه - آزر - يريد بعاطفة وحنو البنوة الهداية للأب: ﴿يا أبتي إني قد جاءني من العلم ما لم

يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سويا * يا أبتي لا تعبد الشيطان؛ إن الشيطان كان للإنسان عصيا﴾، ويرد الأب الذي لم تجد فيه سبل الهداية من أقرب الناس إليه. **﴿قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم؛ لئن لم تنته لأرجمنك؛ واهجرني مليا﴾**، وتظل عاطفة البنوة المؤمنة، التي تريد الخير للأبوة الضالة، فقال: **﴿سلام عليك، سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا * وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا﴾**[2] والله يشهد ويقول: **﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين﴾**[3]. ويقول القرآن: **﴿إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين﴾**[4].

إن لويس عوض بقوله ذاك يكذب القرآن، ويكذب على خليل الله، الذي تبرأ من الشرك، ووجه وجهه إلى الله، وجهة التوحيد خالصاً لربه، فاتخذه خليلا، قال تعالى: **﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾**[5]. فماذا نقول للويس عوض إلا ما قاله القرآن: **﴿ألا لعنة الله على الكاذبين﴾**[6].

وتتوالى افتراءات هذا الدعي، فيقول في ص «13»: وفي التوراة وفي مانيتون اتفاق على أن خروج بني إسرائيل من مصر كان في عهد موسى. ولكن مانيتون يقول إن موسى كان معاصرا لخروج الهكسوس من مصر. وأنه هو الذي قادهم خارج مصر. ويقول مانيتون «إن موسى كان كاهنا مصرياً، أو على الأقل إنه كان كاهنا من كهنة مصر».

أعجب، كيف ينحرف رجل يكتب للتاريخ؟ ولماذا لم يرجع إلى القرآن ليستشهد به وإن كان لا يؤمن به كمصدر مؤكد لأنه إلهي!؟. ويستشهد بالتوراة المحرفة المبدّلة والمزورة. فالقرآن يؤكد أن خروج بني إسرائيل من مصر كان في عهد موسى عليه السلام، ويؤكد ذلك قول الله تعالى: **﴿وأوحينا إلى موسى أن أسرى بعبادي إنكم متبعون﴾**[7]. إلى قوله سبحانه: **﴿فأتبعوهم مشرقين﴾**[8]. إلى قوله: **﴿وأنجينا موسى ومن معه أجمعين * ثم أغرقنا الآخرين﴾**[9].

وضلال لويس عوض يجعله، في القرن العشرين، في عصر العلم، يكذب ويتبع مصادر كاذبة جاحدة مفترية بلا دليل، وهي أقوال لا حجة فيها.! وهذا نقص وحطة في رجل يتصدر للتاريخ والحديث عن لغات عبر آلاف السنين! كيف يصدق ويوثق به، وأمامه مصدر لا تخالطه ريبة، ولا ينتابه شك، وهو القرآن، الذي قال الله فيه: **﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا﴾**. وقال سبحانه فيه: **﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾**.

ألا يستحي هذا أن يقول عن كليم الله موسى عليه السلام وهو - أي هذا المضلّل - ينقل أباطيل تزعم أن «- موسى كان كاهناً - أو أنه كان كاهناً من كهنة مصر»! لأن هذا المجهول لويس عوض، وهو يتصدر لتواريخ الصوتيات في لغات شتى، ويزعم كاذباً أنه يكتب مقدمة في فقه اللغة

العربية!. فالله سبحانه وتعالى الخبير.. يرسل رسله إلى أممهم بما برعوا فيه. فعصا موسى أبطلت عمل سحرة فرعون، لأنهم كانوا بارعين فيه ومتميزين، ولذلك حين رأى أولئك السحرة معجزة موسى.. قالوا **﴿آمنا برب العالمين رب موسى وهارون﴾**، ولم يبالوا بفرعون وعذابه، فقالوا له حين أوعدهم بأن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ويصلبنهم في جذوع النخل. قالوا في ثقة المؤمنين الآيبين إلى خالقهم: **﴿قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات فاقض ما أنت قاض؛ إنما تقضي هذه الحياة الدنيا * إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر، والله خير وأبقى﴾**(10). وأرسل عيسى عليه السلام بالطب ليأسو الأدواء التي كانت منتشرة في زمانه، وهو يمارس ذلك بإذن ربه، وأرسل محمداً صلى الله عليه وسلم بما برع فيه قومه، وهي الفصاحة والبيان، فكانت معجزته القرآن.!

إن نبي الله موسى يُعدّ «كاهناً» عند المضلين، لويس عوض ومن ينقل عنهم من محرفي التوراة والإنجيل، وذلك فيما ساقه عوض إلينا من أباطيله، ونحن العالمون من الكتاب العزيز، أن الله جل في علاه أوحى إلى أم موسى ما نجده في مطلع سورة «القصص».. في قوله تعالى: **﴿نتلو عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون﴾** إلى قوله تعالى: **﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ***

فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزنا﴾[11].! وموسى الذي قال القرآن في حقه: **﴿ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً﴾** ثم تتتالى الآيات القرآنية في سورة القصص، حين يدخل المدينة على حين غفلة من أهلها، ويجد رجلين يقتتلان - هذا من شيعته وهذا من عدوه -، وينتصر للذي من شيعته على الذي من عدوه فيقتله. ثم يدرك موسى ذلك الجرم، فيعلن أن ذلك من عمل الشيطان، ويؤوب إلى ربه: **﴿قال ربي إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له﴾**[12]. ويعلن أنه لن يكون مدافعا عن المجرمين، بما أنعم الله عليه من الأيد والقدرة. وتتكرر حاله مع صاحبه.. الذي استنصره بالأمس.. يستصرخه. فيقول له موسى - إنك لغوي مبين -. وحين هم أن يبطش بالذي هو عدو لهما، قال الرجل: **﴿يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس﴾** إلى قول الحق: **﴿وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين * فخرج منها خائفا يترقب؛ قال ربي نجني من القوم الظالمين﴾**[13]. إلى أن ورد ماء مدين وسقى للامرأتين، ثم تولى إلى الظل وقال: **﴿ربي إني لما أنزلت إليّ من خير فقير﴾**. ثم ذهب مع إحداهما التي جاءته إلى أبيها ، وبعد أن قص عليه القصص، طمأنه بقوله: **﴿لا تخف نجوت من القوم الظالمين﴾**. وعمل أجيرا عنده، بين ثماني وعشر سنوات.. لقاء زواجه من إحدى الامرأتين.. وفق اتفاق . ويقول موسى كما في قول الحق: **﴿ذلك بيني وبينك**

أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ والله على ما نقول وكيل﴾[14]. أهذا منطق ولغة - كاهن - يا لويس عوض.. أوجه إليك هذا الخطاب.. أنت ومن هو على شاكلتك في القديم والحديث والغد القريب والبعيد.. وكم تمنيت أن أكتب هذه السطور ولويس عوض حي ، ليقرأ ما يفضحه ويلجمه بالحجة والبرهان. وقد لا يجدي منطق الحق.. عند الملحدين والضالين والمكذبين، لأنهم بعدوا عن طريق الحق والعدل والهدى!.. هذا هو موسى قبل أن يتلقى الرسالة من ربه، واسأل أولي الألباب، وليس منهم لويس عوض، أهذا خطاب كاهن؟ ونحن ندرك سبيل الكهنة الدجالين والمخبولين الكذابين المفترين، من السحرة والمشعوذين.! إنه منطق لويس عوض على رسل الله.. إبراهيم وموسى ومن إليهم من الأخيار.. الذين اصطفاهم ربهم. قال تعالى: **﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم، وآل عمران على العالمين * ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم﴾**[15]. ولا حاجة بنا أن نتلقى من لويس عوض، قصة موسى.. حين حل في دار فرعون ، ففي كتابنا ودستورنا القرآن.. أصدق وأوثق مما عند لويس وأساطير الأولين، التي ينقلها إلينا ويوهمنا بها أنها مصادر مسلّم بها. وهذا الهراء يقوله لغيرنا من السذج.. الذين لا يفقهون، والذين لم يكن عندهم كتابنا وحججنا وأدلتنا التي لا يأتيها الباطل من بين أيديها ولا من خلفها ، لأن كتابنا وحي من الله

لرسوله، الذي قال فيه: ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾. فليقل لويس وأضرابه من الضلال ما يشاءون، فلن يصدقهم أحد، لأنهم يقدمون باطلاً، والباطل زهوق بنص الكتاب العزيز. ونحن نقول: لا يصح إلا الصحيح، والذين يفترون الكذب لا يفلحون. ولويس عوض الذي يطعن في رسل الله ويرميهم بالأضاليل زوراً وبهتاناً، وهو قد قرأ القرآن لأنه يستشهد به ضد نفسه، عليه من الله ما يستحق، لأنه: ﴿**يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها؛ فبشره بعذاب أليم**﴾[16].

إن أعداء أمتنا المسلمة، منذ أشرق نور الهداية قبل أربعة عشر قرناً، ما يفتأون يكيدون لنا.. حسداً من عند أنفسهم لأنهم استكثروا علينا أن نكون هداة مهتدين، وحرموا الهداية، لأنهم أعرضوا عن ذكر خالقهم، ولأنهم عشوا عن ذكر الرحمن، فقيّض لهم شيطانا ليكون لهم قريناً، وإنهم ليصدون عن السبيل، ويحسبون أنهم مهتدون.

ويمضي في ضلاله البعيد، طعناً في كليم الله موسى عليه السلام، حيث ينسب إليه المزيد من الأباطيل، فيقول في ص « 13 » فلما وقع بصر بنت فرعون على الطفل رق له قلبها فأنقذته وتبنته. ونحن نقرأ في كتابنا العزيز أن امرأة فرعون هي التي دافعت عن الطفل موسى. وفي قول الله عز وجل: ﴿**وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك؛ لا تقتلوه عسى أن**

ينفعنا أو نتخذه ولدا﴾، أما الذي أنقذه بحق فهو الله، ونحن نقرأ المزيد في سورة القصص قول الحق: **﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم، ولا تخافي ولا تحزني، إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين * فالتقطه آل فرعون﴾** إلى آخر هذه الآيات البينات. في ص «14»، ينقل إلينا عوض المزيد من الفرية، عما يروى لأن أساطير صاحبه «مانيتون» الذي يقول: «إن موسى كان كاهناً مصرياً في معبد «رع» بهليوبوليس يحمل اسم أوسرسيف». وقد بينت في السطور الآنفة أن موسى عليه السلام إنسان مؤمن قبل أن تبلغه الرسالة وسقت الأدلة من الكتاب العزيز في سورة القصص. وينقل الكاتب المزيد من الأساطير.. في ص «15» عن موسى وشعب أورشليم، فيقول: «قيل إن الكاهن الذي وضع سياستهم وشرائعهم كان بالمولد من هليوبوليس، وكان اسمه - أوسرسيف - المأخوذ من اسم (Osiris) الذي كان إله هليوبوليس، ولكن عندما انتقل إلى أولئك القوم تغير اسمه وسمي موسى، بمعنى «ابن النهر» بدلاً من اسمه القديم». وموسى: كلمة فرعونية قديمة «موسيه» معناها (الطفل)، هكذا بكل وقاحة، وفي أواخر القرن العشرين، ينقل إلينا هذا المفتري، وهو يوهمنا أنه يكتب مقدمة في فقه اللغة العربية، ينقل إلينا هذه الأضاليل، وهو يعلم أن بأيدينا كتابا **﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزل من حكيم حميد﴾**. أجل:

ينقل إلينا هذه الترهات عن رسول من رسل الله.! ولعل الله أراد أن يفضحه فأوقعه في شر أعماله، لنأتي إلى عمله فننسفه نسفا بأدلة وبراهين وحجج من الحق، لا يزيغ عنها إلا هالك.. إننا مؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. ومتمسكون ومصدقون لكل ما جاء في القرآن، الوحي من السماء إلى خاتم الرسل، محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم.

ويمتد الإفك والضلال، فيما ينقل هذا المفتري عن قدوته «مانيتون»، فنجد في هامش بـ (ص 16) قوله: «ومع ذلك فكل هذا لا يتفق في التاريخ مع الرأي السائد القائل بأن خروج بني إسرائيل كان في عهد منفتاح. ولكنه يؤكد أن **موسى** كان من مواليد هليوبوليس، وأنه كان كاهناً في معبد «رع». ويتساءل: هل كان موسى مصرياً قاد ثورة دينية على حساب وطنه - أم تراه كان طفلا من بني إسرائيل نبت نباتاً مصرياً وانخرط باسمه المصري **أوسرسيف** في الكهنوت المصري، وبعد أن تعلم حكمة المصريين ارتد إلى قومه؟ على كل فإن الصورة التي يرسمها مانيتون له هي صورة زعيم سياسي يحيك المؤامرات ويلوث يده بالدماء وليست صورة نبي يريد أن يخلص قومه من سياط المصريين». هذا هو وعي أستاذ.. يكتب في أواخر القرن العشرين.. لأمة متحضرة في عصر الحضارة والمدنية، والأدلة في كل مكان، تدحض الزعم

الباطل والخلط. وقصة موسى في أصدق مصدر لا يخفي شيئاً، هو القرآن، واضحة بأدلتها. لكن أعداء الرسالات الهادية ورسل الله، ينقمون على المؤمنين.. في حين أنهم يدينون جرائم بني إسرائيل في التاريخ وإلى اليوم من فضائح بشعة وقهر وفساد في الأرض.! ولعل ما اتهم به موسى من تلويث يده بالدماء، قصته التي قدمتها آنفاً.. قبل أن يبعث، وهو انتصاره لأحد شيعته على الذي من عدوه - فوكزه موسى فقضى عليه - ثم أعلن كما يحدثنا القرآن، أن ذلك من عمل الشيطان، وطلب من ربه المغفرة فغفر له - سورة القصص.!

ومزيداً من البيان، أشير إلى آيات أخرى في سورة «غافر»، تتحدث عن موسى عليه السلام، ورجل - مؤمن - من آل «فرعون»، يكتم إيمانه، يجادل قوم فرعون في - موسى -، جدال العالم الواعي، والمدرك لعواقب الأمور، وينصحهم ألا يقاتلوا موسى، لأنه يقول: «ربي الله»، وهو قد جاء بالبينات من ربه، فإذا افترى فإنه يتحمل وحده ما اقترف، وإن كان صادقاً، فإنه ينال المنصوحين - بعض الذي يعدهم -. والله لا يهدي من هو مسرف كذاب، كما تعلن الآيات.! قال تعالى في استهلال آيات من سورة - غافر -، من الآية «23»: **﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين * إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب﴾** ويأخذ الغرور والكبرياء والبطر - فرعون -، فيقول: **﴿وقال فرعون يا هامان**

ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب * أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً، وكذلك زُيّن لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل، وما كيد فرعون إلا في تباب﴾، أي أن كيد فرعون وتدبيره ليصرف الناس عن الإيمان لما جاء به موسى - عليه السلام - يقوده إلى الخسار والهلاك. ويمضي الرجل المؤمن. ناصحاً جاداً لآل فرعون، علهم يهتدون ويستجيبون إلى النصح في حوار صريح، وتحذير من أن عاقبة الإعراض والكفر والضلال المبين.. النار وبئس المصير. وما أجمل الأمثال والعبر.. التي ساقها هذا الرجل المؤمن، لو وجدت آذاناً صاغية وقلوباً مفتحة للإيمان، غير أن من أضلهم الله.. لا جدوى من النصح لهم، فقد عموا وصموا وأعرضوا، وما أروع هذا العرض البديع، وكيف لا.. وهو كلام الخالق جل جلاله: **﴿وقال الذي آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد * يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار * من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها، ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب * يا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار * تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار * لا جرم أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار﴾** (غافر 38-43) وكانت خاتمة هذه النصائح

الغالية من الرجل المؤمن لقومه، وقد أعياه الجهد وعز الرجاء، فأعلن في بيان صادق صريح، إلى المعرضين، متضمناً التحذير، بأنهم سوف يذكرون ما أسدى من نصح وتحذير، وأنه مفوض أمره إلى ربه: **﴿فستذكرون ما أقول لكم، وأفوض أمري إلى الله، إن الله بصير بالعباد﴾** ويعلن الكتاب العزيز نتائج الصراع بين الحق والباطل، وما آل إليه حال المؤمن الناصح الأمين، وحال الضالين المكذبين المعرضين عن الحق. قال الحق: **﴿فوقاه الله سيئات ما مكروا، وحاق بآل فرعون سوء العذاب * النار يعرضون عليها غدواً وعشياً، ويوم تقوم الساعة، ادخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾**.

وأنا أعجب من هذا - الجهبذ -، حيث نراه في هامش صفحتي: «17، 18» يسوق اسم السور والآيات التي تتحدث عن «فرعون» بدءاً من سورة البقرة، ومروراً بآل عمران، والأعراف، والأنفال، ويونس، وهود، وإبراهيم، والإسراء، وطه، والمؤمنون، والشعراء، والنمل، والقصص، والعنكبوت، ص، وغافر، والزخرف، والدخان، ق، والذاريات، والقمر، والتحريم، والحاقة، والنازعات، والبروج ، والفجر. ويذكر في الصفحة نفسها هامش «2»؛ فيقول: أما بالنسبة «للعزيز» - أي عزيز مصر الذي اختار نبي الله يوسف الصديق عليه السلام وزيراً لخزانته - ويكمل قوله: فقد ورد ذكره في سورة واحدة هي «سورة يوسف» إلخ.. ومع ذلك نراه يقول في آخر ص «17»..

في غير تبيّن ولا معرفة، يقول: ويبدو أن القرآن يفرق بين «فرعون» و «العزيز». فحيث الكلام عن موسى وخروج بني إسرائيل والطغيان، فالإشارة إلى «فرعون»، وهو منفتاح ملك مصر الطيبي، وحيث الكلام عن يعقوب ويوسف ودخول بني إسرائيل، فالإشارة إلى العزيز، وهو ملك الهكسوس حاكم مصر من «أفاريس». لويس عوض، الباحث الدارس، الذي يقدم سور القرآن.. بدءاً من «البقرة» إلى «الفجر»، التي جاء فيها ذكر فرعون، وسورة واحدة، هي «سورة يوسف».. التي تحدثت عن عزيز مصر، يعلن حسبما نقلت ما كتب، وهو غير مطمئن في فهمه وإدراكه ودرسه ومعارفه.. التي يزعم فيقول: ويبدو أن القرآن يفرق بين «فرعون» و«العزيز». ونقول له كما قال الكتاب العزيز: **﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾**. هذا الكاتب قرأ القرآن كله، من أوله إلى آخره، بدليل أنه تتبع ورود ذكر - فرعون -، ووقف على ما يريد الوقوف عليه، وهو يعلم أن هذا الكتاب دستور المسلمين ودليلهم وحجتهم.! ولا يهمني أن يؤمن به أو لا يؤمن، ويصدقه، ويأخذ به أو لا يأخذ ولا يصدق، ولكنه مصدر حق باق منذ أكثر من أربعة عشر قرناً، ومع ذلك يعرض عنه، ليسوق إلينا أساطير الأولين، ليغالطنا ويوهمنا أنها مصادر.! ويبدو لي أن لويس عوض جاهل بتاريخ مصر، ذلك أن الأقباط القدماء في مصر القديمة كانوا يُطلقون على حاكمهم لقب

«فرعـون» إذا كان مـن جنسـهم ومـن أبنـاء جلدتـهم، ولـقب «العزيـز» إذا كان حـاكـمهـم مـن الغـزاة المحتـلين الأجانـب. وحاكـمهم أيام موسى عليـه السـلام كان مصريـاً قبطيـاً، ولذلك فهو «فرعون». أما حاكمهم أيام يوسف عليه السلام فهو من الغُزاة الأجانب الهكسوس، ولـذلك فـهو «العزيز».! ثم هو يعيش في بلد إسلامي.. من مصادر تشريعه القرآن، وفيه الأزهر الشريف.. الذي يدرس فيه القرآن والسنة المطهرة والتفسير والفقه الإسلامي وتاريخ الإسلام. ومع ذلك نراه، يسعى جاهداً، ليشكك في كل حقيقة - في وضح النهار -، ونحن المسلمين مطمئنون ومصدقون بقول خالقنا في دستورنا الخالد: ﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله﴾.! وصدق الله القائل: ﴿وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون﴾. مع كل هذه الأدلة والبراهين ، ينساق هذا العتل إلى الباطل الزهوق، وإن باطله لا يجد من يقبل عليه إلا الذين على شاكلته، ومع ذلك لن يبقى، ولا يتاح له نجح، لأنه فساد في الأرض، ولأن المفسدين عاقبتهم وخيمة بأدلة الكتب السماوية، وفي مقدمتها القرآن، ولأن العدوان والظلم عاقبتهما وخيمة كذلك.! وصاحبنا قرأ قصص الأولين في القرآن والتاريخ، ومنهم قارون الذي كان من قوم موسى فبغى عليهم. ماذا كانت عاقبته؟: ﴿فخسفنا به وبداره الأرض، فما كان له من فئة ينصرونه وما كان من المنتصرين﴾. لكني أردد قول الحق: ﴿فمن يهدي من

أضل الله﴾؟. وكذلك كانت حال فرعون وهامان ومن إليهم من الطغاة، الذين ضرب بهم الأمثال في الكتاب العزيز .

إن هذا الأعمى لويس عوض، قد قرأ القرآن كله.. ومع ذلك تعمى بصيرته، لينقل إلينا تلك الترهات من الأساطير المفتراة ، والتي تقول إن موسى كان كاهنا حسبما نقلت مما قدم إلينا في كتابه الضلالي.! ولو كان عند هذا المبطل ذرة من إنصاف وعدل، لقال وهو ينقل ذلك الضلال المبين، إن القرآن خاطب أم موسى، وهو ما يزال رضيعاً، في سورة القصص بقوله سبحانه: **﴿فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾**. كيف يكون رسولاً وكاهناً في الآن؟. كما قرأ لويس عوض قصة موسى كلها في سور القرآن، عبر مراحل حياته إلى أن اختاره ربه نبياً ورسولاً.!. أين العدل في النقل والحكم، وأين الحق.. لاسيما في عصر النور، في وسط الوطن الإسلامي، وفي أكبر بلد، فيه الأزهر وعلماؤه؟ وفيه كليات تدرس التاريخ القديم والحديث، وفيه الفقه وأصول الدين!؟ أكل هؤلاء جميعهم لا يعلمون، وملحد واحد يعرف، ويجرؤ على بث سمومه في العالم الإسلامي.. باسم - مقدمة لفقه اللغة العربية -، أكثرها صوتيات، لا علاقة لها بفقه اللغة، وباقيها طعن في رسل الله وتاريخ المسلمين وزعمائهم، كما صنع في كتابه هذا، حيث ساق إلينا أحاديث الزنادقة المبطلين وترهاتهم، لأنهم فرق ضالة

مضلة. كما فعل بالطعن في رمز إسلامي.. ويعتبر تلك الأباطيل أدلة وتاريخا وإدانة لرموز الإسلام والمسلمين. ومن جهل هذا الدعيّ.. **ظنه أن زمني فرعون موسى وعزيز مصر صاحب يوسف الصديق زمن واحد.. كما قدمت آنفاً**.!

ويقول لويس عوض.. في ص «20»: كذلك من حقنا أن نشتبه في أن «تل العمارنة»، بالقرب من ملّوى، اتخذت اسمها من آل عمران، أو من عمرام أبي موسى بحسب ما تقول «التوراة» التي تسمي أخت موسى أيضاً «مريم بنت عمران». ونحن نقرأ في كتابنا العزيز أن هذه الأخوة بين موسى ومريم أخوة عقيدة وليست أخوة نسب. وعلى أي توراة يستند الكاتب الغافل؟.. أعلى كتاب بني إسرائيل المحرف، الذي غيروا وبدلوا فيه، فلم يعد كتاباً سماوياً، والقرآن الكريم يثبت ذلك في بعض نصوصه، ونحن في غنى أن يزودنا هذا الكاتب المنحرف بنقلياته الاسطورية والتخمينية.! وهو كذلك يعود مجدداً.. ليقول في هذه الصفحة كذباً وبهتاناً، «بأن التاريخ وعلم الآثار يحدثانه عن: **أثر ثورة أخناتون التوحيدية في ظهور العقيدة الموسوية**» إلى أن يقول: «**وهو ما يؤيد أقوال مانيتون بأن موسى كان في الأصل كاهناً مصرياً من كهنة رع في معبد هليوبوليس**». ويمضي هذا التكرار المقيت عن نبي الله موسى، كأن الأمر راق له في نسبة الكهانة إلى موسى، لأنه يرضيه ويرضي أعداء الله ورسله، ويعود إلى تكرار أن

ابنة فرعون أخذت الطفل موسى، ويسميه عوض الطفل الإسرائيلي، ويؤكد التجني رغم أنه يعرف الحق ولكنه يحيد عنه، فيقول: وبالطبع ليس هناك تعارض بين **قصة مانتون عن الكاهن المصري أو سرسيف الذي لجأ إلى بني إسرائيل مع أتباعه ثم تسمى باسم «موسى»**! ويدخل الكاتب الضلالي في التخمينات، فيقول: **فمن الجائز** أن هذا الطفل الإسرائيلي الأصل ربي في بلاط فرعون بوصفه مصريا متمصراً **ولقن عبادات المصريين، بل وربما انخرط في سلك الكهنة وصار كاهناً من كهنة رع في معبد هليوبوليس ولكنه كان يعرف بأصله الإسرائيلي**». هذا هو فهم ووعي هذا الكاتب الضال، الذي عرف قصة موسى من القرآن ، ومع ذلك يذهب إلى الأساطير والتخمينات والأباطيل.! ذلك أن - ربما - و - في تقديري - ليس منطق كاتب يتحدث في الحقائق التاريخية . وذلك حينما يقول في ص «21»: وفي تقديري أن اسم «عمران» ومشتقاته له علاقة باسم - العمو - أو - العمرو -؟ وكذلك قوله في ص «22»: ولعل بني إسرائيل هم قبائل «العمو». ذلك أن هذا ليس أسلوب دارس: «**لعل وربما**».! حتى إنه قال في هذه التخمينات وهو يتخبط، بحثاً عن جذور نبي الله موسى عليه السلام ، وذلك في هامش ص «22»: «ويبدو أن موسى الإسرائيلي أو العموري المتمصر درس في نفس الجامعة وتأثر بنفس الفلسفة في جبل

أخناتون». وهذا الكاتب الذي يعيش في عصر الحضارة والنور، في القرن العشرين، يتكئ على - التوراة - المحرفة والمبدلة، وهي قبل ذلك كتاب سماوي من عند الله.!

في آخر ص «24» يقول لويس عوض: «وقد ذهب بعض العلماء إلى افتراض أن شبه جزيرة العرب كانت في زمن قديم موغل في القدم أكثر خصوبة مما هي ثم أصابها الجفاف فأدى ذلك إلى هجرة سكانها الأصليين إلى وديان الأنهار والسهول المحيطة بشبه الجزيرة، **ولكن موسكاني وغيره** يرفضون هذا الرأي **لأن الشواهد العلمية تؤكد أنه لم يحدث أي تغير في مناخ الجزيرة منذ فجر التاريخ المعروف**، أي الألف الثالثة أو الرابعة قبل الميلاد». وأنا أقول لعوض ومؤرخيه.. الذين لم يصلوا إلى حقائق، أن نبي الإسلام قال بما لا يدع مجالاً للشك، لأنه لا ينطق عن الهوى.. كما زكاه ربه، قال عليه السلام: «لا تقوم الساعة حتى تعود بلاد العرب مروجاً وأنهاراً». وهذا يؤكد أنها كانت قبل ذلك مروجاً وأنهاراً، وأن مؤرخي لويس عوض الذين يرفضون ذلك في الماضي.. علمهم قاصر وناقص، وقد كذبوا في رفضهم لأنهم مخمّنون، وما نقوله مؤكد وبعيد عن الافتراض. وقد كانت اليمن جنة خضراء ثم أصابها الجفاف، وقد سميت باليمن السعيد، والكاتب يشكك في ذلك ويعتبره افتراضاً.. بالنسبة إلى العصر الجليدي، حيث كانت حضارات في أطراف شبه الجزيرة، في

الألف الثالثة والألف الثانية قبل الميلاد.. كما يقول الدكتور جواد علي. ويظل لويس عوض يضلل، فيقول في ص «25»، وهو يتحدث عن الحضارات الآرية في الشرق القديم وفي أوروبا: «ولكن كل هذه الافتراضات لا معنى لها خارج الانثروبولوجيا الطبيعية والجغرافيا الجنسية ما لم تقترن بآثار الإنسان على الأرض». وهو يسميها «تشنجات بشرية تحتاج في تفسيرها إلى تشنجات بشرية وجيولوجية أو أيكولوجية». ونفي الكاتب لا يركن إلى أدلة، وهو لا يعلم، ولا يسلم بما يعلم.. لأنه لا يريد، ولندعه في تشنجاته التي اختارها مساراً له وذريعة لجاهل، يتصدى للعلم والتاريخ والبحث وهو أعزل، وكل ذلك في سبيل فقه اللغة العربية، الذي أغاظه وأحزنه وأرّقه.! وقال في «26» دون أدلة: «وقد انتهيت في أبحاثي في فقه اللغة العربية إلى أن اللغة العربية هي أحد فروع الشجرة التي خرجت منها اللغات الهندية الأوروبية».

في ص «41»، أجد نفسي أمام انتقال مفاجئ مر الكاتب، ليس بينه وبين سابقه رابط ولا فاصل عنواني.! وأسأل: كيف أصبحت اللغة العربية - الهندية الأوربية - كما ينقل المؤلف.. عربية فصيحة، نزل بها الكتاب العزيز. كيف صار هذا التحول، والمؤلف لا يقدم إلينا شيئا يستند عليه، وإنما يقفز بنا بلا مقدمة ولا أدلة، وهو خلل في الدراسة، وتصبح النماذج.. في الفصل الأول - هذا - فيما يتعلق

بالعربية واهية لا يعوّل عليها!؟ وكيف يقبل من دارس، تخصص في اللغة الإنجليزية، أن يقدم إلينا أحاديث عن جذور لغات أكثر أدلتها أوهام، ونحن معنيون فقط بعربيتنا؟ إن ما نقله عن أعلام لغتنا.. فنحن نعرفه وندركه، ولا حاجة لنا أن يدلنا عليه.! وكيف نقبل منه ما يقول.. والتاريخ يؤكد لنا أن أبا العرب إسماعيل ابن إبراهيم الخليل عليهما السلام.. قد تعلم العربية، منذ زمن عميق في التاريخ من قبيلة جرهم، التي جاورته في مكة؟

وينقل إلينا الكاتب في صفحتي «43 - 42» ما سجله الجوهري.. صاحب الصحاح - في اللغة - في ص - 328 -.. في كتابه «الألفاظ والحروف» قوله: «واللسان العربي القديم لم يؤخذ من لخم أو جذام لمجاورتهم أهل مصر والقبط، ولا من قضاعة وغسان وإياد لمجاورتهم أهل الشام، وأكثرهم يقرأون بالعبرية، ولا من تغلب واليمن لمجاورتهم اليونان، أي لشدة اتصالهم بهم، ولا من بكر لمجاورتهم النبط والفرس، ولا من عبد القيس وازدعمان في البحرين لمخالطتهم للهند والحبشة، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة، ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم، ولا من حاضرة الحجاز لأن ألسنتهم فسدت لمخالطتهم غيرهم من الأمم وهم ينقلون إليها لغة العرب بعد الفتح العربي»[17].

إن هذا المتناقض الخبيث.. الذي ينقل إلينا ما أثبته

الجوهري من نقاء عربيتنا، وأنها لم تأخذ لسانها من القبائل التي عددها، لمجاورتها واختلاطها بالأعجام لساناً، يرجع بنا القهقري في ص - 42 - ليؤكد على أسماعنا.. مرات ومرات، لا يمل التكرار غير المجدي عندنا.. مهما يحاول ويصاول، فيقول: «إن صلب اللغة العربية ذاته كان من نفس الشجرة التي تفرعت عنها المجموعة الهندية الأوروبية حتى قبل هجرة العرب من موطنهم القوقازي إلى شبه الجزيرة التي تحمل الآن اسمهم». هذا الكلام يساق بلا دليل ولا برهان، ولكنه إمعان في الكيد للعربية وأهلها.. الذين يجعلهم من القوقاز، ليربطهم بالعجمة نسلاً ولغة، وهم ولغتهم دخلاء على العرب والعربية.! وما علاقة العرب بالقوقاز، ولسانهم عربي، وجذورهم نبتت في الجزيرة العربية!. ما هذا الخلط الباطل، من كاتب يقحم نفسه في تاريخ الأجناس البشرية وسلالاتها، واللغة العربية وجذورها، ليجعلها ويجعلنا غرباء الانتماء والأصل، ودخلاء، لا أصالة لنا، وإنما هو انتماء طارئ.. وتحول تدرج عبر التاريخ.! إنه لشيء عجاب.. هذا التدليس، وهذا الوهم الذي يحاول مفتر جاهل أن يلبسنا إياه، ناصبًا نفسه فقيها في التاريخ وحضارات الأمم، وجذورها، وأصل لغاتها، كيف تكونت، وكيف انحدرت، وكيف أصبحت!؟ وهو يقرأ مقولات علماء اللغة العربية وتاريخها وما ألفوا فيها وعنها، ولكنه لا يؤمن بما يقولون ويثبتون، وإنما بما يمليه عليه عقله وقلبه.!

يمضي لويس عوض في البحث عن جذور العرب ومنحدراتها وكذلك لغتهم، التي ينسبها إلى مجموعة اللغة الهندية الأوربية.! إن هذا المبطل.. لم يرعو من الدرس الذي لقنه له المحقق الكبير محمد محمود شاكر.. في كتابه «أباطيل وأسمار»، ذلك أن في نفسه مرضاً من العرب وقرآنهم ولغتهم العربية الباقية ! زاده الله مرضاً وله عذاب عظيم، كفاء أباطيله وافتراءاته وبهتانه..!

إننا نحن العرب المسلمين، قد لا يشغل بالنا.. هذه الافتئات على لغتنا العربية وتطوراتها، ويكفينا أنها عربية، نزل بها الكتاب العزيز على قلب سيد وخاتم الرسل صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿**قرآناً عربياً غير ذي عوج**﴾. وقال سبحانه: ﴿**ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته**﴾. وهي لغة باقية إلى يوم القيامة، وكان بجانبها لغات أخرى، قد شاخت وبادت وغابت. وما رصده لويس عوض من أوهام وتقديرات.. لا يعوّل عليه ولا يؤبه له. المهم هو لغتنا الشاعرة الباقية.!، وأنا أعتقد أن بلاغتها وبيانها لا يوجد في لغة أخرى، وكذلك مفرداتها.! إنها لغة مشرقة في بيانها، لأن الله سبحانه وتعالى.. هو الذي علم الإنسان البيان، كما جاء في مطلع سورة الرحمن.

إن لويس عوض.. يحاول أن يرد العربية إلى جذور هندية أوربية، دون دليل وبلا حجة.! إن لويس عوض حسداً من عند

نفسه.. يستهين بالعربية وينقص من قدرها.! ولو كان حياً لقلت له: ولماذا اتخذتها لغة لك؟. ولماذا لم تكتب بالإنجليزية.. التي تعلمت، أو بالقبطية؟. ثم مال لويس عوض وجذور العربية؟ ما شأنه، وهي ليست لغته ولا لغة أهله؟. لعل بقاءها عبر القرون الطوال، واختفاء اللاتينية والرومانية واليونانية القديمة وغيرها من اللغات أغاظه.! ورحم الله الشيخ شاكر، فقد كفانا يومئذ بردوده على هذا المفتري، غير أنه لا يرعوى، لأنه لم يَسْتَحِ، لذلك فهو يفعل ما يشاء، كما جاء في الحديث النبوي الذي يقول: «إن مما حفظ الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تَسْتَحِ فاصنع ما شئت».! وإن كل ما قاله لويس عوض.. في ص «50» عن طبقات اللغة العربية، باطل وزور، لأنه لا دليل عليه يوثق به، ولكنه أباطيل وزور، وكذب وبهتان. وصدق الله القائل: ﴿**أما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض**﴾.

إن لويس عوض، ليظهر عواره وسوء نيته، حين يجنح إلى الاستشهادات التي لا يعوّل عليها، لأنها لم تكن في صميم العربية، مثل «رسالة الغفران» لأبي العلاء المعري.. وخيالات ليس فيها مرجعية يعتد بها.! إنها أوهام جانح وخيالات شاعر جامح ، وإنه لباطل أريد به حق، وما هو من الحق في شيء! ورسالة الغفران.. ومثلها كتاب «الجحيم» لدانتي الإيطالي. وهذا ما يروق للويس عوض وأضرابه من أعداء الإسلام والقرآن واللغة العربية.!

ويدور حديث المعري عن آدم والجنة واللغة العربية إلخ: ونقول إن جنة آدم في الدنيا، لم تكن الجنة الموعودة. والجنة تعني في العربية الحديقة وما إليها كالبستان. ونقرأ في القرآن قول الحق: **﴿ودخل جنته وهو ظالم لنفسه﴾** سورة الكهف. والله قد خلق آدم ليعمر الأرض، بدليل قوله تعالى: **﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾**.!

أكبر الظن أن لويس عوض، لو سئل: هل رسالة الغفران.. مما يعول عليه كمرجع يستشهد به، وحجة ودليل في العقيدة الإسلامية ؟ وهل هي كتاب لغة؟. إذاً كتاب دانتي – الجحيم – مثلها!؟ . إن عنوان الفصل الثاني من هذا الهراء: «اللغة ونظرية الوحوش». ودعونا نَرَ ونَرَ.. ما قدم لويس عوض فيه، والكتاب كما يقال يقرأ من عنوانه، وهو – رسالة الغفران –، وأي غفران يريد عوض وقبله صاحب الكتاب أبو العلاء المعري.!؟

إن لويس عوض يدخل بنا في متاهة التشكيك، من خلال فرق الضلال، مقارنة بأهل السنة والجماعة، ليكون الجدل والتكفير والباطل والزور والتفرقة.. من خلال الفرق الضالة! ذلك ما يريده عوض، لأنه يفرحه ويرضيه، ويسعده كثيراً.. لأنه باطل! يتلاقى مع هواه ونفسه وتوجهه ، ولأنه ضد حياة أمة مؤمنة عزيزة.! إن لويس عوض.. ينقل عمدا أقوال اليهود، الذين يسقطون اسم إسماعيل بن إبراهيم الخليل

عليهما السلام، يحاول اسقاطه من التاريخ.. من خلال مصادره العابثة المحرفة، فلا يذكر إلا اسحق. ولو كان هذا الكاتب ينشد الحق، وهو ما يفترض من أمانة، ولكن أنَّى له ولأمثاله الحاقدين الأمانة! ذلك أنه قد قرأ القرآن.. بدليل استشهاده بآيات منه، وتتبعه في كل سوره عن السور التي ذكرت.. بحثا عن اسم فرعون في عهد موسى، فلماذا لم يقل إن لخليل الله ابناً اسمه إسماعيل، قبل اسحق! والله ذكر اسم إسماعيل باسمه في قوله تعالى: **﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل﴾**. لو كان هذا الكاتب المنحاز إلى الباطل.. ذكر هذا الوجه في نقله، لقلنا إنه جنح إلى شيء من حق! لكن أنّى له ذلك.. وتوجهه في كتابه فيما يختص بالمسلمين والرسل ورموز الإسلام منحاز إلى الظالمين والجاحدين، كما رأينا في أمر نبي الله موسى عليه السلام، الذي ظل يردد اسمه في صفحات كتابه.. بأنه كاهن: **﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا﴾**. وقد ألجمناه بالحجة والبرهان من الكتاب العزيز: بأن موسى لم ينحرف عن الدين القيم وملة إبراهيم، وقد شهد له ربه في وعده لأمه، أنه سيرده إليها، وأنه جاعله من المرسلين! لويس عوض كاليهود الذين يقتلون الأنبياء بغير حق، وإن اختلف المسلك والتوجه.
ونردد قول الله تعالى: **﴿ومن أظلم ممن أضلّ الله﴾**.! ذلك هو الكاتب الظالم لنفسه ولغيره لويس عوض.!

ويعلن لويس عوض في ص « 53 »، أن «المعري لم يأت بجديد، وإنما كان ينحاز بوضوح إلى رأي المعتزلة والفلاسفة في تلك المناظرة الكبرى التي شطرت الفكر الإسلامي نحو ثلاثة قرون». ! وينغمس عوض في التوحيد والعدل وخلق القرآن، وأن الإنسان مخيَّر لا مسيرَّ - وإلا لامتنع العدل - كما يقول. ولست بسائر في هذه الأمور، التي فرغ منها أهل السنة والجماعة وعلماء المسلمين الملتزمين بنصوص الشريعة السمحة.! وتتبع مقولات الشانئين والمنحرفين، فيقول في ص « 54 ». وبالطبع كان هذا يتضمن أن الإسلام الصحيح فيه طبقات غير طبقات الإيمان والتقوى والعمل الصالح، وهذه هي طبقات العرق العربي واللغة العربية وهو ما لم ينص عليه صراحة في التاريخ الإسلامي خشية الفتنة ولمخالفته صراحة لجوهر الدين.! ساق هذه السطور.. وهو يتحدث عن الحكومة الدينية ، وعن العرب والمستعربين.!

وإني لأعجب والعجب لا ينتهي، ما علاقة الملل والنحل والفرق الضالة، وقضية كتاب يبحث في مقدمة فقه اللغة العربية، ما علاقة هذا بذلك؟. إن المنهجية التي قد يدركها لويس عوض، لأنه أستاذ جامعي تلزم الباحث التزام منحى البحث العلمي، دون الخروج عنه إلى مناح متعددة، لا علاقة لها ولا تربطها بأصول البحث رابط.! فلماذا حاد الأستاذ الجامعي لويس عوض عن منهج البحث السوي، ليدخل في

سبل شتى وتيارات فلسفية، وقضايا حدثت في التاريخ الإسلامي، والخلافة في الإسلام والبيعة، ومعركة صفين، وإسقاط الإمام، والخليفة الحاكم، وأصحاب الكبائر وما أسماه - الاغتيال الديني -، والخوارج والشيعة إلخ..!!؟

ما دخل كل هذا في كتاب قال صاحبه وسماه بأنه «مقدمة في فقه اللغة العربية»، إلا إذا كان صاحبه.. يبحث عن الفتن ليثيرها وهي نائمة، فنقول له: لعن الله موقظها.! ثم لماذا لا يبحث لويس عوض عن النصارى قومه، ولغتهم وثوراتهم واقتتالهم ومذاهبهم الدينية وتحريفهم للإنجيل ليصبح متعدد النسخ، كل نسخة تختلف عن الأخرى، وكنائسهم ومعتقداتهم وشركهم، بحيث يجعلون لله ولداً ويجعلون له أنداداً!! ولماذا لا يبحث في شؤون اليهود وتحريفهم للتوراة، وقتلهم الأنبياء وكفرهم وجرائمهم عبر التاريخ؟ أم أن كل هذا لا يعنيه من قريب ولا من بعيد؟ لينكشف غرضه ومرضه، في محاربة الإسلام وقيمه ورموزه ومعطياته وعدله!؟

إن جرائم اليهود عبر التاريخ لـيندى منها الجبين الإنساني، ومع ذلك فهم يتشدقون ويكذبون ويزورون بأنهم أبناء الله.. وأحباؤه، ويرد عليهم القرآن: ﴿**فلم يعذبكم**﴾. وجرائم المسيحية عبر التاريخ وبشاعة ما يمارسون، ليؤدي إلى النكر، وليس بعمل بشري. وما تزال الجرائم تنتهك ضد البشرية إلى اليوم على الكرة الأرضية، من القتل الجماعي،

وطحن الإنسان وإذلاله وتمزيقه وإهانة إنسانيته، فلا حقوق له، ولا نصيب له في أدنى مستوى من الحياة، ومع ذلك يتشدق الكبار في متاجرة رخيصة باسم حقوق الإنسان، ثم لا يجد الضعفاء نصيرا عند الأقوياء، الذين يتاجرون بالقيم وما يسمى عندهم حقوق، وهو حق أريد به باطل، في عصر النور والحضارة. ولو فتشنا في الدين الإسلامي لوجدنا فيه كل القيم والخير والعدل والحقوق.! فلماذا لويس عوض يبحث عن التيارات المنحرفة والضلال ليلصقه بالإسلام، ويترك محاكم التفتيش في أوروبا في العصور المظلمة والإجرام البشع والانغماس في الفساد والجور والظلم والتخلف والاستعباد والذل، حتى لم يصبح للإنسانية شيء من قيمة، مع أن كتابنا العزيز يعلن منذ أربعة عشر قرناً.. وإلى قيام الساعة: ﴿**ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات**﴾. فلماذا لم يلتفت لويس عوض إلى ذلك التاريخ القاتم المظلم المشين لليهود والمسيحية، في أيامها الخوالي الزاخرة بالمفاسد والتخلف والحقارة، وكانت الحيوانات أحسن حالا وأكثر قيمة من إنسانهم المجهول الذي كان أقل قيمة من الحيوان الأعجم، لأنه كان أعمى في كل شيء، وكان المسلمون سادة الدنيا، وأهل علم وثقافة وفقه وتاريخ مشرق وحضارة وقيم وإنسانية، اكتسبوا كل ذلك من دينهم، الذي رفع قدرهم، وأخرجهم من الظلمات إلى النور.! وتناسى قومه والشعوب الأخرى غير المسلمة، التي لم يكن لها ذكر ولا قيمة، غير أن

المكر السيء لا يحيق إلا بأهله.. كما يقول الكتاب العزيز، وقد عرى لويس عوض نفسه كفاء موقفه المنحرف من المسلمين والعروبة وتاريخها ولغتها ودستورها، ولقد لقي ما جنى، لأنه ظالم لنفسه.!

ومضى هذا في الفتيا والحكم، كأنه معني بذلك، فيقول ما لم يقله دستور الإسلام ولا نبيه! إنه الدس والتشكيك والطعن في فهم المسلم وثقافته الإسلامية.! ونسأل في حيرة.. ما لهذا القبطي ودين المسلمين ومعتقداتهم؟. ما شأنه في ذلك؟ وماذا يريد من الإسلام وأتباعه، وهو قد ألف كتابه.. الذي أسماه كذباً وزوراً «مقدمة في فقه اللغة العربية»، وذلك لكي يدخل من خلال هذا التمويه.. إلى بث السم.. الذي يريد إيصاله إلى كل من يطلع على هذه الصفحات السود.!

قال في ص «54» عليه من الله ما يستحق: «فالإسلام دين لا يكتمل لمعتنقه إلا إذا استوعب كتابه، وهو القرآن». ثم يقول في الصفحة نفسها: «إن الإسلام الصحيح فيه طبقات غير طبقات الإيمان والتقوى والعمل الصالح، وهذه هي طبقات العرق العربي واللغة العربية وهو ما لم ينص عليه صراحة في التاريخ الإسلامي خشية الفتنة ولمخالفته صراحة لجوهر الدين بل ولنصه، ولكنه متضمن في تكون الدولة الإسلامية (أو على الأصح حتى نهاية عصر الأمويين لأن المأمون كان يرى رأي المعتزلة بسبب اختلاط أعراقه).!

إنها فتنة ودس ما جاء في الشطر الأول! ونسأل من قال؟ وفي أي مصدر معتقد إسلامي قيل.. إن الإسلام - لا يكتمل لمعتقده إلا إذا استوعب هذا المعتقدُ القرآن؟ من قال بذلك!؟. إن رجلاً جاء إلى نبي الإسلام ليدله على الالتزام الإسلامي، فقال له عليه الصلاة والسلام كلمات معدودة: **﴿قل آمنت بالله ثم استقم﴾**. هذا هو الإسلام كله: - إيمان بالله واستقامة - على منهجه.. ولم يقل له.. إن إسلامك وإيمانك لا يكتملان إلا إذا حفظت القرآن وسنتي.! فمن أين جاء لويس عوض بهذا التشريع الجديد الذي ينسبه إلى الإسلام؟. إنه يريد أن يشكك المؤمنين في عقيدتهم، وأنها ناقصة ما لم يستوعبوا دستوره - القرآن.! بعد أربعة عشر قرناً، ليدس سمومه، ونحن لا نستغرب، ذلك أنها الحرب الممتدة، من ظهور الإسلام إلى قيام الساعة، ولكنا نظل نردد قول الحق: **﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله﴾**، مطمئنين إلى حكم الله هذا ، ليدرأ عنا وعن عقيدتنا هذا الحقد الدفين في نفوس أعداء الإسلام الكارهين له ولأهله - حسدا من عند أنفسهم -. ونقول لهم: «قل موتوا بغيظكم».!

أما الجانب الآخر من ترهات وأباطيل لويس عوض، هو فيما يتعلق بأن - الإسلام الصحيح فيه طبقات -، وهذا في الكنيسة والمسيحية المزورة المشركة، ولكنه ليس في الإسلام.! الإسلام أيها الجهول ليس فيه طبقات، لأنه لا يعارض.. في أن

يتولى الحكم على المسلمين عبد حبشي. يجب طاعته، وهذا توجيه نبي الإسلام.! ورسول الله عليه الصلاة والسلام قال: «سلمان منا آل البيت» وسلمان أصله فارسي.! والخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «أبوبكر سيدنا أعتق بلالاً سيدنا».! ففي عصر الرشيد كان البرامكة سادة وحاكمين، وقد تغلغل الفرس في الإسلام. بينما يقول.. إنه إلى نهاية عهد الأمويين - لم يدخل الحكم غير العرق العربي.! إنه يكذب على الواقع والتاريخ، ظناً منه أننا لا نقرأ ولا نستوعب دسه وخبثه وأمراضه.! الإسلام ليس «كنسياً»، وليس عنصرياً ولا إقليمياً. الإسلام عقيدة وعمل. والله يقول في كتابه العزيز: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾. ولم يقل أغناكم، ولا ذو السلالة العرقية العالية القرشية وما إليها.! ليس هذا في الإسلام.! إن ما يقوله لويس عوض مخرقة لويسية، ولها مثيلات في التاريخ الحديث والقديم.. من أعداء الإسلام والمسلمين، وقد صنع - جرجي زيدان - في رواياته الماجنة، بما فيها من دس وتشويه وإساءة إلى الحرائر.. مثل «العباسة» أخت الرشيد، وغير ذلك كثير عبر التاريخ الطويل. إنها بلبلة وفتن كقطع الليل المظلم، لعن الله موقظها.! ثم ما شأن كتاب يختص كما سماه صاحبه بمقدمة في فقه اللغة العربية!. ما الهدف من ذلك وما المطمح.. سوى بث السموم والفتن؟.! نعم إن عنوان الكتاب وسيلة وتمويه، ليمرر منه

يريد أن يبثه من حقده الدفين على الإسلام والمسلمين، ونكرر قول الله: «قل موتوا بغيظكم».! ما دخل الخوارج والشيعة باللغة وموضوعها؟ أهو الفضول؟ إن الفضول لأهون شرا وأسى وبلية، ولكنها النقمة وعمى الحسد.! ومال عوض و-صفّين - وما وقع فيها؟. وقد سجلها التاريخ، وتجاوز المسلمون هذه الفتنة وأيامها وآلامها وأوضارها وأساها.!؟.. إن هذا، يدخل أنفه في كل شيء ولا يستحي ولا يرعوي، ولم يكفه الدرس الذي لقّنه له الشيخ شاكر رحمه الله في كتابه «أباطيل وأسمار». وها هو في كتابه الذي بين يدي، والذي مر على صدوره عقدان، يخوض فيما لا شأن له فيه، ولو كان شجاعاً وبطلاً، لخاض في محاكم التفتيش في العصور المظلمة لأوروبا وسلطات الكنيسة يومئذ، وكم فيها من مخاز وفضائح يندى لها الجبين البشري. والإسلام وأهلوه يغضبون ويثأرون وينتقمون، إذا مس دينهم وأهين، والأحداث المعاصرة شاهد على انتفاضة المسلمين للانتقام من أعدائهم وأعداء دينهم، وذاكرة القارئ لم تنس بعد ما كان لفرج فودة، وكاتب أفكار شيطانية وأضرابهما. وهذا هو الدرس الذي ينبغي أن يلقن للمعتدين، ليتعظ غيرهم.. ولا يجرؤ على المساس بالإسلام وانتهاك حرماته وقيمه ورموزه وأحكامه. فالذي يعتدي على ديننا يلقنه الغُيرُ من المسلمين درساً.. فيه عبرة، فـ:

إننا نقرأ هراء، فيما يقدمه لويس عوض في دسه، من خلال كتابه. فيجدد الفتن.. التي عفى عليها الزمن، مثل التصدع السياسي القديم بين المسلمين والصراع بين ما أسماه بـ - القوميات المحلية -، عن الخلافة في العراق والشام، وصراع الفرق، وهو تصدع وصراع، يحدث عند غيرهم من الأمم في مختلف الأزمنة والأمكنة، ولويس عوض وجدها فرصة.. ليخوض فيها . وأقرأ نمطا عجيبا، يسوقه هذا الحاقد الذليل، مما سماه: «حكم الله» أو - حكم الإسلام -، أو - حكم القرآن والسنة -.! إنه عبث رخيص.. لا يستحق الوقوف عليه.! وما أكثر ما يحشو في أباطيله في ص «56 - 57»، وهو ينقل عن أمثاله من الملوثين ذوى الفتن والدس، مثل - **فلها وزن** -، في - تحليل التكوين القبلي للخوارج -، ويضيف اسماً جديداً، هو «برنوف»، فيقول: «وإنما يكون برنوف على صواب لو أنه إنما أراد أن يقول إن الخوارج لم يكونوا من قريش ولا من ثقيف ولا من الأنصار، بل من قبائل أقل أهمية من حيث المكانة السياسية في الإسلام خصوصا بعد حرب الردة» وهذا من كتاب عنوانه: الخوارج والشيعة، تأليف «يوليوس فلها وزن»، ترجمة عبدالرحمن بدوي. وإني أصرف النظر عن هذه الترهات، التي عنى بها هذا الضلالي، لتجديد التشويش

والدس، وقد فرغ منها المسلمون، وأسدلوا عليها ستاراً كثيفاً. لأنا في غنى عن إثارة الفتن، التي يحركها أعداء الإسلام، ليثيروا النعرات، كما فعل عوض في كتابه هذا، وهو يتحدث عن - الشعوبية - وحركاتها.!

ونرى المزيد من التناقض فيما يسوق هذا الأثيم، فمرة يتحدث عن سيادة الجنس العربي، ومرة يقدم **دعوة الشيعة، وأنها كدعوة الخوارج**، «دعوة شعوبية من الناحية الاجتماعية». والشعوبية تكره العروبة وتناصبها العداء. والشيعة كما يعلن عوض عن صاحبه - فلها وزن، «فيتمكن الشيعة أولا في العراق ولم يكونوا في الأصل فرقة دينية، بل تعبيراً عن الرأي السياسي في هذا الإقليم كله». وأنا أطوي هذه الصفحات لأنه لا خير فيها، وإنما هي إثارة فتن، أرادها لويس عوض وأشياعه، لأنهم يفرحون بها، والإسلام قد حدد مسار أشياعه وتوجههم وهو ما عليه أهل السنة والجماعة، وما عداهم من الفرق الضالة.. لا شأن له بها، لأن الإسلام لا تمثل القوميات عنده شيئاً، فهي نعرات جاهلية، يقولون أنها دعوة وحدة، ولكنها أريد بها باطل، ذلك أنها لا تستند إلى الدين القيم.! ونترك أساطير أبي العلاء المعري في كتابه: «رسالة الغفران»، التي يتكئ عليها لويس عوض، كمصدر من مصادر حجاجه الباطل، والمعري جامعٌ جانحٌ لا يؤبه لقوله، ذلك أنه في رسالته تلك سخر من القول أن آدم عليه السلام..

«كان يتكلم العربية في الجنة»، والعربية لغة أهل الجنة رغم أنف المعري ومن يشايعه الرأي والسخرية.!

ويخوض لويس عوض مع الخائضين، في الدخيل من الألفاظ الأعجمية على اللغة العربية، ويعرض علينا المؤلفات ومؤلفيها، مثل «التذليل والتكميل» للبشبيشي، المتوفي سنة 1417م – 820هـ، وكتاب «المزهر في علوم اللغة وأنواعها»، للسيوطي، المتوفي سنة «1404م» (911هـ)، وكتاب: «شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل»، لأحمد بن محمد بن عمر الخفاجي «1571 - 1669م» 979 - 1070هـ، و«فقه اللغة» للثعالبي، و«المخصص» لابن سيده، و«الخصائص» لابن جنى، وأبحاث في فقه اللغة العربية، بدءاً من «الاشتقاق» للأصمعي، و«سنن العرب في كلامها».. لأحمد بن فارس القزويني إلخ: أما القرآن فقد سلم من دخيل غير عربي، فالحق سبحانه يقول فيه: ﴿**إنا أنزلناه قرآناً عربياً**﴾ (سورة فصلت). لذلك قال أبو عبيدة عن - دخيل الألفاظ في القرآن: «من زعم أن فيه غير العربية فقد أعظم القول»[18]. وذكر السيوطي عن الإمام ابن النقيب في تفسيره: «من خصائص القرآن عن سائر كتب الله المنزلة أنها بلغة القوم الذين أنزلت عليهم لم ينزل فيها شيء بلغة غيرهم، والقرآن احتوى على جميع لغات العرب»..!

وحول رأي «عبيد القاسم بن سلام».. الذي استعرض

آراء الفقهاء في وقوع المعرب وامتناعه عن اللغة العربية، ثم علق بقوله: والصواب عندي مذهب فيه تصديق القولين جميعاً. أي وجود الألفاظ المعربة في لغة القرآن، وليس ذلك غضا من إعجازه وإنما مزية يمتاز بها على سائر الكتب المقدسة. وذلك أن هذه الأحرف أصولها أعجمية. كما قال الفقهاء، ولكنها وقعت للعرب فعرفتها بألسنتها وحولتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها.. فصارت عربية. ثم نزل القرآن وقد اختلطت الحروف بكلام العرب. وهذا في مجمله هو رأي أبي منصور الجواليقي.. صاحب كتاب «المعرب». ورفض فريق من فقهاء اللغة اعتبار أمثال هذه الألفاظ معربة، بل إنهم ردوها إلى مواد عربية الأصل. فالجوهري في - الصحاح - يدرج كلمة - استبرق - إلى كلمة - برق -، وفي الأزهري أنها من خماس القاف، وأن هذه صورة خاصة للألفاظ، وقع فيها وفاق بين العجمية والعربية[19].

وفي «الجمهرة» لابن دريد أن «سرادق» وهي فارسية الأصل ، كلمة عربية صحيحة، استخدمها الأعشى في شعره، ومنها - سردق البيت -، أي كان له سرادق. وكلمة «فردوس» عربية، وردت في القرآن، واشتقاقها: «والفردسة السعة، صدر مفردس: واسع كما يقول ابن دريد»[20]. ويقول ابن فارس في «الصاحبي» إن «لغة العرب أفضل اللغات وأوسعها». كما يؤكد ابن فارس في كتابه نفسه قوله: «إن لغة العرب توقيف،

ودليل ذلك قول الله تعالى جل ثناؤه: ﴿**وعلم آدم الأسماء كلها**﴾. وكان ابن عباس رضي الله عنه يقول: «علمه الأسماء كلها، وهي هذه التي يتعارفها الناس من دابة وأرض وسهل وجبل وجماد وأشباه ذلك من الأمم وغيرها». والمقصود بالتوقيف - الوحي أو الإلهام. ولعل ابن فارس وحده.. الذي خرج عن اتفاق فقهاء اللغة العربية، الذي يرى أن أصل اللغة: «**تواضع واصطلاح**». وليس وحياً وتوقيفاً، ولكنه عاد فقال: «إلا أن أبا علي عليه رحمة الله قال لي يوما: هي من عند الله»، واحتج بقوله سبحانه: ﴿**وعلم آدم الأسماء كلها**﴾. والمؤكد أن أئمة العربية يجمعون على أن اللغة إلهام وتوقيف.

ويدخل بنا لويس عوض في متيهة جديدة في ص «68»، عن الفرق: المعتزلة والخوارج والرافضة وآرائهم.. في مرتكب الكبيرة، فيقول بعضهم لا هو مؤمن ولا هو كافر، وإنما هو في منزلة بين المنزلتين، غير أن الخوارج يعتبرونه كافراً، و- المرجئة - يعتبرونه «مؤمناً»، والحسن البصري يعتبره «منافقاً». وأنا والقارئ لا يعنينا هذا الأمر، لأنه خارج موضوع الكتاب أصلاً، غير أن هذا الرجل المختلق والعابث والفوضوي، يسلك بنا سبلاً، لا توجه عندي لمتابعتها، وإذا أردت فهي في مظانّها. ولكن لويس عوض، هكذا يريد أن يعبث، ويجوب بنا أفلاكاً، لا علاقة لها بفقه اللغة العربية، ولا بجذور اللغات الأخرى وإيقاعاتها. وإنما هو يدس ويسوّق

ما يخطر على عقله المريض ونفسه المريضة، ليضلل القارئ، ويقول: هذا هو تاريخ الأمة وفرقها ونزاعاتها واهتماماتها، من خلال صراعاتها عبر لغتها وفكرها، ليشوش ويوهم، لأنه لا يستطيع أن يترك هذا التوجه والفساد والعبث المكشوف.! هكذا أراد لنفسه ومسلكه، وهي حالة مرضية، اسمها عداوة الإسلام وزعمائه ولغته وتاريخه. كما صنع ويصنع لذاته وأساتذته.

ونترك سوح لويس عوض.. وما أسماه تزويراً وبُهتاناً بالفكر الإسلامي، وغوصه في الملل والنحل، والفكر الشعوبي وتأثره باليونانيات، وتأثر واصل بن عطاء بدعوة - غيلان - الدمشقي.. الذي كان أصله - **قبطياً**، والذي يسميه ابن قتيبة **غيلان القبطي، وإلى أثر الفكر اليهودي في فكر المعتزلة**، وغلواء متطرّفي الشيعة في تأليه علي ابن أبي طالب رضي الله عنه. وعبيد بن الأعصم اليهودي، وهو من ألد أعداء الرسول صلى الله عليه وسلم.. كما يقول ابن الأثير، وإيمان المعتزلة بالعقل، حتى قالوا: «إن الإنسان قادر بعقله أن يميز بين الخير والشر، **وأن يضع شرائعه حتى ولو لم يرسل الله الأنبياء**، وإنما الرسالات والشرع الديني ألطاف من عند الله، ولو آمن العبد للألطاف - أي بلا رسالة - كان ثوابه أجزل لكثرة مشقته. أو هكذا كان يقول الشهرستاني في الملل والنحل». أما أهل السنة، فقد كانوا على نقيض ذلك، فهم

يقولون: «إنه لو لم يرد الشرع لما كان يجب على العباد معرفة الله وشكر نعمته، ولا حكم للعقل في حسن الأشياء وقبحها». وشطحات المعتزلة في ذلك واسعة ومفرطة في الافتراضات.. التي لا يقبلها شرع الله، وهم أي المعتزلة أهل فكرة «العدل» و- التوحيد -، وذلك سفسطة وجدل عقيم، يخرج من الملة، لأن محاضرات أصحاب تلك الملل والنحل بعيدة عن معتقد أهل السنة والجماعة وعن هدي الله. وفي الرسالات، أن الله لم يترك خلقه هملا، فقال سبحانه في محكم كتابه: ﴿**وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا**﴾. لأن هؤلاء الخلق إذا لم يأتهم من يهديهم، فسيقولون يوم الحساب لربهم ﴿**لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك**﴾. يحتجون على الله، أما حين تأتيهم الدعوة ثم لا يؤمنون، فهم المسؤولون وحدهم، لأنهم أعرضوا عن سبيل الهدى.! وعجباً من قول المعتزلة، «إن العرب كانت قادرة، على معارضة القرآن ولكن الله صرفهم عن فعل ذلك. ومنهم قوم قالوا إن العلة في إعجاز القرآن - الصرفة -، أي صرف الهمم عن المعارضة».! إنها لحجج واهية في الجدل، والله قد تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله، ثم قال بسورة، وهو قد نزل بلغتهم، وهم أمة أصحاب - بيان -، ولكنه العجز، لأن القرآن - معجز -، فأصحاب الأهلية في البلاغة لم يثبتوا للتحدي.. وهم أصحاب خطابة وبلاغة. وخير لنا أن ندع مقولات الملاحدة جانباً، لأنها لا خير فيها.! وما كان لي أن

أدخل في حجاج هذا العبث، لأن فقهاء المسلمين، أهل السنة والجماعة.. قد فرغوا من هذه القضايا.. منذ انداحت على الساحة من الفرق الضالة، وأغلقوا في وجوههم الأبواب بالأدلة القاطعة.. من الكتاب والسنة.! أما أن تظل الفتن تثار ويتجدد الحديث عنها.. من أعداء الإسلام ومن غير المؤمنين به، فإنها الحرب المتصلة من أعدائه، ونحن نردد: صليبية إلى الأبد!. رد الله كيدهم في نحورهم، لأنهم أصحاب سوء، عليهم دائرة السوء، وغضب الله عليهم ولعنهم، وأعد لهم سعيراً. والسبيل القويم الإعراض عن الملاحدة ومنهم الشعوبيون أصحاب الأغراض والأمراض والتشكيك.!

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يتلو القرآن، وفي آياته وصفه - أي القرآن - بقول الله: ﴿**بلسان عربي مبين**﴾. فلو كان فيه ألفاظ غير عربية لاحتج عليه بذكرها، وفي صمتهم أو عدولهم دليل على فساد رأيهم. وقد نجد كلمات تتفق في اللغتين الفارسية والعربية، «فليس كونها فارسية تمانع من كونها عربية»، ذلك «أن انتماء الكلمة لأكثر من لغة أمر وارد. وليس يغض من أصالة كلمة في لغة من اللغات انتماؤها إلى لغة أخرى.. أو لغات أخرى». وهناك مبدأ يقول إن «الكلمة قد يجوز أن تتفق في اللغتين، فليس كونها فارسية يمانع من كونها عربية».

ويمضي لويس عوض في نعرة من نعرات الجاهلية، ولكنها عنده، عصبية ضد الإسلام والمسلمين لغتهم وعقيدتهم، كراهية مطلقة، فهو في ص «79» يتحدث عن «العرقية اللغوية»، - أو - العنصرية «اللغوية». فيقول إنه «مناهض لقوانين تطور الأحياء ورقيها. بل إن رفض العرب في الدولة العربية امتصاص الأعاجم أو تسويتهم بالعرب في حق المواطنة هو الذي أجج روح الشعوبية وألب أبناء الأمصار على العرب فمزقوا دولتهم تمزيقاً». ويريد منا أن نأخذ بنظرية المعتزلة في اللغة فلوتم ذلك حسب زعمهم «لما دخلت اللغة العربية في هذا المأزق الذي شطرها إلى لغتين، لغة الكتابة المقدسة ولغة الكلام الدارجة، ولتغيرت حال معاجمنا بل ولجرت قوانين الصيرورة على النحو العربي والصرف العربي بما يقارب اللغة الفصحى من اللغة العامية».

ولويس عوض.. الذي يحاول إيهامنا بأنه يغار على اللغة العربية، وهي في غنى عن غيرته، لأنها من قبيل الحق الذي أريد به باطل.! هذا المضلل.. ربما لا يفهم أن الإسلام محا الفوارق بين مسلم ومسلم، وليس فيه التفرقة التي ذكر. وقد سقت الدليل آنفا عن «سلمان وبلال».. رضي الله عنهما. ولويس يريد أن يجدد الدعوة لإفساد اللغة العربية ، لتكتب من الشمال إلى اليمين كما صنع أتاتورك - مصطفى كمال في تركيا ، ومحا اللغة العربية. ولويس عوض لا ينسى تلك الحركة

في مصر، الداعية إلى ذلك الاتجاه للقضاء على العربية، ولكن هيهات!!

وعن أي عنصرية لغوية.. يتحدث لويس عوض، فلغة الضاد مشاعة، لكل من يريد أن يتعلمها ويتكلم بها ويكتب، لا أحد يعارض في ذلك، ولم يحدث ذلك عبر التاريخ الإسلامي العربي. ومن الذي فرق في المواطنة ورسولنا يقول: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه إلخ». أما إذا لم يكن المواطن على الملة الإسلامية ، فهو في كنف الإسلام مأمون الحق والكرامة، له ما على مواطنه المسلم من الحقوق والواجبات. ولويس يجهل أو يتجاهل، أن الفاروق عمر.. حين زار دمشق، وجد يهوديا يتكفف الناس - فقيراً، فبكى وقال مقولته الباقية: «أكلناك شاباً وأضعناك شيخاً»، أي كنا نأخذ منك الجزية وأنت قادر.! وأمر أن يعطى مرتبا شهريا من بيت مال المسلمين ، كان ذلك من تقدير الإسلام وحقوق الإنسان منذ أربعة عشر قرناً.!

وما المقصود من امتصاص الأعاجم؟ الذين دخلوا في الإسلام؟ لقد أصبحوا اخوتنا في العقيدة، وتعلموا العربية، ودخلوا في الحكم في عهد هارون الرشيد، فصدق بعضُهم وأخلص وخَدَم، وأخذ بعضهم من المنحرفين وذوي الأغراض ينخرون في جسد الدولة الإسلامية ويفسدون، ولو أتيح لهم،

لغيروا العربية.! والإسلام سوى بين أتباعه في كل شيء، وقضى على النعرة والدعوى الجاهلية، فأي مساواة يريد عوض!؟. وهل العنصرية اللغوية، أن نتنازل عن لغتنا، ونتكلم الأعجمية أم ماذا!؟

إن دعاة العامية أمثال لويس عوض وأضرابه، ونبذ العربية، هو التمزيق الذي كان مطلوباً من أعدائنا أن يتسرب إلى عروبتنا، ولكنها دعوات فاشلة مفسدة، فماتت في مهدها، لأنها مبدأ تخريبي وتقويضي، ودعوة في القرن العشرين.. امتداداً لدعوات سابقة، تنحو المنحى نفسه، لمحاربة العربية ونبذها، وأن يتحدث بلغة الشارع ويكتب بها، كما كانت تصنع مجلة «البعكوكة» المصرية قبل نصف قرن. إنها افتراءات يقحمها لويس عوض مجدداً، لاتهام العربية، لأنها لم تتسيب، ولم تصبح عامية، لا جذور لها ولا أصول.! ذلك هو مطمح أعداء الإسلام ولغة القرآن، وهدف يرمون من ورائه إلى تقويض الفصحى، لتموت كما مات غيرها من لغات كانت حية ومنتشرة.! أي فساد هذا الذي يدعو إليه لويس عوض، زاعماً أننا في غفلة، وينسب إلينا التعصب والتفرقة العنصرية والتخلف، وأن لغتنا تخلفت بفعلنا، فنحن حجرنا على السلالات البشرية أن يتعلموها كما يزعم. وهو يرى، إن الذين درسوا الإسلام وهداهم الله إليه، من العلماء والمثقفين، تعلموا

العربية، رجالا ونساء، في أمريكا والمملكة المتحدة وسائر أوروبا، وأخذوا يتحدثون بها ويكتبون، ولم يحدث أن قال لهم العرب المسلمون - كما يزعم لويس عوض -، ابتعدوا عن لغتنا، فأنتم لستم من أهلها.! إنها لغة مشاعة لكل من يريد أن يتعلمها ويتكلم بها، لا أن يحاربها ويريد لها الدمار كحال لويس عوض - وأضرابه من أعدائها -، إنه الحقد الدفين والحسد، وهو ما يدفعه وغيره.. إلى أن يتقولوا بتقوقع العربية! ماذا يريدون لها وماذا يريد منها؟ إنه وإنهم يريدون أن تبلى وتموت، ليفرح ويفرحوا. وتشيع العامية، ولا تفهم الأجيال القادمة المسلمة كتابها وسنة رسولها وتاريخها وتراثها الإسلامي، لتصبح أمة أمية، لا تفقه شيئاً، ولا دين لها.! لأن لويس عوض يريد لها ذلك ويتمناه، وإلا فإنها لغة حبسها أهلها في قمقم حتى لا يفهمها أحد، ولا يصل إلى أغوارها أحد. وعليه فإن البديل، هو اللهجة الدارجة، مخاطبة وتعاملا وكتابة وقراءة.. ومسلكاً. وكفانا من العربية وفصاحتها وبلاغتها ونحوها وصرفها وبيانها. لينتهي تاريخها وعهدها، فقد طالا أكثر من اللازم. ونبارك العامية، وندعو للويس عوض بطول البقاء، ونكيل له الشكر، وربما غيرنا مارس ذلك، ونحن ربما ظللنا صامتين، ولكن الله الذي حفظ كلامه بهذه اللغة، حفظها من عبث العابثين، وكيد الكائدين والكارهين لها، رغم أنهم يكتبون بها، ولعلهم

كارهون، ولذلك جدّوا ويجدون نحو بديل يطمس اللغة والتراث وما يتصل بها من قرآن وأحاديث وفقه وأصول، لتنتهي أمة طال بها الزمن، ولتأتي أمة أخرى، بلا لغة، وبلا دين ولا عقيدة ولا إيمان. لتنتهي كما انتهت أمم وشعوب! أي فساد أكبر من ذلك؟ ومن هذا التمني والرغبة والدس والكيد والتخريب.!؟ ألا إنهم هم المفسدون، لأنهم يريدون ذلك الفساد ،عليهم دائرة السوء.! وهل المعتزلة.. لولا هذه اللغة البليغة، وغيرها من فرق الجدل والحجاج، لولا هذه اللغة وبيانها، كانت لهم تلك الصولات والمحاضرات وقوة المنطق والمعاني؟ ولو أنهم اتبعوا رأي عوض، وما يعلن من قول واتهام بأن العرب فرقوا بين الأعاجم وبين العنصر العربي، هل استطاعوا أن يبرزوا في العربية، وهل حال العرب بين سيبويه وغيرهم من الأعاجم المسلمين ممن خدموا العربية وأحاديث الرسول والتفسير، وبعضهم من الفرق المنشقة، وبين تعلّم العربية واشتغالهم بعلومها؟ هل العرب رفضوا ودفنوا جهودهم وحاربوهم، أم تقبلوا من أعمالهم في العربية وأحاديث الرسول ما يوافق مقاصد الشريعة، وحسبوا لهم ذلك، وتحفظوا على تفسير الكتاب العزيز والخروج عن مقاصد كلام الله، من الانحرافات والشطحات، التي تسئ وتسوء! **﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا﴾**.!

ويخوض لويس عوض مع الخائضين في مسألة «إعجاز

القرآن» والطاعنين في ذلك، والدخول في المنطق الصوري الارسطاطاليسي، والمنطق الجدلي الأفلاطوني، ويسوق إلينا آراء الأعجام والفرق.. التي تطلق لألسنتها العنان لتقول ما تشاء، عبر آراء لا يقبلها الإسلام ولا يسلم بها، لأنها بعيدة عن روح القرآن ومنهج أهل السنة والجماعة، ويزعم الأعاجم والأشاعرة والمعتزلة من أهل الملل والنحل ما يسمونه حججا عندهم، وإنه لخوض ضلالي، لأنهم يدخلون في غيبيات ومفاهيم ما أنزل الله بها من سلطان.! ولويس عوض سعيد بهذا الخوض.. الذي كثر فيه الحديث والجدل، لأنه يريد هذا التشكيك الذي تجنح إليه الباطنية في قضية إعجاز القرآن. وليس لمثلي الحق في أن يثير هذا الموضوع، الذي فرغ منه علماء المسلمين أهل السنة والجماعة، وقالوا فيه الرأي الحاسم، حتى لا يبقى هذا الأمر مفتوح الأبواب للعابثين والمأولين، تقودهم أهواء مرضى، وكتاب الله أجل وأسمى من أن يكون لعبا ولهوا، وصدق الله القائل في كتابه العزيز: **﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا﴾**. إذن هو معصوم من التأويل، والله يقول: **﴿وما يعلم تأويله إلا الله، والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا﴾**.! وفي هذا الكتاب العزيز يقول الحق سبحانه وتعالى: **﴿وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المرسلين بلسان عربي مبين﴾**.

وتحدى الرسول عليه الصلاة والسلام العرب الفصحاء والبلغاء بما برعوا فيه، تحداهم بالقرآن - لما يختص به من المزية، فيما جرت به عاداتهم وسبلهم بالتحدي في الكلام.. ولكنهم عجزوا، فلم يثبتوا للتحدي. ولإعجاز القرآن، لأنه كلام الله، ويكفي ذلك دلالة وحجة، أما خصائصه البيانية والبلاغية، فالعرب تحسن أطرافا منها، لذلك فهم لم يؤمنوا، حين دعاهم الرسول واجتمعوا إليه في جبل الصفا، وقال لهم: «قولوا لا إله إلا الله» فلم يقولوها، لأنهم عرفوا متطلبات ذلك، وقال أقربهم للرسول: «تباً لك ألذلك جمعتنا»؟ فأنزل الله قوله: **﴿تبت يدا أبي لهب﴾**! والقرآن معجز كذلك في مبناه وفي معناه. وقالوا: إن سلامة القرآن على أدلة العقول أحد وجوه إعجازه، وأنه في أعلى مراتب الفصاحة، وقالوا إن من إعجازه.. أن عجزت العرب عن الإتيان بمثله، وقد تحادهم في فصاحتهم، وهي من خصالهم الشهيرة، التي تقتضي التحدي. ويقول المشككون من فرق أصحاب الكلام والتأويل مثل المعتزلة: «والله هو الذي أودع فيه هذه القدرة وحجبها عن غيره، وهذه آيته». وقالوا: «إنما كان التحدي بأن الله خص النبي بفعل شيء حجبه عن سواه، وهذا معنى الإعجاز». وكما يقول الجاحظ، إنه كان للعرب فضل على الأمم كلها في الخطابة والبلاغة. وهو بذلك يرد على الشعوبية - ويقضي عليهم بالشقوة وبالتهالك في العصبية ويسفه أحلامهم

ويجهلهم -! وحتى الكلام الذي يقوله ممن ليسوا من أهل السنة والجماعة، فيما يتعلق بإعجاز القرآن، مثل الجاحظ وأضرابه من المعتزلة، يعقب الكاتب المغرض لويس عوض على ذلك، فيقول: «وهذا إحساس صادق ولكنه لا يمثل القضية كلها» ص «75».

ونتابع كلامه في ص «89 - 90»، وهو ينقل ويؤول بعض كلام.. عبدالجبار المعتزلي: «والرد عنده أن كلام الله لا يكون - مفيداً - للناس إلا إذا بلغهم باللغة التي تواضع عليها الناس وجرت - على وجه مخصوص - باتفاق الناس على الصلة بين الألفاظ ودلالتها. ولا يستثنى من ذلك اللغة العربية التي نزل بها القرآن»! وهذا المجادل قد قرأ قول الحق: ﴿**وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه**﴾ وقوله: ﴿**إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون**﴾. وحتى أعجمي اللسان، من الذين هداهم الله، حين قرأوا معاني القرآن المنقولة إلى لغتهم، وأجالوا عقولهم المبصرة، آمنوا بالإسلام، لأنه يخاطب أولي الأبصار والألباب والنهى! إذاً ما يقوله لويس عوض من تشكيك، وكأنه وقف نفسه فيما يكتب عن الكتاب العزيز والإسلام ورموزه، لهذه الغاية، ظناً منه أنه سينال أربه ووطره، فدحره الحق. ووجد لويس عوض ما يوائم هواه من كلام الفرق الضالة، التي تدعي زوراً وباطلاً أن القرآن محدث، وأنه مخلوق، إلى غير ذلك من البهتان والترهات.!

ويجدد هذا الكاتب، وجود غير اللغة العربية في القرآن، مع أنه وقف على أقوال الصادقين من الأمة المسلمة، وقرأ الآيات التي تؤكد أنه قرآن عربي! فالإمام الشافعي يقول: «والقرآن يدل على أن ليس من كتاب الله شيء إلا بلسان العرب». ولكن هذا المجادل لا يقنع بهذا القول، لأنه يستند إلى أقوال عبدالجبار المعتزلي ومن على شاكلته. ولا يقبل لويس عوض قول الإمام الشافعي: بأن: «لسان العرب أوسع الألسنة مذهبا وأكثرها ألفاظاً». وعوض يستشهد بشيء من التاريخ الذي يوائم مزاجه بما فيه من تشكيك في العربية وأهلها. والمحقق الكبير محمد شاكر.. يقول: «والعرب أمة من أقدم الأمم، ولغتها من أقدم اللغات وجوداً، كانت قبل إبراهيم وإسماعيل، وقبل الكلدانية والعبرية والسريانية وغيرها، بله الفارسية، وقد ذهب منها الشيء الكثير بذهاب مدنيتهم الأولى قبل التاريخ. فلعل الألفاظ القرآنية التي يظن أن أصلها من لسان العرب، لا يعرف مصدر اشتقاقها ولعلها من بعض ما فقد أصله وبقي الحرف وحده[21].

إن هذه الآراء، لأنها ليست آرية، فهي عند لويس عوض عرقية الدم، وعرقية اللغة، حتى قال: «وينسب إلى العرب ولغتهم عراقة ليست لهم ولها بين الحضارات القديمة». إلى أن قال: «وأياً كان الأمر فإن هذا الموقف ينطوي على إحساس عميق بنجاسة كل ما هو غير عربي **جنساً ولغة**، وهو المقابل السامي للآرية الأوربية، ص 95».

والفصل الثالث من كتاب لويس عوض، وعنوانه: «أدوات البحث الفيلوجي»، هو أشبه بالعبث، لأنه دوران واستعراضات.. لا تقود إلى شيء من صميم البحث، ولكنه دوران للتضليل، وصفحاته «29»، من: 97 - 125». فهي عن الآرية الهندية، واللغة والقومية، وعصور الهجرات.. التي بدأت في نهاية العصر الجليدي، والجنس القوقازي ، والفاشية العمياء، وترادف بين الجنس واللغة، وأن أصل العرب (مثلاً)، أنهم أقوام قوقازية تتكلم لغات سامية. ويسبح لويس عوض.. في نظريات كما أسماها، ثم يقول ويعقب: «هذه النظرية قد تكون أولا تكون صحيحة، إلى أن يقول : فالاتجاه السائد اليوم بين علماء اللغة، هو الفصل التام بين توزيع الأجناس وتوزيع اللغات بأن كلا منها يتبع قوانين مختلفة إلخ ، ص 110 - 111».

ويجنح عوض إلى التوراة المحرفة والمبدلة ليستشهد بها ، وهو يتحدث عن السامية والساميين، مثل العرب ولغتهم، والحامية نسبة إلى حام بن نوح. ويسوق ألفاظا عامية مصرية مثل: «حاكتب» أو «راح أكتب»، فيقول: وهي لا صلة لها بكلمة «راح»، «يروح» العربية بمعنى - ذهب -. وقالوا «هاكتب»، بدلاً من «حاكتب». ولذلك سميت هذا الفصل عبثا ومثله كثير، مما ساق هذا العابث المبطل.

ويمضي يضرب الأمثال في هذا السرحان، فيقول: فعندما

نقول للأوربي قل: محمد، ويحاول يائساً فلا يخرج منه إلا صوت آخر هو إما «مخمد» أو - مهمد - ونقول له، وكأنه لا يدرك أن «لغة الضاد» لا يتقنها ولا يحسنها إلا أهلوها، أما أعجميو اللسان فتشق عليهم، لأن العربية ليست لغتهم.! ونجد الأمثال عن لهجات عامية متوارثة، وليست ألسنة فصيحة، يسوقها عوض.. ليزحم بها صفحات كتابه، ويعرض ما فيها من اختلافات في النطق، بين - الجيم والقاف، مثل - جال - بمعنى: قال، والذين يبدلون الهمزة قافاً إلخ.

ويتحدث عن سبل وطرق دفن مسلم، فيمارس أهله طقوساً مصرية قديمة، ونقول إن ذلك جهل منهم.! ثم يقول، واستمرار بعض شعائر الدفن المصرية القديمة، متجاوزاً مصر المسيحية ثم مصر الإسلامية - في محافظة أسيوط -، نقلاً عن عبدالعزيز عبدالله، المحرر بجريدة الجمهورية. ويقول عوض: «إن سكان هذه المنطقة، رغم انتمائهم إلى الدين الإسلامي، ورغم تحدثهم بالعربية أو بلهجة من لهجاتها، ينتمون من بعض الوجوه إلى الحضارة الفرعونية». ثم يقول في الصفحة نفسها.. «123»: «ومعروف أن الشعائر الجنائزية عند الشعب المصري اليوم، مسلميه ومسيحييه على السواء، لاتزال تحافظ على كثير من الطقوس والمعتقدات الفرعونية المجافية للمعتقدات الإسلامية أو المسيحية».! ولاشك أن البعد عن الدين والجهل به يؤدي إلى ذلك الانحراف بالنسبة إلى

المسلمين. غير أن المسلم الواعي المدرك، لا يمارس تلك الإنحرافات التي تحيد به عن العقيدة السمحة والسنة المطهرة. والجهل بلاء مبين.!

إن **«الفصل الرابع»**، من كتاب لويس عوض، يبدأ من ص «127»، وعنوانه: «فقه اللغة المقارن». ورب سائل يقول: ما شأننا نحن بالمقارنة؟ وما الداعي إلى ذلك؟. وما هو الهدف والغاية؟ ولمصلحة من كل ذلك!؟. ونجيب.. إنه التسلط على اللغة العربية، ليقول لويس عوض ومن على شاكلته.. إنها من أصل هندي أوربي، كما يردد، رغم أنه ساق بعض أقوال المنصفين.. أنها عربية لحما ودما.! إذن ما شأننا وهذا، وعنوان الكتاب: مقدمة في فقه اللغة العربية؟ إنه الحشو والثرثرة والعبث الدراسي، ومضيعة الوقت، للتضليل.! ذلك أن الكاتب مدفوع إلى ذلك التشويش على لغتنا العربية، عليه من الله ما يستحق! ونحن ماذا يعنينا - ولز -، اسكوتنلندا - في الحديث عن العربية؟. ولماذا لا يكون البحث في أمر العربية وحدها، من خلال فقهها، إذا كان الكاتب جادا وصادقا فيما يقول؟

ويحاول أن يفسر الأمور بغير أهدافها ومؤداها وحقائقها! فيقول في ص «130»: ومن هنا جاء الكلام عن النبي محمد أنه **«النبي الأمي» ومعناه الحقيقي، ليس النبي**

الجاهل بالقراءة والكتابة ، كما في المعنى المتوارث المتبادل، وإنما النبي الأمـي - أي - النبي الذي ليس - من بني إسرائيل - لأنه من سبط هاجر المصرية وابنها إسماعيل، وليس من سبط سارة وابنها اسحق والد يعقوب - إسرائيل - مؤسس الشعب المختار، ويستشهد بقول الله في رسولنا: ﴿**هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته**﴾ - سورة الجمعة -. ويقول: «بمعنى بعث في غير بني إسرائيل **وليس بعث في الجهال**». وهي مقولة مكذوبة ليست جديدة، فقد سبق إلى إشاعتها نفر من أصحاب الفرق والمذاهب الضالة، وكل ما يفعله لويس عوض أنه نقل هذه الفرية عمن سبقه من أعداء الإسلام.! ويمضي لويس عوض يستشهد بآيات من الكتاب العزيز، فيقول: «ويلاحظ أنه كلما ورد ذكر «الأميين» أو «النبي الأمي» في القرآن، إنما ورد في سياق الحديث عن أهل الكتاب من باب التمييز والمقابلة كما يدل السياق». وساق لويس عوض في «131»، الآيات من سورة الأعراف: ﴿**فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي**﴾. وفي سورة آل عمران: ﴿**وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين ءأسلتم**﴾. وفي سورة الأعراف: ﴿**فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله**﴾ وكذلك: ﴿**الذين يتبعون الرسول النبي الأمي**﴾ الأعراف: ﴿**ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل**﴾ - الأعراف.

إنه الخلط والجهل المركب، والذي قرأ القرآن يفترض أنه قرأ غيره من الأدلة الصحيحة، التي تثبت أمية محمد وهي فيه كمال، وفي غيره نقص، وذلك وقت نزول القرآن عليه في غار حراء، وجبريل عليه السلام يضمه ويقول له اقرأ، فيرد الرسول ما أنا بقارئ، ثلاث مرات، ثم يقول له رسول السماء:
﴿إقرأ بسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق﴾.

إن رسولنا عربي، من أرومة عربية. والأمة العربية، بعد أن أعزها الله بالإسلام ودخلت فيه أفواجاً، وتحققت لها الفتوحات العظيمة، شرقاً إلى الصين، وغرباً إلى جبال البرانس، بحيث أصبحت إمبراطورية، حتى أن هارون الرشيد وهو يفاخر بسعة ملكه، كان يقول إذا رأى سحابة ممطرة تعبر سماء عاصمته دون أن تمطر، خاطبها بقوله: «أمطري حيث شئت فسوف يأتيني خراجك».

إذاً الرسول الكريم رجل أمي بعث في أمة أمية، بدليل أن المسلمين بعد نصرهم في غزوة «بدر»، كلفوا بعض الأسرى الذين يجيدون القراءة والكتابة.. أن يعلم كل واحد منهم عشرة من صبيان المدينة الكتابة والقراءة، لقاء فداء نفسه! ولويس عوض إما إنه رجل جاهل بتاريخ المسلمين ورسولهم، لذلك فهو يتخبط في تفسير معنى الأمية، ويزعم أن رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم: «ليس النبي الجاهل بالقراءة والكتابة» ص «130». وإما أنه عارف بهذا التاريخ لكنه يصرّ على

التزوير والكذب والدسّ من منطلق عدائه البيّن الصريح للإسلام والعرب والمسلمين.!

ويقول هذا الجاهل.. في ص «131»، «وكان العرب يقسمون العالم إلى عربي وعجمي، والعجم أو الأعاجم هم - الأجانب - أو من ليسوا عربا بصفة عامة». وهذا غباء. إذ لا يوجد في الإسلام معنى أجنبي بالنسبة للأمة التي تجمعها عقيدة واحدة، لقوله تعالى ﴿**إنما المؤمنون أخوة**». والعجمة المقصودة، هي عجمة اللسان، أي اللسان غير العربي.!

ويقول هذا الرجل - النحرير - في «131»: «وحين قال النحاة: «العلمية والعجمة» تمنع من الصرف، إنما قصدوا إلى أن أسماء الأعلام الأجنبية تمنع من الصرف، ولم يقصدوا الأعلام الفارسية بالذات». إنه لجهل فاضح، هذا الجهل بالنحو عند دكتور يدرس اللغات وتواريخ نشأتها! ولو كان حياً لسألناه: هل أسماء: عمر، وحمزة، وعثمان، وفاطمة، هل هي أجنبية لأنها ممنوعة من الصرف؟ ومن قال لهذا الجاهل إن **الأجانب** هم من ليسوا عربا بصفة عامة؟. إن هذا التخريج ضرب من «الهرف» كما يقال.!

وهو يهوّم، حين يقول في ص «147»: «وما فعلت في هذا الكتاب إلا أن فتحت باب الاجتهاد الفيلولوجي، ولذا سميت كتابي «مقدمة» في فقه اللغة العربية، عسى أن يأتي بعدي من يقيم أركان هذا العلم الخطير».

ونقول.. إنها مقدمة فاشلة ضائعة، لأنها لا تهدف إلا إلى النيل من اللغة العربية وأهلها. ولكن الله أظهر عجز المحاولة وصاحبها، لأن المكر السيء لا يحيق إلا بأهله.. كما جاء في الكتاب العزيز. ذلك أن هذا الكتاب العريض.. الذي تجاوزت صفحاته الستمائة، ليس فيه فيما يختص بالعربية إلا أوهام وترهات وافتراضات.. لا يعوّل عليها، لأنها لا تستند إلى علم، ولا إلى من يوثق برأيهم، فهي أقاويل مفتعلة باطلة، مردودة على أصحابها وناقلها وقائلها، فليس فيها شيء جازم، ذو مراجع يعتدّ بها. وما قاله في ص «147»، بما أشرت إليه، هو عبث في أمر محسوم مؤكد، ليس في أمر مجهول بادئ ودخيل!! ونقول: ما شأنك أنت بلغة أنت لست من أهلها المختصين، وإنما اختصاصك في اللغة الإنجليزية!؟ إنه العبث والدخول فيما لا يحسن المرء.. ولا يعلم، ولا يدرك، والشاعر العربي يقول له ولأمثاله المتطفلين:

إذا لم تستطع شيئاً فدعه ... وجاوزه إلى ما تستطيع

والفصل «الخامس»، ص «144»، يبحث في «الفونطيقا المقارنة والمورفولوجيا المقارنة». يقول لويس عوض.. في بداية هذا الفصل: «فلنحاول الآن أن نحصر المبادئ الفونطيقية التي بني عليها بعض علماء اللغة نظريتهم في **احتمال وحدة الأصل بين المجموعة الهندية الأوربية والمجموعة السامية الحامية من**

اللغات». ويبدأ في هذا الفصل بما أسماه - قانون تبادل السنيات -. ولا حاجة لي أن أشغل القارئ بتلك الحروف العربية المتقطعة، ويقابلها الحروف الأخرى، اللاتينية وغيرها، وسبل نطقها، ونسبها إلى لغات مختلفة، مثل: اليونانية، الفرنسية، والألمانية، والعربة، والقوطية والعربية إلخ. ثم الرجوع إلى القواميس في إظهار معانيها. وكذلك موضوع تلاقح اللغات، وأنها تأخذ من بعضها بعضاً، ومعاني كلمات في أكثر من لغة - فمثلا يقدم الكاتب من اللاتينية كلمة «مدو» ثم يقول: وهو أصل كلمة «صوت»، - صل -، ومنها «صلصل»، - صليل -، وهذه المقارنات، لا حاجة لي ولا للقارئ العربي الوقوف عندها ومتابعتها، ذلك أنها تختص بعلماء اللغة المتخصصين. ويشرح الكاتب في متابعة جذور الكلمات، ونراه يقول: وفي المجموعة الهندية الأوربية جذر افتراضي هو «ديوب»، والجذر الجرماني الافتراضي هو «دوباز». فما دخلنا نحن وما دخل لغتنا العربية في ذلك؟. ويقول في ص «159» وذلك في باب **الافتراضات والاحتمالات**. والدراسة العلمية المقننة.. لا تعتمد على التخمين والأقاويل غير المؤكدة، فمنطق العلم ضد هذه الافتراضات التي لا يعوّل عليها! يقول عوض: **والاحتمال الأخير يصح فقط إذا أمكن ربط صيغة «نطفة» العربية بصيغة «ندوة»** في العامية المصرية بمعنى «ندى». إنه تخمين

وتخريف فارغ، لأنه ناتج عن فراغ.! وإلا ما علاقة «نطفة» بـ - «ندوة» من «ندى»؟ ويقول في آخر هذه الكلمات - التي لا يجمعها معنى ولا مبنى: ويكون المعنى «ندى المساء» بهذا يمكن تغيير «ندى» و - ندوة - المصرية و «نطفة». ونقول إنه فهم «طمطماني». وتخريف.. بعيد عن الفهم العلمي، ولكنه عبث عابث.. لا يؤبه له.!

ويصادفني في هذا الفصل تخريجات كثيرة.. مبنية على التخمين والقياس والافتراضات في - الصوتيات -. ومن هذه التخمينات التي لا أساس لها قوله: **واجتهاد كوني يجب أن يؤخذ مأخذ الجد**، ففي الاصطلاح العربي «كال» - المديح -، يظن أن «كال» من «الكيل»، وهو مستبعد، وأقرب منه إلى المنطق أن تكون «كال» هنا تعني «اسمع»:. فالعلماء لا يقولون في غير المؤكد والمختلف فيه كلمة - **يجب** -، ويؤخذ مأخذ الجد.! ولويس عوض بعيد عن العربية وأهلها وجاهل بها. ونحن نقول في الأمثال الدارجة: «كيللو المديح»، أي كال له. والمكيال في الحبوب وما إليها.. أداة كميات لا تخضع حبوبها للعد، أي معنى المثل مدحه بلا حساب.! وما قاله لويس عوض، وهو افتراض وتخريج خاطئ.. شيء مستبعد، وخطأ وجهل بمدلولات المعاني في العربية. فالكيل أصح، لأنه صب بكميات كثيرة.! واللغة ليست افتراضا ، وإنما هي سماعية وقياسية.! أما أن معنى «كال» تعني - اسمع -،

فإنه فهم ليس فيه شيء من العلمية أو المنطق الذي يتذرع به كاتب.. ليس من أهل العربية، ولا يربطه بها رابط من قريب أو بعيد.! فالعربية الشاعرة.. معان، و- مجاز -، وهذا شيء لا يدركه لويس عوض غير العربي، وهو أكثر من غيره.. أعدى أعداء ما جهل. وقد يكون الجهل - نعمة، بالقياس إلى لويس عوض.. ومن سلك نهجه.! وصدق المتنبي في قوله:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

فالذي يحكم بما لا يعلم جاهل، وقد مر بنا أنه يعارض القول أن رسول الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم «أمي». أي غير متعلم، فلا يقرأ ولا يكتب، وسقت الأدلة، يوم نزل عليه الوحي، وكان الوحي ثقيلا.! قال تعالى: ﴿**إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلا**﴾. فأي منطق الذي يقوله لويس عوض ويحاول أن يوهمنا بما يؤديه عقله المريض، ليخطئنا فيما نفهم وندرك ونعي من لغتنا، لغة - الضاد -. وإنه لآخر زمان أن يعلمنا لويس عوض - غير العربي - لغتنا بمنطقه هو المجافي للحق، وذلك في عصر النور والمعارف الواسعة.! إنه عمى البصيرة والضلال البعيد.!

ويأخذ لويس عوض في افتراضاته وتخميناته، وليس ذلك دأب العلماء والدارسين الألباء.! فهو يفترض ويقترح، كأنه يريد أن يأتينا بمعان ومبان للعربية جديدة لا نفقهها . ولو

كان ذلك صحيحاً وسليماً لقبلنا ما نقتنع به! أما أن يكون تشويهاً وعبثاً واستهتاراً بلغتنا، لغة القرآن الكريم، فإنا نرفض ما يقول، ونرد عليه .. تسفيها لأقواله وأحلامه.! يقول في ص «148»: إن «مصراع الباب» **وجذرها الافتراضي** - سكيرى - أو «كيرى»، بكلمة - شرح - العربية بمعنى «فتح الباب على مصراعيه» أو - فتح -، وهو يقدم جذر «كرح» الأساسي أصلا لهذه الكلمة. ومن هذا الجذر في **رأيي يمكن** أن تخرج مادة «صرع» أساس كلمة «مصراع» العربية (قارن «شراعة» الباب في العامية المصرية) وربما كان المعنى الأصلي للتعبير «شرح الصدر» هو «فتح الصدر».

بداية، نحن نرفض ألفاظاً: في رأيي، وربما. وأن معاني للكلمات التي ساقها هذا الدخيل على لغتنا، ليعلمنا إياها بطريقة مغلوطة، ينبغي له أن يجلس في قاعات دروس العربية ليتقن ما جهل، قبل أن ينصب نفسه معلما في ما جهل ويجهل، لأنه بعمله هذا يصنع نفسه أضحوكة للناس، بعبثه وجهله ما لا يحسن، ولكنه زج بنفسه، ليحاول إفساد لغة أمة، وجدت عبر قرون طوال من يغار عليها، ويقنن معاني ألفاظها، وينشئ المعاجم، حتى تحمى عبر القرون.. من أي متطفل وعابث، محاولاً الكيد لهذه اللغة الغالية على أهلها، وإنهم ليحمونها ويذودون عنها.. كما يحمون ويذودون عن أغلى ما يحبون ويملكون ويغارون عليه.!

إن - كلمات - صرع -، - مصراع - في عربيتنا المجيدة لها معانيها المحددة. ولا دخل لنا بالعامية المصرية.. التي يحاول لويس عوض اقحامها فيما يقول ، ليميع المعاني السامية العربية الفصحى الواضحة وضوح الشمس.. في رابعة النهار. ونحن ولغتنا في غنى عن آرائه الفجة المريضة. ونرفض في تعليلاته بـ: ربما!. وصدق الله القائل: **﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه، فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله، أولئك في ضلال مبين﴾**. والمعاني مختلفة.. وأن أفضى بعضها إلى بعض، فلكل معنى مؤداه وهدفه وسياقه، وهذا سر من أسرار العربية.. أنَّى للويس عوض أن يفقهه!؟

ونراه يجري وراء - كوني - وأضرابه، وهم أجهل الناس بمعاني العربية وبلاغتها وبيانها ، فيقول في الصفحة نفسها: وكوني يربط مادة «شرح» العربية بمعنى «قطع»، ومنها «شريحة» و- شرح - «تشريحاً» لصيغة التكثير بالجذر الهندي الأوربي الافتراضي «كيري» بمعنى «يكسر» أو «يحطم». وأتساءل: أي عاقل أو من يحمل ذرة من عقل يقنع ويقبل معنى لـ «شرح»، بمعنى - قطع -، - كسر -!؟ ومال الأعجام: مثل - كوني -، لويس عوض وغيرهم ولغتنا المشرقة، يخضعونها لأمزجتهم المريضة المنحرفة، وينسبونها زوراً وبهتاناً إلى الهندية الأوربية. وهدفهم تشويهها ، بنسبتها

إلى لغات لا تنتمي إليها، ولا صلة بينهما! إنه الكيد لها، ولكن كيدهم في نحورهم.! ويمضي في عبثه هذا، فيقدم كلمة «الشرود»، ويقول: «نتيجة الخوف أو الإرهاب». وفي عربيتنا معانيها أوسع، غير ما ذكر و-يفترض - هذا الدعي.! فعندنا من معانيها: شرود الذهن، والهرب.. أي نوع منه، وليس بالضرورة أن يكون إرهابا وخوفا. ونحن نقول في أحاديثنا: شرود الدابة، أي هربها.. حين يتاح لها الانطلاق من القيد.! إن معاني هذا الدخيل الأفاك ضيقة، لأنه ضيق العطن.. لا يفقه كثيراً مما يقول ويسوق إلينا، مما ينقله من آراء أعجام مثله، بعيدين عن العربية، فلا يفقهون أعماقها ولا معانيها وغزارة مادتها الواسعة.! فالعلم.. هو ما يؤكده الدليل والبرهان والتجربة، ولكنه عند عوض: رأي وتخمينات، لا تؤيدها أدلة، وذلك مبلغه من المعرفة.. ومن يتكئ على آرائهم، وهو مبلغهم من العلم ويرد عليه وعلى أمثاله قول الحق: ﴿**إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى**﴾.! إن اللغة عند لويس عوض - احتمالات -، وهي ليست كذلك. ويطول الوقوف.. لو أردت تتبع كل ما ساقه هذا المتجني على اللغة العربية، ولا أريد أن أضيع وقتي ووقت القارئ، وأكتفي.. بما اقتطف مما وقفت عليه فأفنده وأبين فساده وفسولة قائله. وإني أجد أمامي في ص «213» نمطاً.. من ذلك الهراء، فكلمة - ماء - العربية، يحاول لويس عوض

إخضاعها لمعان وافتراضات بعيدة عنها.. معنى ومبنى، فيقول: حتى «ماء» العربية و- مية - العامية المصرية **يمكن** ردهما إلى م + لاج - ماج - ماء. وهذا الافتراض المريض بعيد يعد المشرقين، وهو كلام فارغ، يوهمنا به هذا الأفاك الأثيم.

وفي آخر ص «221» نقرأ قوله بلا دليل قاطع: «كذلك يرى اللغويون أن «فر» و«نفر» في العربية من نفس جزر «فاران» في الجرمانية العالية القديمة وفي السكسونية القديمة وفي الانجلوسكسونية بمعنى «ارتحل» أو «رحل» وأنا أشاركهم هذا الرأي. وإنما أرى أن البحث عن جذر «فر» العربية يجب أن يكون في البحث عن جذر «فرير» الفرنسية، كلاهما بمعنى «نفر» **وربما** كانت «هر» في «هرب» العربية من نفس الجذر».

ونحن نقول.. إن المعاني تختلف بين: - فر - و نفر -، ذلك أن لغتنا معانيها دقيقة جداً، لأنها لغة شاعرة. ومعنى - نفر - غير معنى - ارتحل - في لغتنا . ذلك أنها تعنى: خرج.. والاسراع إلى أمر. قال تعالى: **﴿انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا في سبيل الله﴾**. وقوله: **﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم﴾**. أما ارتحال.. فيعني: سار ومضى. وقد جاء في المعجم الوسيط «رحل» عن المكان - رحلا - و - رحيلا - و - ترحالا -

ورحلة، ص «346» المجلد الأول. وأعجب من قول هذا الباحث - يجب - في أمر غير مقطوع به. ونحن نقول - لا -، لأن هذه الآراء مغلوطة ومنحرفة هي وأهلوها، لاسيما وأنهم ليسوا من أبناء العربية، ولا من بناتها - الذين يحتج بآرائهم.. فيسمع لهم حين يقولون، وأن أحكامهم صحيحة، وليسوا أعداء لهذه اللغة وأهلها وتراثهم. أما ما عداهم، فلابد من تمحيص ما يقولون، ولا تؤخذ أقوالهم قضية مسلّماً بها، ونحن ولله الحمد لسنا غافلين، عن دس وترويج الغادرين والكائدين، وإنما الغُيُر على اللغة العربية.. لهم بالمرصاد، ليردوا إليهم كيدهم في نحورهم، ونحن نعوذ بالله من شرورهم، والله ناصرنا على أعدائنا وأعداء لغتنا التي هي موئل اعتزازنا وحبنا وهوانا.

في ص «226»، يقول الكاتب النحرير: «وهناك مثلاً مادة «سرب»، ومنها «تسرب» في العربية. وهذه جذرها جذر «سرى» و«زحف»، وهو جذر «ثعبان» في وقت واحد». ونحن نعترض على هذا التعريف، ونقول: كيف، ومن قال بذلك إلا الغافلون الجاهلون أمثال لويس عوض، الذي يحاول أن يعبث بالعلم وأهله، في عصر النور.! وفي العربية: «سرب» الماء - سربا: سال، فهو سرب، «أسرب» الماء: أساله. و «السَّرَبُ» المسلك في خفية. وفي التنزيل. ﴿**فأخذ سبيله في البحر سربا**﴾. وحفير تحت الأرض لا منفذ له. و«السرب» الفريق من

الطير والحيوان. وفي الكتاب العزيز: ﴿**ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار**﴾. و «السرى» السير ليلاً. ولذلك تقول العرب في أمثالها: «عند الصباح يحمد القوم السُّرى». والزحف.. يختلف معناه، فيقال: زحف الصبي - زحفا: انسحب على معدته قبل أن يمشي، وهو كل ماش على بطنه. وزحف العسكر على العدو: مشوا إليهم في ثقل لكثرتهم. وزحف البعير وغيره.. إلخ.

ونجد المزيد من خلط هذا الكاتب، ولعله يظن أنه يحسن صنعا؛ لكننا لا نحسن الظن به وبأمثاله من أعداء العربية وأهلها.! قال تعالى: ﴿**الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا**﴾.!

ويقول هذا الجهول في ص «228»: وفعل «شتل: في العربية والعامية المصرية بمعنى «زرع»، «**فربما من جذر تعرفه المجموعة الهندية الأوربية**». وأسأل: هل في العلم شيء يقال له ربما؟ وأعني الباحثين والدارسين! ولكن عند الجاهلين: نعم. ليؤكد عوض أن الهندية الأوربية أصل اللغة التي عناها. و«الشتلة» النبتة. وزرع - فعل - يعني ممارسة الزرع.! وفي المعاجم العربية: - الشتلة -.. النبتة الصغيرة، تنقل من منبتها إلى مغرسها. والكلمة محدثة، وليس معناها - زرع -، كما يقول هذا العالم اللغوي الملفّق لويس عوض.. في

هذا «التخبيص».. الذي ملأ به كتابه : مقدمة في فقه اللغة العربية .! وفعل «شتل».. يعني: الزرع - شتلا: نبت البذر في مكان ليغرسه في مكان آخر.!

وما أكثر ما يتوقع من هذا الدعي، فنراه في ص «230» يقول: وأساس «سلام» و«سلم» العربية، و«شالوم» العبرية بمعنى «سلام» أو - أمن -. ولا نجد عند هذا الدعي أي دليل على هذه الاشتقاقات المتلاقية بين اللغات التي يسوق، من عبرية وفرنسية ولاتينية وألمانية، ونبحث عن دليل فلا نظفر به عند هذا الناقل والقائل. وعربيتنا التي في قرآننا لم تشتق من اللاتينية ولا من غيرها. وسلام - تحية أهل الجنة. ولغتنا مجردة من العجمة.. إلا عند لويس عوض وأعوانه! وافتراضاته التي لا تنتهي، نجدها منبثة في صفحات كتابه. والعلم ليس افتراضا، ولا يكون كذلك.. إلا عند هذا الكاتب في القرن العشرين.!

في ص «239»، يتحدث لويس عوض عن معنى - قرة - العربية، ويذهب مذاهب شتى في تفسيرها، فيقول إن معناها في العربية «عين» أو «إنسان العين» وقولهم «قرة عيني» معناه «عين عيني» أو «إنسان عيني»، وعلى الأصح «حبة عيني». إنه يذهب، بنا بعيداً في شطحه وتخريجه. وفي العربية - قرّ عينه - معناها = سُرّ ورضي، فهو قرير العين.

وفي التنزيل .. حكاية عن أم موسى عليه السلام: ﴿كي تقر عينها ولا تحزن﴾. فمن أين أتى لويس عوض بتلك المعاني؟. أمن اللغة الهندية الأوربية أم من القبطية!؟. ويقول في الصفحة نفسها: فإذا تذكرنا أن النيل في اعتقاد قدماء المصريين كان ينبع من الجنة، أو من جنة الخلد، إلخ. فمن أين لقدماء المصريين العلم بالجنات في الآخرة.؟ أما في الأديان السماوية وقاموسها، فنعم، لكن لا يؤمن بذلك إلا القلة المؤمنون فقط.!

ويأتي إلى كلمة «حور» - المشار إليها في الجنة -، يقول بجده واجتهاده ومهارته، وهو يريد أن يغير لنا لغتنا ومعانيها: و«حور العين» هي في الواقع «قرة العين». وهي كذلك تكرار لمعنى «العين»، أو حبة العين. وقولهم «إن النيل ينبع من الجنة، أو من الخلد أو من العينين». ضرب من هذا الخلط العجيب.. الذي يمدنا به لويس عوض في القرن العشرين. ومعاني لويس عوض ضرب من الهلوسة الذهنية للعبث باللغة العربية. وامرأة فرعون العاقلة المؤمنة، حين قالت: ﴿قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا﴾. لا تبالغ في إطلاق المعاني لتحبب فرعون في موسى.. بالمعاني التي جنح إليها الكاتب.. الذي لا يجارى.!، ولن يقبل فرعون الطاغية أن يكون موسى.. الذي هو ابن من الأبناء الذين يقتلون حين ولادتهم إنه - حبة عينه -، «عين

عينه» أو - إنسان عينه -، لمن يكون ذلك أبناً، ولن تقوله له إمرأته بهذه المبالغة اللغوية.! والحور في اللغة العربية: شدة البياض في بياض العين مع شدة السواد في سوادها. وكلمة: «عَينَ» عينا و - عينة -، اتسعت عينه وحسنت، فهو أعين، وهي عيناء (ج) عين. وهو المعنى الذي عناه القرآن الكريم.! أما معاني لويس عوض، فهي من عاميته الخرقاء.!

ونتجاوز **الفصل السادس**.. المختص بـ: «أسماء الأعداد»، لأنه لا يعنينا. أما الفصل - السابع -، فهو عن «أسماء القرابة»، وفي ص «318» من هذا الفصل.. يقول عن معنى قول الحق: **﴿فاطر السموات والأرض﴾** سورة - فاطر - «فالأغلب أن المعنى الأصلي للآية **﴿فاطر السموات والأرض﴾** هو: «أبو السموات والأرض»، أي خالقها، وليس «فالق السموات والأرض» كما يظن عادة. و«عيد الفطر» فيما يبدو لا علاقة له «بالإفطار» بعد الصوم إلا مجازاً، ولكن معناه الأصلي «عيد الخلق»، خلق العالم في بعض المعتقدات الدينية أو خلق القرآن أو تنزيله على أقل تقدير في كل تفسير معتمد. وبذلك يكون «الإفطار» بمعنى إنهاء الصيام». هكذا يخرّف هذا المفتري الذي زيّن له سوء عمله فرآه حسناً، ويقول الحق في هذه الآية: **﴿فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾**. وعوض الضال.. يفسر كلام الله وفق هواه؛ الذي أضله فأعمى بصيرته.. لكي يدخلنا بفهمه المريض في وثنيات شتى.. لأنه

مشرك أفاك أثيم.! إن قواميس اللغة تقول: فطر الأمر، أي ابتدأه. و الله - العالم - أوجده ابتداء. وفي الكتاب العزيز على لسان نبي الله إبراهيم: **﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا﴾**. و «أفطر الصائم» قطع صيامه، و«عيد الفطر».. العيد الذي يعقب رمضان. و- الفطرة - الخلقة التي يكون عليها كل موجود أول خلقه، والطبيعة السليمة - لم تُشب بعيب، وفي التنزيل: **﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾**.

عوض كغيره من أمثاله اليهود والمشركين.. الذين يحرفون - الكلم - عن مواضعه. ورغم إلحاد، نراه متذبذباً، فإنه يأتي بمعنى الإفطار، أنه إنهاء للصيام. و«الأبوة» للسموات والأرض، تعبير إلحادي، ولا يتفق وتعبير - الخلق -. وينفي أن يكون عيد الفطر له علاقة - بالإفطار بعد صوم رمضان، وإنما هو - مجاز -، إذاً ما هي الحقيقة أيها الخبيث الكاذب الملحد المزوّر؟. وشيء مضحك أن يكون معنى عيد الفطر بعيد «الخلق». ونسأل أي خلق يريد هذا الدعي المفسد العابث. وهو يعبر بـ - الأغلب - وما في حكمها. و- كما يظن عادة - وليس في العقائد السليمة ظن وتخمين وإرجاف وهوى مريض، ذلك أن المشرّع هو الله، **﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله﴾**. والأبوة عند الملاحدة تعبير تلقائي ، ونسب ذلك إلى الواحد

الأحد - خالق كل شيء -. وهو سبحانه: **﴿لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد﴾**. إن هذا المريض المعتوه يفسر كلمة «فاطر»، بمعنى «أب»، وهو أي لويس عوض، نصب نفسه لدراسة فقه العربية ، فهل عنده معجم يعتد به عربي يقول بهذه - الأبوة -: **﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا﴾**. ونردد: **﴿تعالى الله عما يقولون علواً كبيرا﴾**.

والفصل الثامن، يتحدث عن أعضاء الجسم. ولست معنيا بالوقوف عنده.. إلا ما تضطر إليه الحال. ونقرأ في ص «390» كلمة «أقعى» فيقول هذا الكاتب: في العربية «أقعى» تعني جلس (الحيوان) على ذيله. ونقول إنها خاصة بـ - الكلب - وما شابهه.

وإني أجد لويس عوض على اجتهاداته وتخريجاته التي لا يقاس عليها، ليستحق التهاني والاحتفاء والتبجيل. فنراه يقول في ص «391»: «فعل - قعد - كفعل «أقعى» من نفس الجذر، نتج عنه ظهور - ع - في «قعد» وقد سقطت الدال في بعض الصيغ فتجاور بسبب سقوطها عدد من حروف العلة - الحركة -، وكانت نتيجة ذلك ظهور «أقعى» العربية بغير دال». ونقول له فتح الله عليك في هذا الاجتهاد الذي لا مثيل له. لأن عوض لا يدرك عمق العربية وسعتها، لأنه ليس من أهلها، وإنما هو ينتسب إلى اللغة الانجلوسكسونية، الهندية الأوربية، التي يتكئ عليها في أكثر

ما يتصل بالعربية وغيرها.! ونقول له لا سقط ولا تغيير يا جاهلاً بالعربية، التي أعطت بقدرة الله وفضله كل مسمى حقه، لأنها لغة دقيقة، فهي قد أعطت أوصافاً مختلفة للإنسان والحيوان والنبات.. ليست في الإنجليزية القاصرة - مثلا -، ولا في غيرها من اللغات.!

إن تخريجات لويس عوض اللغوية يعجز عنها الشيطان، فهو يقول في ص «414» «وإذا كانت «نجار - من نفس الجذر» - وهو يتحدث عن - نيل -، تعني «ظفر» و«مسمار». ويقول: ومعناها الأصلي يكون مستمداً من دق المسامير . ويبدو أن «نخس» - «نغز» المصرية و «لكز» العربية في نفس الجذر، بمعنى «شك بمسمار». وكذلك «نقر» صيغة من نجر».! وحين نرجع إلى المعاجم العربية، نجد إن الاسم غير الفعل، ثم كلمة مسمار وظفر، لا تتحول.. إلى دق المسمار أو الظفر إلا عند البحاثة لويس عوض وعقليته السقيمة. أما أن «لكز» تعني - شك بمسمار، فنقول لجهبذ اللغة: - يفتح الله -. ذلك أن معنى - لكز - في اللغة هو: لكزه يلكزه لكزا : ضربه بجمع يده في صدره. ولاكزه: ضرب كل منهما الآخر.! أما تخريج البحاثة في القرن العشرين، أن تلك الكلمة معناها - شك بمسمار -، فلا نعرف له أصلا.. هذه واحدة.!، وكلمة «نقر» تعن : نقر الخشب والخيل بحوافرها الأرض، و- نقر فلاناً - عابه واغتابه. وانتقر الشيء: احتقره.

إذاً، فما ذهب إليه لويس عوض، أن معنى مسمار مستمد من - دق المسامير. وأن نقر غير نجر؛ لأن لكل منهما معنى، وإن تلاقيا في الصناعة الخشبية، لأن النقر تعني - الحفر. ونجر.. تسوية قطع الخشب ليصنع منها ما يراد.! ولو كان لويس عوض حيّاً لدعونا له - أن يوسع الله علمه وفق هذا الفهم السقيم، الذي تطوع به لخدمة لغتنا العربية، وهي في غنى عن هذه الأنماط المعوجة، التي يقدمها ويسعى إليها أعداء العربية، بزعم أنهم يبحثون في علم لغتنا، وتوجهاتهم وأهدافهم خبيثة كنفوسهم المريضة.!

الفصل التاسع، الذي يبدأ من ص «435»، عنوانه: «أسماء الحيوانات». ويصادفنا في ص «437» عبثه وولعه بالانحراف، والجري وراء التشكيك، لأن فهمه سقيم.. كما يقول المتنبي، فيقول في: كا بالوس «اللاتينية تعنى «جواد»، ولكن من نوع ردئ غالبا للحمل. وهذا يجعلها أساسا لكلمة «بغل». أما «جواد» بالمعنى المألوف Equus. أما الاسم الآخر للجواد في العربية فهو «حصان» وجذرها هو جذر - هورس». إنه تخريج بديع رائع.! ثم كيف تعني كلمة - جواد - «بغلاً» دون تفرقة. ونحن نقرأ في القرآن قول الحق: ﴿**والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة**﴾. وفي لغتنا الأثيرة علينا، نجد أن معنى «الجواد»، هو - النجيب - من الخيل. (ج) جياد. وفي التنزيل، حكاية عن نبي الله سليمان عليه السلام: ﴿**إذ عرض**

عليه بالعشي الصافنات الجياد﴾ واشتقاقات هذه الكلمة. تعنى الخير. فالجّوْد - المطر الغزير الذي مطر فوقه. و- الجوَد - عند «الاخلاقيين»: صفة تحمل صاحبها على بذل ما ينبغي من الخير لغير عوض. وفي حديث الاستسقاء «ولم يأت أحد من ناحية الأحدَّث بالجَوْد»(22) ويقال: جاد بماله، فهو جواد. وجاد المطر القوم: عم أرضهم وشملهم. وفي الحديث: «تركت أهل مكة وقد جيدوا». فتبا لهذا الفهم الملتوي السقيم.. الذي يريد أن يفسد علينا لغتنا ويشوهها، حسداً منه وبغضا لها!. ونتجاوز تخمينات هذا المبطل. في - براق -، «حمار» و- حصاوى -، لأن تخريجات هذا.. لا تنتهي عند حد، من الغلط والعبث باللغة الشريفة. ذلك أنه يأتي بألفاظ أعجمية، ويشتق منها المعاني، عبر قياسات باطلة، لا معنى لها، ولا خير فيها. فهو يقول في تخريجه الفاسد: «جائز بل ومحتمل» وما إليهما مثل: في رأيي ويبدو إلخ.!

في ص «448»، يسوق هذا الفيلسوف تعريفات وتخريجات، لعلها من إيحاء الشياطين. فهو يقول: «وعلى كل فكلمة «نعجة» في الاصطلاح المصري، توحي بأن جذرها هو جذر Nag الإنجليزية بمعنى «مومس». والنعجة في العربية تقترن بالخوف وليس بالجنس. والمجاز ربما من صهيل الفرس». هذه هي معطيات أخيلة لويس عوض الضالة، ومعاجمه الجديدة المبتكرة البديعة في علم اللغات. و- النعجة - في لغتنا:

الأنثى من الضأن و- البقرة الوحشية «ج» نعاج ونعجات. ويقول، جازاه الله بما يستحق: ومن هنا يتبين ترجيح اشتقاق مادة «هجين» و«غنخ» و«ناقة» و«ناج» من جذر واحد هو الجذر الذي خرجت منه «جمل» اليونانية واللاتينية أما كيف اختلط معنى الجمل بمعنى الحصان في مرحلة قديمة، فهذا ما يحتاج إلى بحث. **وربما** كان تفسير ذلك في البحث عن مادة «حمل» **فليس بمستبعد** أن تكون مادة «جمل» ونظائرها لا تعني أصلا الحيوان بذاته وإنما تعني «دابة الجمل» بغض النظر عن فصيلتها فونيطيقيا **يمكن** أن تخرج «حمار» و«قلوص» و«عيس» **فتحتاج إلى بحث**»! إنه لخلط عجيب، نراه في هذا العبث الصبياني السخيف الفج. إن الجمل في لغتنا هو الكبير من الابل، من الفصيلة الإبلية، من رتبة الحافريات المجترّة. وتخريجه المعجب، في معنى - الجمل -، «دابة الحمل» و- حمار -، والجمل بمعنى - الحصان - ، علم جديد في اللغة، لم يعرفه الأولون من علماء اللغة، ولغتنا خاصة، ولن يعرفه الآخرون - بكسر الخاء -! ولا داعي لإطالة تفنيد تخريفات هذا الدخيل على علم اللغة، الذي يعيث فساداً، بما يقدم، ويخمن ويؤول.. في احتمالاته، التي تظهر جهله المركب الفاسد، لكي يفضحه الله في مكره للنيل من لغتنا الغالية العزيزة. لكن مكره لا يحيق إلا به.! ويمضي في جهله الغريب البعيد، فيقول في ص «464» **فالأرجح** أن «جمل» كان

«فيل» ما قبل عصور الهجرات من المنبع الأسيوي الأصلي للعرب أنفسهم وللشعوب المتكلمة بالمجموعة الهندية الأوروبية من اللغات». أجل، الجمل يصبح فيلاً، والفيل يمسي جملاً.! وأين هذا الفهم من قول الحق فيما برأ وأبدع وخلق: ﴿ **صنع الله الذي أتقن كل شيء**﴾.!

أما الفصل العاشر.. الذي يبدأ من ص «479»، فعنوانه: «أسماء الطيور والأسماك والزواحف والحشرات». وفي ص «496 - 497» يتحدث لويس عوض عن مجموعة الطيور الجارحة، وانظروا إلى سعة مفردات لغتنا العربية.. في تعدد أسماء الطيور الجارحة، مثل: «صقر إلى باشق، باز، عقاب، نسر. ولا يوجد هذا التعدد في ظني.. في لغة أخرى. وكذلك الكثير من أسماء الحيوانات كالظبي ومرادفاته، وغير ذلك.. مما لو تتبعته.. لطال الوقوف في هذا الحديث، من فصل الحيوانات.. الذي اشتمل عليه كتاب: «مقدمة في فقه اللغة العربية»، لاسيما الطير وما إليها.. من الحيوانات الأخرى، من زواحف ونحوها، وتعدد أسمائها وفصائلها.. وانظروا إلى تعدد أسماء الثعابين: ثعبان، حيّة، أفعى، حنش، والدواب التي تمشي على بطنها، وعلى رجلين، وعلى أربع، وعلى أكثر من ذلك، ووجب علينا أن نردد قول الحق سبحانه، ﴿**يخلق الله ما يشاء، إن الله على كل شيء قدير**﴾.

والفصل - الحادي عشر - يُعنى بأسماء النباتات. ونجد

الكاتب المبدع البحاثة، وأنا قد تجاوزت الكثير من الصفحات، لأني شعرت أنني قد أطلت، فيقول في ص «534» وكلمة «برتقال» العربية مأخوذة من اسم **البرتغال** الذي عربه أهل الأندلس **ويبدو أنهم أطلقوا اسمه على هذه الفاكهة**. وهو اسم غريب؛ لأن اللغات الأوربية لا تأخذ بهذه التسمية وانما تسمى **البرتقال** «أورانج» إلخ . ولم يفصل لنا هذا البحاثة معنى - البرتقال -. ونقول له.. وكم تمنت لو أنه باق.. ليسمع مقولتنا.! أن اسم هذه الفاكهة هو «برتقان» في الأصل، وقد سهلت إلى - برتقال - نطقاً. وكفانا.. من تخمينات لا تستند إلى حق، من **يبدو**.. وما إليها كثير مما وقفنا عليه، ونحن نتابع محتويات هذا الكتاب.

أقول لو أتيح لي قراءته وصاحبه حي، لحققت شيئاً مما في نفسي بالرد المفحم عليه، وأذكر أن بعض الكاتبين من الغُيُر على العربية، قد فنّدوا أباطيله، وأكبر الظن، أن تلك الردود قد وصلت إليه، ولم نقرأ له أي رد.! ولعل مصادرة كتابه، بعد أن اعترض عليه علماء الأزهر.. أسكته، وأبطل آراءه الفاسدة، وألجمه الموقف الجاد، لأنه تجاوز الحد فيما فعل وأبدى وزعم. وهو لا ينشد العلم للعلم، ولا يبحث عن الحق وخدمة اللغة العربية، وإنما يريد أن يوهنها، وأن يطعن فيها، وأن يجعلها دخيلة، وليس لها جذور وأصول عربية، وإنما هي منحوتة من اللغة الهندية الأوربية ، ليزري بها، ويغيظ

أنصارها وأهليها ومحبيها، ظناً منه أن أمة «الضاد» في غفلة عن مكره وعبثه وتخريبه. وحينما أنجز عمله، تصدى له أهل - الضاد -، وسفهوا أحلامه وكيده ومكره، فمنعت الحكومة المصرية تداول الكتاب، من واقع اقتناع أولي الرأي فيها، ولأنها لا تريد إثارة الفتن والنعرات الطائفية. وحمداً لله.. أن ظهر هذا العمل غير الصالح.. ليفتضح فاعله ومُنشئُه، ونرى شروره وحقده وكرهه للغة.. التي ظل يكتب ببيانها المشرق نحو نصف قرن، ثم تنكر لها وحاربها في عقر دارها، ليظهر الله كيده وخبثه وبلاءه المبين، ويسيء إلى بلاغة هذه اللغة الشاعرة وبيانها وروعتها، جزاء.. ما أعطته وعلمته، وأعانته في أعماله الباطلة. لكن الحق يعلو ولا يعلى عليه، فاندحر الظالم.! وارتد إليه مكره وظلمه وفساده. وذلك هو عدل السماء، وقوة الله المنتقم الجبار.!

وقبل أن أدع هذا الكتاب جانباً، استوقفني قوله، في ص «554»، وربما كانت «فول»: العربية صيغة من «فوم» التي وردت في القرآن ﴿من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها﴾ «البقرة، الآية 714» في الكلام عن «الخيرات التي وُعد بنو اسرائيل بأكلها في مصر». وكلمة «فوم» أو - فومة - السنبلة والحبّة مماّ يخبز. ولو رجع إلى - المعجم الوسيط - بجانبه، الذي أصدره مجمع اللغة العربية بمصر، لما مضى في غيه، إذا كان ينشد الحق، ولكن هيهات.. أن يكون هدفه قول الحق والبحث عنه واتباعه، لأنه ضلالي مبين..!

الهوامش

• إن لويس عوض - لم يحصل على الدكتوراه. هكذا تحدث الدكتور - محمد الشاهين -، نائب رئيس جامعة مؤتة الأردنية، وهو رئيس قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب بالجامعة. والدكتور محمد شاهين، درس في جامعة كامبردج، التي درس فيها لويس عوض ست سنوات: 1937-1943م. ويقول محمد شاهين: وفي أثناء وجودي للدراسة هناك، بحثت في سجلات الجامعة، فلم أجد اسم الدكتور لويس عوض في السجلات، لكني وجدت اسمه بين الدارسين خلال تلك الفترة، مما يعني أنه تقدم لنيل درجة الدكتوراه بالفعل لكنه لم ينلها. ثم منح فرصة ثانية لإعادة المحاولة، ولم ينلها أيضاً. لذلك كان ما منح له هو درجة الماجستير عن رسالته التي تقدم بها. وهي درجة لمن يعرفون تقاليد كامبردج لا أهمية لها، درجة تعويضية أو درجة ترضية، وتسمى «دكتوراه ساقطة». فكان أن حمل لويس عوض هذا الفشل في بداية حياته وجعله أمام عينيه طوال حياته لم ينسه، بل خاض به كل معاركه الثقافية بانفعال وعاطفة شديدة». - ص 6 - الأربعاء، ملحق جريدة المدينة المنورة، الصادر بتاريخ 13-9-1422هـ الموافق 2001/11/28م.

هذا الحديث، سجله مندوب الأربعاء بالقاهرة - كريم محمد -، مع الدكتور شاهين.

(1) آية - 27 - من سورة آل عمران.

(2) الآيات: 43 - 47، من سورة - مريم.

(3) آية: 67، من سورة - آل عمران -.

(4) آية: 120، من سورة - النحل -.

(5) آية: 125، من سورة - النساء -.

(6) آية: 61، من سورة - آل عمران -.

(7) آية: 52، من سورة - الشعراء -.

(8) آية: 60، من سورة - الشعراء -.

(9) الآيات: 61 - 66، من سورة - مريم -.

(10) الآيات: 70 - 73، من سورة - طه -.

(11) آية: 7، من سورة - القصص -.

(12) آية: 16، من سورة - القصص -.

(13) الآيات : 17 - 21، من سورة - القصص -.

(14) آية: 28، من سورة - القصص -.

(15) آية 23 - 24، من سورة - آل عمران -.

(16) آية: 8 من سورة - الجاثية -.

(17) المزهر، لجلال الدين السيوطي، عن كتاب الألفاظ والحروف، للجوهري.

(18) في المهذب - للسيوطي.

(19) ص 66، مقدمة في فقه اللغة العربية.

(20) ص 66، المصدر نفسه.

(21) المعرب - للجواليقي، ص 13. الطبعة الثانية، وزارة الثقافة المصرية، مطبعة دار الكتب، 1969.

(22) ص 151، المعجم الوسيط.

* * *

حمزة شحاتة.. الأديب المفكر(*)

الجدود في هذه الحياة أخياف، فمن الناس.. من تبسم له الحياة، فيكون نصيبه فيها موفوراً مترعاً، ينعم بما ينال.. ولو بدون عناء وكد، فقد أتيح له ما يتاح للكثير من أمثاله، وربما كانوا أكثر سعياً فيها، وأكثر انشغالاً بها، ومع ذلك.. فإن نصيبهم منها ضيّق محدود، لا يكاد يحقق لهم شيئاً من مطالب الحياة، على حين ينعم غيرهم بالحظ الوفير عطاءً وشهرة ورغد عيش. إذاً فالسعي والكدح ليسا مقياس نيل الرزق.. ولا معطيات تعين على هموم الزمان وعنانه وشجونه.

غير أن الإنسان مطالب أن يكدح وأن يسعى ويعمل.. ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وليس عليه أن يبلغ ما يريد، أو قل ما يكافئ جهده وسعيه، وأن عليه أن يرضى بما قسم له..

إذا كان قانعاً، أو أن يشكو ويجأر بالغبن الذي حل به.. ولم يستطع أن يغيّر منه شيئاً، وأن يجأر بالشكوى مما حل به.. والمبدع ليس بد من أن يضيق بالحرمان، لأنه يرى أنه حقيق بشيء غير قليل، ليس لقاء طموحه وتطلعات نفسه، وإنما.. لأنه ذو إباء وشمم، وأن له ميزة أو أكثر، ينبغي في رأيه.. وربما عند غيره، أن يتاح له ما أتيح للكثيرين من ذوي الحظوظ، وعلى الأقل.. لقاء نبوغه وتميزه بعقله، وهو مدرك لما أعلنه أبو الطيب.. «ذو العقل يشقى في النعيم بعقله»، فكيف به إذا كان في شقاء وحرمان وضنك وعسر لا حدود له؟

ذلك هو الشقاء العقلي.. الذي يتلبّس بعض النفوس الطموح، حين لا تنال من دنياها أيسر سبل الحياة الكريمة، وتأبى عليها كبرياؤها.. أن تصمت، وأن تذل، لأن الذل إذلال للنفس.. التي لا تلين قناتها.. مهما اشتدت بها الخطوب، وضاقت بها الحياة، لأنها تدرك.. أن من يحسد الذليل بعيش يصبح ذليلاً، وربما أدنى من ذلك كما يقول المتنبي. والله قد كرم الإنسان، وقد خلقه في أحسن تقويم. فلماذا يذل لغير خالقه.. الذي كفل له رزقه مادام حياً، وبيده أجل من خلق؟

لست أريد أن أمضي في هذه المقدمة طويلاً، وإن كانت الحال تدعو إلى شيء من التأمل.. لاسيما حينما يكون الحديث عن رجل ذي طموح.. وفيه إرادة القوة، لأن فيه شبهاً من

الشاعر الطموح المتنبي، الرجل المفتون بالقوة.. وبإرادة القوة، ومن أجل ذلك دخل التاريخ - وليس بالغضب كما يقول الشاعر نزار القباني - ومبدأ القوة لا يعني الطيش والحمق والاندفاع والجهل، بل الاتجاه إلى أقوم السبل.. لتحقيق الهدف البعيد. وقال العقاد إن «إرادة القوة.. هي المجد الهادي إلى كل خلق نبيل، والنافي لكل خلق وضيع ذليل»[1].

ويقول الدكتور محمد عبدالرحمن شعيب: «المتنبي يقرر مذهب القوة.. ويؤمن به، ويدعو إليه، ولكنها القوة الهادفة التي تفرض الخير في طبيعة البشر، وتفرض فيهم القدرة.. على الوصول إلى الكمال»[2].

إن هذه الورقة التي أتقدم بها إلى مؤتمر الأدباء السعوديين الثاني، رأيت أن يكون ضيفها.. رجل فيه شيء من طموح المتنبي وقوة إرادته وإيثار القوة، ومجافاة الضعف والاستكانة، لأن القوة عند ذوي الطموح حياة.. ولو كان المتصف بها ليس له من الأمر شيء. وليس له نصيب من زاد الحياة وزخرفها ونعمها، ويكفيه.. أن يصحّ منه العزم، ذلك أنه لا يملك حظه الذي يحقق له بعد القيمة.. مع أنه يملك القدرة، والعَرَض لا ينال بالطموح وحده، ولا حتى بالسعي، لأن موازين العطاء عند الذي يفضل بعض الناس في الرزق، واهب الملك ومانعه، لأن بيده ملكوت كل شيء. والذي يطمح ولا ينال

ما يتطلع إليه.. وهو ذو قدرة وإرادة لا يفلها الحديد، يصاب بالإحباط، ويدركه السأم.. فيعتزل الناس وينأى، راضياً أو ساخطاً، فالحال واحدة.

أنا في هذه الوريقات القليلات.. مع شاعر وناثر، بارع في الفنين، كما قلت آنفاً، بل إني أريد أن أؤكد أنه ليس بشاعر وناثر فحسب؛ وإنما هو أديب مفكّر كذلك، ذو نظر في العالم والأشياء من حوله، تستغرقه ويستغرقها، ثم تكون محصلة ذلك.. تلك النظرات العميقة التي نجدها في شعره وفي نثره. وهو ذو إرادة وقوة وإباء وعنف، وإني لا أمنحه هذه الخصال من تلقاء نفسي، ولكني أجد ذلك في الزاد الذي تركه، وهو ليس كثيراً، والكثرة عندي لا تعني القيمة، إلا إذا كانت ذات قيمة، والقلة ليست نقصاً، وإنما ميزان القسطاس.. هو الذي يحدد القيمة للشيء، وحمزة شحاتة.. كان قيمة، وأدبه ذو قيمة في نثره وشعره، أدرك ببصيرته وعبقريته، أن الخلق وحده لا يبني ولا يمثل رجولة قوية. وإنما الرجولة.. هي التي تصوّر الخلق، لأنها تتصف به، وتتخذه وشاحاً وسلاحاً، من قدرتها وإرادتها. وخلق بلا إرادة وأيدٍ لا يحقق شيئاً، ولا يبني رجولة بمعناها الطموح، فالعزة قدرة وقوة ونتاج عزم وحزم. ولذلك نقرأ في الوصف النبوي: «المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف» وحين نقرأ بقية الحديث - وفي كل خير -،

فإن تفسيره عندي، أن الخيرية في الضعيف ترجع إلى إيمانه. ولذلك تقدم عليه ذو القوة المؤمن.

إن محاضرة أديبنا الكبير وشاعرنا التي ألقاها في جمعية الإسعاف.. في ذلك الوقت المبكر، استغرق إلقاؤها أربع ساعات، قال عنها بعض حاضريها.. إن من حضرها ظل في مكانه لا يريم، منصتاً ومتابعاً ذلك البيان البليغ الذي اتصفت به، وذلك التحليق القوي.. الذي أبهر المستمعين، لأن المتحدث رجل أحكم زمام موضوعه.. الذي اختار، فجاء إلقاؤه وأداؤه آيتين فصاحة وبلاغة وبياناً مبيناً، وهذه القدرة لا نجدها عند كل متحدث، ولا عند كل شاعر، لأن التفوق والتميز.. اختص الله بهما أنماطاً من البشر قلائل، وحمزة شحاتة من أولئك القليل في عالمنا العربي، كما شهد له بذلك أقرانه وعارفوه والذين خالطوه، وأدركوا قدراته.. متحدثاً وخطيباً وشاعراً، وهو إن لم تكن قصائده طوالاً، إلا أنه مجيد، وقلما تجد في هذه القصائد ضعفاً، لأن الشاعر أشبه بالجوهرجي.. الذي يعرف كيف يختار لآلئه وأسماطه، ويتقن صناعته، لأنه ماهر.. صنّاعة.! إنه رجل يعرف كيف يختار لآلئ ألفاظه والمعاني القوية، بعيداً عن الإسفاف والابتذال، لأنه شاعر وأديب يحترم نفسه، بعيداً عن السياقات الرخيصة، وليس المناخ.. الذي يرتقي فيه الشاعر، وإنما الفن الرفيع.. الذي يتصف به ذو الرأي والحجاج.. الذي يتصدر الحوار، وهو

الصفة التي ينشدها الباحثون عن المتعة والجمال عند المفكرين. وحمزة شحاتة.. ليس أديباً عادياً، وإنما هو مفكر بعيد الرؤى.

إن الأدب بعامة ليس ألفاظاً لا حياة فيها، هذا ليس من الجمال في شيئ، وإنما الأدب إشراقة بيان، وسمو معانٍ، وتموج ديباجة، وجمال نسيج؛ وبذلك يكون رائعاً ومؤثراً وجميلاً. والأدب الحي النابض القوي.. هو الذي يبقى مع الزمن، تتداوله الأجيال، وتتجدد معانيه من خلال الدرس والتفكيك، لاستجلاء معانيه وأسماطه، لأنه من الحياة وفيه حياة لمن يعيشون الحياة، ليتأملوا فيه ويجدوا معاني البقاء، لأنه قيمة وذو قيمة، وأثر لا يواريه الزمن، وإنما يزيده قيمة بالدرس والبحث ودقة التأمل، كما هي حال الآداب المتجددة القوية، التي لا تطويها الأيام.!

وبعد:

فلعلي استنفدت من خلال هذه المقدمة.. التي أخشى طولها، ولعلي قضيت أربي فيما أريد تمهيداً لما بعده، وهو ملامسة هذا الزاد الوافر في قيمته، وليس كمه، لأن العبرة بها، وليس به..! وقد درجت في مطالعة بعض قصائد الديوان.. عبر ما جاء في تلك الصفحات التي صدرت قبل عام.. بعنوان: «حمزة شحاتة.. ظلمه عصره». واليوم أستأنف

الحديث مجدداً، بدءاً من ص (41)، حيث تطالعني قصيدة.. عنوانها «وداع». وهذا العنوان ينبئ عما وراءه، والوداع شكوى ممضة، لأن المفارق غال، وقد يكون ذا اعتساف وشطط على من فارق، وهو المحب ذو الجناح المهيض، وسنرى.. حين نتدرج لنقرأ ما خطه الشاعر.. وهو يشكو ويلح في الشكوى، لأنه لا يملك إلا أن يجأر بما حلّ به من كرب وبلاء، ولكن لمن يشكو؟. أكبر الظن أن أقرب صديق.. مصاحب للأديب وغيره في الحياة، هو سميره، وقد يكون صامتاً، لكن الخطاب يستنطقه، فيكون حوار، وربما شكوى متبادلة، فالليل يشكو من كثرة الشاكين وآلامهم وحالهم وذلهم وهزيمتهم وبؤسهم، والليل يواسي ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فلعل وعسى، أن يتحول العسر إلى يسر، والكرب إلى رخاء! إنه أمل، والزمن وشيجة الغادين في هذه الحياة المؤلمة الدامسة، ولولا الأمل لجف الزمان. والذي يودع يطمع ويرجو.. وقد تحولت حاله إلى ما يكره، والبؤس حل محل الوفاء والصفو وما يشبه السعادة. والليل رفيق وملجأ الحيارى، وسمير يبثونه شجوهم ونجواهم، وها هو ذا شاعرنا.. يشكو، والألم مرارة، وإن كان يصقل النفوس ويعوّدها على الصبر.. وهي في هم الحرمان والكرب... والألم تنداح منه دقة التعبير والاتقان وتصوير الحال.. وما يعتمل في النفس، لأنه إفراز شجن وانصهار

نفس، لتعبر عن لأوائها، كما ينتج من صهر الذهب حلي وجواهر.. يزين نحور الحسان والغواني. وصدى الشكوى اختلال أنماط في الحياة، وتغلب نفس على نفس، وقوى على أخرى. والنفس، رغم أنها تنصهر بالحرمان وفقد ما يسعدها، لكنها تفرز وصفاً وتبرأ من ذلك الصهر الدامي الملتهب، ولولا الحرمان.. ما كان هذا النمط من اللفظ المصقول، والمعنى المتوهج المتدفق. وها هو ذا الشاعر في وداعه.. يهيم، ويبوح بما يعتمل في النفس المكلومة، عسى.. أن هذا البوح يخفف من لواعج القلب الجريح، وليس له خيار، لأنه ليس له من الأمر شيء. قال:

وداع، وهل لي أن أقول: إلى لُقى ... وبعدٌ، ومن لي أن أراه تمزقا؟

يريد الشاعر أن يذهب البعد إلى غير رجعة وأن يعود القرب فيطفئ الشوق، وتحل الهناءة، إنها آمال شاعر.. تلبّسه الخوف والحنين والفراغ والأين.

ولرحة نفسي، فارقتها، وأدبرت ... وكان بها روض المسرة مُونقا

أجل، فالفرح تحوّل إلى ما يشبه الترح، حيث كان الأنس الأنيق، والبهجة تملأ النفس.

ودنيا هوىً طلق يصيب به الهوى ... طِلاب مناه، كيفما شاء مطلقا

بلى، عالم هوى، ينال منه الهوى مراده، كما يبتغي بلا قيد. ثم تغيرت الحال أو قل انقلبت:

أشاحت، ولم ترع الذمام، ولو رعت لأبقت على قلبي الكليم ترفقا

هكذا دأب الحب، وحال الغواني، وأنّى لهن الذمام والإبقاء على الودّ، ولعله يضعف التعلق فيفتر الحب ببلوغ الأرب والمنى!

فيا حسن ما أقسى احتكامك إن هفا بك الزهو، لم تحفل لعانيك موثقا
ويا ليل سامرني على السهد والجوى فمازلت ألقاك السَّمير الموفقا
وعد بي إلى الماضي القريب، وإن غدا بعيداً وإن أذكى الشعور مرفّقا
فقدت وإياك العزاء، فمن لنا به غير أن يشكو كلانا ويأرقا

إن قاموس شاعرنا اللغوي متين، وإنه ليتأنق في اختيار ألفاظه كما يصنع الجوهرجي الماهر، وهو يوائم بين اللآلي، لأنها حلية، لا تبلغ هوى ذوات الحجال.. إلا إذا كانت رائعة الصناعة والإتقان، جذابة متوهجة.

ورغم أني لم أرتح كثيراً إلى كلمة - الموفق - التي يصف بها الليل سميره.. في البيت الثاني من المقطع الثاني من هذه القصيدة، إلا أن الشاعر الحائر، علّه لم يجد يومئذ وصفاً لسميره إلا هذه الكلمة.. التي توائم القافية.، ولعل الشاعر وقد أصبح وحيداً.. تنبه إلى أن الليل وحيد مثله،

فألبسه وشاح الشوق والحنين، ليكون مثله، فيشتركان في الشكوى، حين يشكو أحدهما إلى صاحبه، والليل طوال دهره وحيد، وهو أنيس لمن تنبو به الحياة ويهجره الهوى، والأدهى هو الذي يتلبسه السقم، وإنه لابتلاء قاس، إذ العيون نيام، وهو يتلوى ألماً، ويسامر النجم، ويساهر الليل.. ويشكو إلى ربه أن يرحمه وأن يدفع عنه السوء.

والشاعر يخاطب الحسن، ويصفه بأنه عنيف إذا جنح إلى الزهو والعجب، حيث لا يبالي بمن تعلق به، ولم يهتم به وهو في أغلاله لأنه أسير هوى. ويريد الشاعر من الليل أن يرجع به إلى ماضي أيامه القريبة، والذي حوله الهجر إلى بعد، وحرك كوامن النفس وألهب الشعور، وزاد النفس رهقاً. ولم يجد الشاعر والليل عزاء على مصاب كل منهما، حين أشرك الليل في همه وجعله مثله مصاباً بداء الوحدة والحرمان، ولم يبق سوى الشكوى والأرق لكليهما.

ويمضي الشاعر في حديثه إلى الليل الصامت، بما حاق به من حزن، وهو يستعطفه.. لكي يفضي بذلك الهوى المتدفق الذي يخفيه، والشاعر في هذا الخطاب إلى أنيسه الليل، ينشد السلوى.. وتخفيف الآلام ووطأة الهجر والحرمان. ويناشد الليل، لأنه شاهد، ويتهمه بأنه كان يشارك الشاعر في هواه لحبيبه، وكأنّ أي الليل يفضي إليه بنجواه، ويغار من الشاعر

وهو منجذب إلى الحبيب. وأن بدر الشاعر يفوق بدر الليل جمالاً ومرحاً، وأكثر بهاء.. وجه ومفرق شعر.

حنانيك حدثني، ولا تخف ما وشى	به صمتك الآسي هوى متدفقا
وقل: كنت أهواه هواك، ألم تكن	تنافسه لجواك، غيران شيّقا؟
تنير به أفراحه، وشجونه	وأعمق ما يخفىً إذا هم واتقى
أما كان بدراً فاق بدرك بهجة	أما كان أسنى منه وجهاً ومفرقا
أباحته دنياه مفاتن حسنها	وحابته بالاعلاق فاختار وانتقى
روينا به يا ليل، والدهر غافل	كريم دواعي النفس أعطى فأغدقا
تعزّ، ولا تضنك ببعد أراده	فإن كان قد أظما فيا طالما سقى

جميل قول الشاعر - أباحته دنياه -، ولم يقل تعبيراً عابراً، وهبته أو أعطته، ذلك أنه شاعر مجيد رائد وعبقري، فالدنيا أباحت للحبيب الفاتن في جماله، وخصته بالنفيس من كل شيء تهواه النفس، فانتقى ما يلائم بهاءه وجماله. وتنهال خواطر الشاعر.. وهو يفضي إلى الليل في هذا النّجاء، إنه ارتوى من حبيبه في غفلة من الزمن، وذلك دأب الهوى والمحبين. وكان الحبيب سخي النفس لا يبخل على المحب، فنال غدق الهوى.. كما أبيح له، فالشاعر إذاً يستجر الماضي.. ليأسو جراحه، علّه يدركه شيء من سكينة مما هو فيه من كرب وشجو. ثم يعود، وكأنه قد كان في حلم فأفاق، ولم يكن حياله شيء مما كان يرى ويلمس، فأدرك أنْ ليس معه إلا الليل.. في صمته ودجاه وطوله، فأخذ يعزّي نفسه، ويقول لنفسه..

لا تدخلي في ضيق مما أنت فيه من الحرمان والهجر. والمتنبي يقول: «والهجر أقتل لي مما أصادفه». يتعزى الشاعر.. وهو يتخيل الماضي كأنه شريط سينمائي يعرض أمامه، فإذا كان الحبيب قد بعد باختياره، وأدرك المحب الظمأ، فإنه طالما ارتوى، من ذلك الإغداق الثر والشلال الدافق. إنه العزاء.. في هذه الشكوى المولعة، وليس بدٌّ من التعايش مع الواقع، وإن كان مؤلماً ومراً.! ونمضي مع أبيات القصيدة الشاكية، في هذا التصوير الرائع.. من التصبر، ومعاناة الحزن، وما أصاب النفس من خسار، وأن الحياة هكذا دأبها، قلّب، وحظ الإنسان فيها متغير، والآمال لا تكون كلها سعادة وصفاء، ولكن الكدر ينداح فيها.. بين حين وحين. غير أن الأمل يظل حلماً بالجميل من الآتي، وتطلع إلى ما هو خير، ويبقى الشك يرود النفس ويربكها ويضنيها. وهل يعود الغائب والبعيد، وتصفو للشاعر الأيام، كما كانت الحال من قبل، أم تبقى الآمال معلقة؟ ويأخذ الشاعر الموجع.. يخاطب حبيبه، يريده أن يعيد تدفق الصبوة.. يعروها همس ووشوشات، كأنهما من متطلبات الصبوة وأدواتها، وتلك طفرة انهيال الهوى.. وقت تدفقه، من غير قيد ولا احتياط، وهو الصفو.. الذي يدعو ابن زيدون إلى اغتنامه. في قوله:

واغتنم صفو الليالي　　　إنما العيش اختلاس

ويأخذ شاعرنا شحاتة في حديثه الخطابي والحواري:

ويا قلب إن يعصف بك الحزن فاتئد فكم ضاع مسعى للقلوب وأخفقا
وحظك من دنياك ما سنحت به فدونكه صفواً أتى أو مرنّقا
فقد تخلف الآمال سحب رويّة وتنجزها أخفى السحائب رونقا
فيا للغد المرجو هل أنت مقبل فألقاك بالآمال أم لبس مُلتقى؟
وهل يدنى النائي ويصفو به الهوى كما كان؟ أم يبقى الرجاء مُعلقا؟

يخاطب الشاعر قلبه وينصح له، ألاَّ يتعجل حين يعبث به الحزن، فطبيعة القلوب أن تفشل في سعيها وتخفق، وأن نصيبها في حياتها ما أتيح لها منها، وعلى القلوب أن تغتنم حظوظها.. في صفائها وكدرها، ومن طبع الآمال ألاَّ تنال ما ترجو من سحائب ثرة ذات ريٍّ، وتأتي أخرى.. ليست ذات كثافة ولكنها شبه عابرة، ترى أنها غير مغرية؛ ومع ذلك ترضي المتطلع إلى المزن، فينال قدراً ذا بهاء.. وفيها عوض. وحال الشاعر القلقة، تتساءل، هل الغد المنتظر آت، ويلاقيه الشاعر بآماله، أم أن اللقاء غير متوقع؛ لأن الآمال لا أمل فيها؟. وبيت القصيد في الغد والأمل، أن البعيد.. هل سيكون قريباً، ويتحول الكدر إلى صفاء.. كما كان في غابر الأيام، أم أن الأطماع ستظل معلقة.. إلى أجل غير مسمى.!؟

ويمضي خطاب الشاعر إلى حبيبه البعيد، وكأنه أمامه يحاوره، مجدداً ما كان بينهما.. قبل البين، ويذكره بما كان يقول ويؤكد حدّ القسم.. أن شاعره يفوق القائلين، إذا حلّق

بخياله وفكره، وهو معه متبرج الهوى، في صور هذا الحديث المنمق، ينساب خلسة، خوف الرقيب، أو خوف بطر الشاعر بهذه النعمة التي هو فيها، والمحب يحب تلك النفثات الباهرة من شاعره.. التي تسري في دمه، وفي فكره، وإن كان ما يسمع من سحر يدخل في مقولة: «أعذب الشعر أكذبه»، وإن كانت المشاعر صادقة في خفقاتها. ومع ذلك فالشاعر في شك، لأنه عرف الهوى وتقلباته.. وانهزام المحبين وفشلهم، فهم أمام قوة تفوق قواهم وقدراتهم، وبعضهم لا يملك إلا الكبرياء، يستعين بها، لكي يقاوم الذل والإخفاق.! إنه صراع لا ينتهي. وفي موازين الشاعر ولداته.. أن وعود الحبيب وبره لا ترقى إلى حد التأكيد الذي يرضي العارفين بأهل الهوى وحالهم. ونرى الشاعر يستبعد صدق من يحب، الذي يعتمد عليه ويعتد به، كما أن الفن الحقيقي أصعب منال، أي ليس كأي فن في الساحة، نابع من أهله الذين يشار إليهم بالبنان. والشاعر يعلن أن صاحبه فيه حقيقة صدق، وإن قدّم التزوير والتلفيق. إذاً الشاعر مدرك لحال حبيبه، وروائع اصطياد الشاعر لكلمة - تشاكل رأيانا - أي اختلط الرأيان، والرأي هوى كل منهما، ولأي منهما ما يتذوق، ليختلف التذوق وكذلك الرأي وحتى الحكيم. والشاعر المبدع.. هو الذي يصطاد تلكم الألفاظ؛ ويختار المعاني.. لتؤدي ما في نفسه.. وما يعتمل فيها ويرضيه.!

حبيبي، ألا عادت بك الصبوة التي تخالسني عنها الكلام المنمّقا
تقول - ولا أنسيت - أهواك شاعراً إذا قال بزّ القائلين وحلّقا
وأهواك نفاثاً لسحرك في دمي وفكري؛ وأهواك الكذوب المصدّقا
وتقسم، والأقسام من فيك برّةٌ ويأبى لنفسي كِبرها أن أصدقا
فصدقك غير الصدق في وزن أهله وهيهات، إن الفن أصعب مُرتقىً
وأعرف أن الصدق فيك حقيقة ولو كان ما تزجيه زوراً مُلفَّقا
تشاكل رأيانا، كلانا لنفسه هوىً، ولكل في الهوى ما تذوّقا

هذا الطرح، وهذا التقابل.. في خواطر مترعة، هو صورة جمال التعبير، ليكون الأثر والتأثير في الخطاب إلى المتلقي.. الذي يقرأ هذا الشعر؛ في تكأة أو مستعرضاً، يتأمل معطيات الحسن.. في الصياغة المتقنة، لأنه يتابع فناً، ويقرأ فناناً.. ذا موهبة متوهجة، فيها ارتقاء حسي، ليكون هذا الجمال في الفن، في كل صوره.. شكوى ورضا، ووصف، ونسيب عذب، لأنه شعر لا تكلف في صناعته، ولكنه حقيقي مصفى.. إن صح هذا التعبير. وأكبر الظن أنني لست مدعواً.. وأنا أمام صفوة من المثقفين.. أن آخذ في تحليل ألفاظ ومعطيات هذه الأبيات.. التي أسوق، فهي تفصح عن حالها، وتدل على معانيها، وتشير إلى مضامينها ومعطياتها، ذلك أنها فكر شاعر.. ذي بيان مبين. وأقول في غير احتياط إنني لا أنطلق في رأيي من عاطفة جامحة، غير أن هذا الشعر.. هو الذي يدفعني إلى التأكيد على قيمته الجمالية، لأنه تصوير رائع..

يفتن قارئه ويشغله، بأن يمعن في تأمله والاستمتاع بقراءته، ذلك أنه مع شاعر مجوِّد في فنه، بهذا العرض والتصوير واتقان، لا مزيد عليه، ذلك أنه إحساس صادق وبناء قوي، لأنه فن أصيل. وأنا مع شاعر ينحت من نفسه وقلبه شعره، ليس هذا شعر انفعال نفس محرومة، ولا هو شعر خطابي، ولكنه ضرب من شعر المبدعين القلائل اليوم، بهذه الجودة، وهذا النسيج المتقن، فكل كلمة في كل بيت.. تكاد تهتف: أنا هنا، وأرمي إلى كذا من المعاني البعيدة الغور، وهذا هو الشعر.. الذي يعتد به، عبر إنشائه وعند سماعه، لأنه من القليل الذي تلقاه.. في وسط ركام زائف، ومع ذلك يعتدّ به قائلوه والمروجون له، وبعضه.. تستكثر عليه الورق والمداد الذي أنفق عليه، وهو خليق أن يرمى به في وجه صاحبه، حتى لا يقول المزيد من هذا الغثاء.. الذي لا خير فيه، وهو محسوب على صاحبه هُراء، وعلى الأرض.. الذي ظهر فيها، إنه لا غنىً فيه، ولا قيمة له، ومع ذلك.. تمضي به الركبان الزاحفة على بطونها وعلى أربع، ويجد رواجاً زائفاً، لأنه زائف ورخيص وتافه، ومع ذلك يقال له شعر، وما أجدره بسوق النخاسين.. يتسلون به ويعبثون، لتزجية الوقت الرخيص.. في سوق كاسدة.!

ويطرح الشاعر تساؤلاته.. في المقطع التالي، انطلاقاً من القسم والوعد، ومنحى الود والإعجاب المتبادلين في

الهوى، يسأل الشاعر حبيبه، ويشعره أنه غاب، وأن عليه أن يعود.. إذا صدق وعده. وأن الشاعر لم يتغير.. فهو على عهده، على الفطرة، لم تغيره الأيام ولا الجفاء، وأنه في الأخلاق.. التي لا تتبدل. ويشكو الشاعر البعد، وأن قلبه لم يرتو بعد، وفي تقديري أنه لن يرتوي، لأن لا ريّاً ولا شفاء في عالم الهوى العطش، والظمأ المتصل. والشاعر يقول:

يا أشعبي الطبع   كم قبّلتها ما شفتك

وأكتفي بسوق البقية من هذه القصيدة أو بعضها.. لألم بغيرها، حتى لا تطول الوقفة، وأظنها كذلك.!

رغبت، فهلاً عُدت إن كنت صادقاً   فإني كعهدي فطرة وتخلّقا؟
أبعداً وقلبي من دُنُوك ما ارتوى   ودمعي على أعقاب هجرك مارقا؟

* * *

إلى أن يقول.. في هذا التسلسل الخطابي المتواتر، الذي أضناه الهجر والبعد والحزن.

أحَبَّك مثلي، فارتضيت وداده   ومازال أوفى منك عهداً وأصدقا
أعان على البلوى، كما شاطر الهوى   وودعت لم تعطف، وسلّى وأشفقا

* * *

لقد كنت معنى الحسن في الحقل والدُّجَى   وفي النسمة الحيرى، وفي الماء رَيِّقا

وتاللـه مـا أدعوك للـحبِّ والجَنـى ولـكـنـنـي أهـواك لـلـطـهـر والـتـقـى
وبا بحر، هل أدعوك للشمس مَغرِبا وقد كـنـت للشـمس الحـبـيـبـة مَشـرقـا

* * *

لا تقولي أهواك

هذه قصيدة طويلة، تقرب أبياتها من الثمانين، وقليل عند شاعرنا النفس الطويل في الشعر، وليس ذلك لعجز فيه، غير أنه مثل الصانع الماهر، الذي يحدد ما يريد وما يحتاج، فيرسم توجهه ومساره، بدأه ومنتهاه، وذلك خلق الإتقان، فالفن ليس ملهاة، وليس خبطاً عشوائياً، ولكنه فن عال وأداء بقدرة خارقة، بعيداً عن الفوضى والتلقائية، في استطرادات، تملأ فراغاً، ولكنها بلا محتوى، ولا تفضي إلى نتائج ذات قيمة.

الخطاب في هذه القصيدة: «لا تقولي أهواك»، أشبه بقصة، تعرض مسار حياة أديب - شاعر، يتقن الحديث والوصف عن حاله، ويستعرض من خلال الطرح رحلة عمر، عاش صاحبه بفكره ووجدانه، ويلي الناس والزمن، وخاض تجارب الهوى.. من كل تياراته ورؤاه ومساربه وانعطافاته، بالنجح فيه والإخفاق. إنه إنسان يحكي قصة بألوانها وحقائقها، عبر تيار متجدد.. فيما يسمى الحياة، التي

عاشتها الملايين، ومايزال الخلق والأيام في صراع البقاء والدوران، ليس لأحد من الأمر شيء.!

إن الفلاسفة يتأملون الحياة، حين يقفون على ربوة.. أو في مفترق طرق، يديرون حسابات لأنفسهم ولمن حولهم، حال مراجعة، نفس إنسانية في الحياة. والمرء يجوب الأيام، في صعود وهبوط، يصيب ويخطئ وهو يكدح في مساره، وهو حريص أن يحقق مبتغاه إن استطاع. هو يسعى.. ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، لكنه لا يملك ولا يستطيع تحقيق آماله وأحلامه وطموحاته، إنه يعمل ويتراجع.. حين يدركه الأين، ويضطرب شاء أم أبى، هناك مقادير تسيره، لا يملك معها.. إلا تحسس خطواته وما يستطيع، مدركاً.. أنه مسير فيما لا يملك، مخير فيما يملك، وخياره قليل جداً بالقياس إلى مساره الحياتي. يتنازعه صراعا الخير والشر، وهو بينهما أسير أهواء وهموم وامتحان كبير.. متصل الحلقات، لا يتوقف حتى يقضي ويودع الدنيا، وحين يعي ويعقل.. يردد كما قال الفاروق رضي الله عنه: «ليت أم عمر لم تلده»، ذلك حين يدرك العقلاء، وهم الذين يشقون في الحياة.. كما يقول المتنبي، في حياة «قليلها حساب وكثيرها عقاب» كما قرأنا في محصلة الدنيا والحياة. ما عليك أكثر مما لك، حتى وأنت حذر خائف، تخطو بحساب، وتعمل بحساب، وتحاول أن تتجنب المكاره، ليست المحفوفة بالجنة، وإنما مكاره الحياة،

ذلك أن الإنسان خلق في كبد.. كما يعلن الكتاب العزيز وفي النفس شهوة واشتهاء، وهي التي حفت بالنار، والحرمان.. لا يقدر عليه إلا أولو العزم؛ وهم قليل، وأقل من القليل اللهم رحمتك.!

إن هذه القصيدة.. التي أفضت بي إلى هذا الاستطراد.. الذي لا أريده أن يطول، هي التي تحمل قارئها غير العجل، إلى الرَّيث.. ليحلق مع الشاعر المصور، يتأمل ويفكر.. فيم يسوق هذا الشعر من ألوان تحفل بها الحياة والناس؛ عب تجارب ومعايشة قاسية. فالمرء يلهث، وليس هذا اعتراض على تقدير الله، فهو سبحانه: ﴿لا يسأل عما يفعل﴾، والمه في تقديري.. أن الإنسان ذو دوافع في داخله، نحو الآما والطموح والطمع والامتلاك والهلع.. فهو كما يصوره خالقه ﴿إذا مسه الشر جزوعا، وإذا مسه الخير منوعا﴾. ومن أجل ذلك يشقى في تكالبه في خصم على الحياة، فهو مطالب أن يعمل لكي يعيش، وحوله صراع الأطماع والجشع والذل والخوف، والكذب والخداع والغش.. وسوء الأخلاق والاقتتال. أتون من القلاقل والصراعات.. أشبه بشريعة الغاب، التي يضرب بها المثل، فأين المفر؟ وكيف السبيل.. في هذه الغا التي منطقها الاقتتال والقوة، من أجل انتصار.. كيفما كان معطياته ونتائجه، المهم الحصول على أكبر قدر من القو وحطام الدنيا، لا يهم السبل التي تسلك لتحقيق ذلك، ولكن

المهم.. هو ما اصطلحنا على تسميته بالغاية، وأي غاية في حياة - نعيمها تنكيد - كما يقول أمجد الطرابلسي.. في قصيدته «دنيا المتنبي».

سأسوق نماذج من أبيات هذه القصيدة، التي رأيت أن أتوقف عندها، لأنها خليقة بذلك، إذ فيها تصوير حياة تعيشها، وليس عنها محيد، وإن كان عنوانها.. ومنطلقاتها «الهوى» وعقابيله وهمومه، ولكنه قاد إلى تحليق بعيد، يصور مسيرة الحياة كما هي في واقعها، لأن المتحدث رجل بارع عبقري، يملك زمام البيان والبلاغة والحجاج، واللفظ والمعنى. وهذا هو الشعر الحق، الذي ينبغي الالتفات إليه، والاهتمام به، والأخذ منه، وتأمله وإدراك أبعاده ومراميه، ذلك أنه ليس شعراً سطحياً، لا روح فيه ولا حياة، مثل ما نرى ونمر بألوان تافهة فجة، وهي عبء ثقيل، لا يفضي إلى شيء، لأنه خال من المضمون، لأن قائله لا يحسن سواه.

إذن سأقدم نماذج من القصيدة، فهي رباعية وخماسية وفق قوافيها المطردة المختلفة، ولكني سأقف عند أبيات بعينها، رأيت أنها جديرة بالتوقف، عندها، لإجراء تحاور حولها، فهي تغريك بألفاظها ومعانيها، والقصيدة كلها.. أنموذج رائع في قوة أداء وبديع نسيج، وجمال عرض، ومهارة ارتقاء، لشاعر صنّاع، وحسبك بذلك قيمة، لتجد شعراً.. بالمعنى الواسع لكلمة شعر، من شاعر قل نظيره في عصره، بل

ندر. والمتميز قليل ونادر.. في كل زمان ومكان، وإن كانت الدعاوى، وهو ما أفسد الإفهام والأذواق، وهو النمط الخواء، الذي يشيعه المتنطعون والمتفيقهون والدجّالون والمرتزقة من بعض الكاتبين، الذين يملأون أنهار الصحف والمجالس ضجيجاً وعجيجاً، بما يلفقون ويخرقون من ادعاءات باطلة وفاسدة، أمام وخلف ومع شاعر، أي شاعر، بأنه قد أتى بما لم تستطعه الأوائل، إنه نفاق متجدد، لا سوق له ولا قيمة، ولكن هذا النعيق المزعج.. سرعان ما يذهب هباء، لأنه كذب وبهتان، وبضاعة كاسدة، لسلعة أكثر كساداً. ثم يسدل الستار، كما هي الحال في مسرحية هزلية، مثل مُغنّي الحي، الوقت معها ضائع. وصدق الله القائل: **﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً﴾**. فالحمد لله أن هذا العبث لا يطول بقاؤه، لأنه زيف رخيص، مثل الزبد الذي يذهب جفاء، لأنه لا ينفع الناس.

إن مطلع قصيدة شاعرنا: «لا تقولي أهواك» وهي خطاب.. لا نموذج هوى. ولعل الهوى يسوق إلى تأملات جادة قوية رصينة، لأن الهوى انفعال نفسي، فتبدي ما يعتمل فيها، ويحلق الخيال.. في الكون العريض، يستعرض الحياة وأهلها، وهي حال من العرض والتنفيس والتصوير البديع عند المجيدين، ليكون هذا الزاد الثر والثري، وهو من زاد الحياة.. الذي يركن إليه، استمتاعاً ودرساً وعبرة وذكرى، ونحن

تضطرب في حياتنا العامة والخاصة، وهذا هو الأدب في الحياة، تصوير لها، لأنه لها ومنها. وجميله القليل.. ما يبقى زاداً من زاد ثري وقليل، في تعبير ذي قيمة، لأنه وجدان صادق قوي ورائع، ذلك أنه عطاء فكر نيّر مجيد، وهو الباقي مع غيره في الجديدين. فإلى الشعر:

يا بقايا الشعاع من ألق الشمـ ـس، مُحَيِّي البطاح عند الغروب

بعد هذا المطلع الذي يصور بقايا شعاع الشمس المتألق، نقرأ البيت الرابع والخامس في خماسية قافية من مجموع قوافي القصيدة البديعة، وبعد هذين البيتين، يبدأ الخطاب للحبيبة، وهي حبيبة الأمس، ليس اليوم أو الغد، والبيتان في المقطع الأول، يقول الشاعر.. ما جدوى الحديث الذي يصور لهفة النفوس.. في ارتجافها وقت الوداع المخيف الرهيب، والصمت في هذا الموقف حالة وتعبير، عن نفس ونفس، باق وراحل، الصمت المفزع والمزعج، يرى في خفاياه.. أبعد وأعمق خفايا القلوب. إنه تعبير رائع متجل سابح، شائق وقوي، دقيق، لأنه خيال فيه عمق من خوالج النفوس، والشاعر ذو تجربة، وهو ملهم موهوب.

ما غناء الكلام عن لهفة الأنـ ـفس، في موقف الوداع الرهيب؟
ربَّ صمت أدّى، وصوَّر عن رو ح لروح، أنأى خفايا القلوب

ولكي لا يمتد الاستطراد ويطول، فإنني سأتوقف مع أبيات بعينها.. من هذه القصيدة الطويلة، وهي سرد لمرحلة من حياة، في تصوير جمالي، لأن المتحدث شاعر موهوب، ذو حس عال، وذو قدرة على نسج قريض أخاذ، وناثر قليل المثال، والشاعر المبدع، ذلك الذي لا حشو ولا فضل كلام في قصيده، ولكنه يبدع صناعته، ليملأ الأسماع، ويمتع الأذواق، برؤاه وتخييله، في سبح يوشيه بيان ناصع كالصبح وبلاغة ثرة، ومعان.. ترقى إلى عالم السحر البياني، الذي يشغل سامعه وقارئه، ذلك أنه جمال من الجمال، وهو الشعر الحق المطرب، والمعرب عن خصائص الشعر.. الذي يربطنا بالشعر القديم القوي معاني ونسيجاً ولغة وتحليقاً، لذلك بقي أكثر من خمسة عشر قرناً، لم تذبه الأيام، ولم تطوه الدهور، لأنه قيمة فيها تلك الخصائص المتميزة الرائعة، لأنها معنى رفيع.. خليق بالبقاء، ذلك أن بقاءه فيه، في أعماقه.!

وشاعرنا في هذه القصيدة وأمثالها، كأنه يقدم ملحمة، يتجلى فيها، من خلال تصوير حياة، يكتنفها الجد والهزل والمتغيرات والطموح والأطماع والصراع المتصل، والنجح والإخفاق.. لمن يضطرب فيها، والشاعر المجيد مهندس، يرسم بريشته رؤاه.. عبر مسارح طموح، كأنه ينشئ ويصور أبراجاً ومتنزهات وحقولاً وقصوراً، وليالي طوالاً، حفيلة بما يترع فيها ويبرم ويشار. إنها حياة كل ما تعني هذه الكلمة من عمق

ومعطيات، وما ينداح فيها من تشكل وتجدد ومتاع، ويسر وعسر، وسعادة وبؤس، واستمتاع وحرمان وغنى وفقر، وصحة وسقم. مسرح كبير.. كما يقول يوسف وهبي.

فاعرفي يا حبيبة الأمس أن الـ ـحب لجوى ونشوة، وشعور
لا هياماً مقيّداً بدواعيـ ـه، وقولاً به اللسان يدور
أو غليلاً يرى الرغائب وِرداً يستوي عنده التُّقى والفُجُور
والهوى يا حبيبة الأمس وهم، استرقّت به النفوسَ النفوس
وأعبدي أمسي، وقد كنت في أمسي دنيا، يَلُفُّها إعصار
لم يكن لي فيها خيارٌ فأسلمـ ـت حياتي، وما لعانٍ خِيارُ

* * *

ذاك حب الزهور للجدول الحا فل ريّا، كيْلا تجفُّ وتَظْمَا
منّة لا أطيقها، ونفاق عفتُه، والهوى أعَفُّ وأسمَى
فأنا اليوم بين أطلال يأسي ، طلل للرّياح فيه عزيف

* * *

الهوى، يا حبيبتي، قد بلوناه فراحت غاياتُنا فيه صرعَى
هو نار وقودها قُدرةُ الحبّي على أن يظل للنار مرعى
والمودات تشتري الجد بالهز ل، وتُعطي وتْراً لتأخذ شَفْعا
والمروءاتُ تقتضي بمساعي الـ جود صيتاً - على الرياء - ونفعا
والعباداتُ ترتدِي مظهر الخيـ ـر على أفظع المناكر درِعا

إنه ترحال شاعر في مرحلة عمره، ننتقل معه حيث صار. وحيث توقف نتأمل شيئاً من أشواطه، وليعوج في وقفاته ببصيرته، يفلسف ما يرى وما يُحس، ويعلل الأمور.. على مقتضى الواقع المعاش، مهما حاول هذا الواقع.. أن يرتدي براقع وغلالات ليخفي أشياء، ويحاول تغيير ملامسها وسموتها، إلا أنها في خيال وعين المبصر، ليست على حقيقتها، وليست صحيحة.. في موازين الصدق والحق، وإنما فيها تزوير وتزويق وبريق، ليخفي العيوب، في تصنع ومين وخداع.!

شيء من بيان، لموازين الحب، حديث هامس ومتاع وارف وإحساس متوهج. ذلك هو الحب الحقيقي. وليس إطراح اندفاع نفس هائمة وحالمة يحكمها قيد ذي شعب. وليس كلاماً يردده اللسان. وليس ظمأ، ينال بدوافع النفس، يلتقي ويتساوى فيه تقي وفاجر، الحب ليس تلك النماذج التصويرية المنداحة على الطريق، ينال منه العابر بأحواله المختلفة ومشاربه، ولكنه شيء آخر مختلف، وهو كذلك صعب وعنيف، وحرمان وعناء لا حدود له!

* * *

وأعيدي أمسي، وقد كنت في　　أمسي دنيا، يَلُفُّها إعصار
لم يكن لي فيها خيارٌ فأسلمـ　　ـت حياتي، وما لعانٍ خِيار

وهل إعادة الأمس شيء متاح؟ وهل هو بيدها، وهل هي قادرة؟ خيالات شاعر سابح فيها يشبه الأحلام والوهم. إنه يريد عودة كيانه.. الذي غاب عنه، بدواعي الحب الذي هام فيه.. من حالك «أنا أهواك» وما أفضت به. وأمس الشاعر وحاضره وغده، كل ذلك.. ليس له فيه رأي، وربما كان يعني ما جد من الأغيار، فهو إذن أسير ظروفه. وليس له خيار، لأنه ليس له من الأمر شيء..!

إنه في أطلال اليأس، والطلل وحده بقايا حياة في القلوب، صوحت بها الأيام، فكيفها حين يلفها يأس؟، إنه يشبه الرماد الذي اشتدت به الريح في يوم عاصف، وهذا الطلل المتجوف.. تتخلله الرياح، ليكون له صفير وصوت فيه يأس!

ويعلن الشاعر.. أنه عاش الهوى، والأهداف أصبحت صرعى، لا قدرة لها على امتلاك ما تهوى النفس، ويصف الشاعر الهوى بأنه نار، وطاقة الإنسان هي وقوده.. تأكله طوال حياته، ومادام يعيش أتون الحب.. فإنها ترعى فيه. والعواطف تنال بالهزل والجد، فهي مقابلة ضيزى، أو قل غير متوازنة، فالود يقدم أقل مما ينال، أي واحداً لقاء عشرة. والمروءة تنال صيتاً بمعطيات الجود ومظاهره ومقتضياته، وباطن هذه الظواهر زيف وزور، ومع ذلك تحقق منافع

ومصالح، ذلك من مسالك الحياة وشجونها. كما أن كثيراً من العبادات، وهي فروض نحو الخير والثواب، ومع ذلك.. فظواهرها أو صورها الإنسانية الخيرة، تتدثر بالنكر الفظيع. والشاعر في هذا الوصف.. أصاب كبد الحقيقة.. وهو يتعمق سلوك بعض الناس وظواهرهم.. التي تكذبها حقائقهم، فمسوحهم غير دواخل نفوسهم، ليقال إنهم تقاة وأخيار ﴿ويريدون أن يحمدوا بما لم يفعلوا﴾.

ونرى الشك يتلبس الشاعر، وأن التي تقول «أهواك».. تدق دفوف الغاب. ورائع كلمة دفوف، وهي دفوف كاذبة، كما يقال شريعة الغاب، استبداد وتسلط والنصر فيها للقوي والقوة، والحياة كلها كذلك. وزهير يقول: «ومن لا يظلم الناس يظلم». كما يقول: «ومن لم يذدد عن حوضه بسلاحه يهدم». لذلك يقول شاعرنا للتي تعلن أنها تهواه:

لا تقولي: أهواك، إن بعينيـ ـك حنيناً إلى دُفوف الغاب

ويرجوها أن تترك له بقية كيانه الواهي، الذي وَهن وتصدع وأضناه الصراع في عباب الحياة، ليلتقط أنفاسه ببقية قواه:

فدعى لي بقيةً من كيانٍ واهنٍ آده صراعُ العُباب

ويعلن الشاعر أنه والحب ومحبوبته غرباء، والحب حاجتهما، ولعلهما لم يقويا على تحقيق ذلك المطلب الصعب

ويشعران أنهما تائهان في سبيل الحياة والبقاء. وجميل قوله، وهو أن الهوى جمعتهم أسبابه، كما يتلاقى ضدان، صورهما بأنهما صائد.. ومصيد. ويذكر أنهما انتشيا بهذه المصاحبة، ثم يستدرك، كأنه أحس بشيء من غبن، حيث ضاع قطّه، في همي الألم والنكران:

ألِفْسنا، والحب مطلبُ نفْسَيْـ نا، غريبين في سبيلِ الوجود
وانتشينا - بل انتشيت - فقد ضا ع نصيبي بين الأسى والجحود

وحمزة شحاتة.. لو عنى به الدارسون الحقيقيون، الذين يحفلون بالشعر الرائع، لو أتيح لهذا الشعر من يتعمق في معانيه.. ليستخرج لآليه، لانشغل به الناس، كما انشغل القدماء والمحدثون بالشعراء الفحول، ومنهم، بل في مقدمتهم أبو الطيب المتنبي، فهل يقيّض الله من يفرغ لهذا الشعر وحتى لنثره، وربما تكفي محاضرته الرائعة.. التي ألقاها في جمعية الإسعاف: «الرجولة عماد الخلق الفاضل». أكبر الظن أننا سوف نظفر بدراسة تظهر جمال وروعة هذا الشعر البديع القوي الماتع، لأنه خليق أن يعنى به، لفظاً ومعنى ومعطيات ومعاني، وإن هجرانه اتهام يلاحق القادرين، وتقصير يحسب عليهم. وإدانة سيحملها التاريخ في صفحاته الثرية بالكبار والنوابغ والعباقرة والعظماء، فالأدب الذي فيه إعجاز سيبقى ما بقيت الحياة؛ لأن معطات بقائه تكمن فيه.

لا تقولي: أهواك فالحب قيد … ودواعي الحياة ضدُّ القيود
إنما أنت زهرة ذات عطر … نم عن مطلب الوجود شذاها
وسواء عند الزهور، إذا رفَّ … سناها، من صانها أو جناها

* * *

لا تقولي: أهواك، لست بسكرا … ن فأهفو، أبَعْد ما جفَّ كرمي
شاكياً ما لقيت من عنت الدنـ … ـيا إليها، إن الطبيعة أمي

* * *

لا تقولي أخشى عليك العوادي … ، أي شيء أبقتْ عواديك مِنّي
وكليني لوحدتي في زوايا الصـ … ـمت، أسري على غياهب حزني
وتناسَيْ عهدي البئيس، فإنْ شا … قك أمري فسائلي الليل عني
فأنا فيه قطعةٌ من دياجيـ … ـه، عداها عن اليقين التَّظنِّي
فلقد طال بالحقائق للنا … س افتقادي، وفي الحياة عِثاري

* * *

تعس العقلُ إنه خانقُ الفر … حة في النفس يتَّقي عُقباها
فهو للحس والمشاعر قيد، … شل أحلامها، وعاق رؤاها
طالما هام بالموارد ظمآ … ن، فلما واتى الوُرُودُ أباها
تعس العقل هائماً بالنهايا … ت، يراها حِسُّ النفوس سفاها

شاعرنا يهيم في الهوى، ولكنه هوى غير ما عرف الناس وألفوا، ذلك أنه لا يريد قيداً، والهوى لابد له من قيود، وليته

قيد واحد، ويعلل رفض القيد، لأن سبل الحياة ومتطلباتها - كما يقول - ضد القيود، فإذا كان يعني بذلك الحرية، انطلاقاً من مقولة ابن الخطاب رضي الله عنه: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً»، فأنا معه، غير أن أحكام الهوى.. لها عللها ومتطلباتها، وأهمها التسلط والتحكم والقيود.. التي لا محيد عنها، فهوى وحرية مطلب يوشك أن يكون مستحيلاً، وشاعرنا نفسه يدرك ذلك، ولكنه يعلن أنه ضد القيود ورافض لها، إذاً لا هوى، لأن الحرية تعني الانطلاق.. وعدم الالتزام والتحرر من التزمات كثر!

ويعرج الشاعر إلى وصف المحبوبة، بأنها زهرة عطرة، ينبئ شذاها عن متطلبات الحياة، لأنه جمال، والحياة متاع، والعطر والجمال ترف، والزهر يتفق ويتساوى عنده.. فالزهرة إذا تضوعت وانتشر عبقها، فذلك معطاها، سيان عندها الذي يحافظ عليها ويرعاها ويحفل بها ويستمتع بها بمختلف الأساليب، والذي يقطفها.. ليعبث بها ويتظاهر أنه حفيل بالجمال والعبق، ثم يرمي بها يمنة ويسرة، غير مبال، لأنه لا يهمه شعور وإحساس الزهر، وهو في ذلك غير مدرك لقيمة الجمال.!

ويكرر القول لهواه.. ألاَّ تقول: أهواك! فهو في صحوه، وليس غائباً عقله.. حتى يهفو ويميل ويندفع، والعلة أن زمن

الميل ودواعيه انقضت. والربط بين السكر وجفاف - الكرم -، لفتة شاعر عبقري، وكان يمكن أن يختار غير الكرم لأداء المعنى والقافية، ولكنه قصد، وهي قدرة شاعر فنان في ألفاظه ومعانيه وأهداف تفكيره.

وتراجع الشاعر عن الهوى، إنما مرده فقد الأمل، وأن الأيام لم تنصفه، فهو يشكو الزمان، ويشكو الأيام إليها، ولذلك فهو يعبر عن حاله، ويعلن أنه ابن الطبيعة، فربما كانت أرحم وأحنّ وأجدى!

ومع ما حل به، إلا أنه باق بإرادته وقدراته وصحوه وإبائه وشممه، ولا يريد من الحبيبة تعاطفها وحرصها.. على أي نحو كان، لا يريد حتى نصحها ووصاياها، من عاديات الزمان.. أن تلم به فتؤذيه، إذا لم يكن عنده حماية ووقاية ورعاية من يهوى، لأنه مدرك.. أن حوادثها وأعراضها وهمومها.. جردته، ولم تبق فيه شيئاً، وربما كانت عوادي الأيام أقل مؤونة وتبعة وآلاماً! «**أي شيء أبقت عواديك مني**»، تعبير متقن، من ذي منطق ملهم!

ويقول لها: دعيني وحيداً وشأني، بعيداً، يكتنفني الصمت، إنه ينفّس عن حزنه المظلم، إذ لم يعد له مطلب وأرب ونفس توّاقة إلى الهوى والفراغ. ويريدها.. أن تنسى أيامه، فقد كان بؤساً، ربما ناوشه ضياع وهموم، وإذا ودّت إدراك

حاله وشأنه، فلتسأل سميره الليل، وهو طويل.. بالقياس إلى المحرومين وسهارى الألم والحزن والبؤس. فالشاعر جزئية من ظلامه، ونفسه تصطلي في شجوها، مما أبعدها عن إيمانها ورؤى النور، حيث أبعدها الاحتراق عن سبل الهناءة والاستقرار والرضا.!

وخلال هذا السرد القوي المتين، يعلن أنه غاب عن الناس، وهي حال مؤكدة، لأنه يعاني في الحياة شروراً وإحناً وضنكاً. ويتجه الشاعر إلى العقل، فهو مكبل عن الفرحة التي تسعد بها النفس، فيحرمها لحظات صفاء وهناء، والعقل عند الفلاسفة سراج، يخشى العثار، ويخاف عواقب الفرح، لأن الدنيا كما يصفها الخليفة عمر بن عبدالعزيز رحمه الله، تسر قليلاً وتجر هماً كثيراً؛ هكذا ديدنها وشأنها. ويؤكد الشاعر أن العقل يكبت الأحاسيس والمشاعر، ويعطل أحلامها، ويعيق رؤاها،. فلا تأنس بزهو.. ولا ما يفرحها، لتعيش لحظات جذلى، تغمرها بارقات الحياة.. الرفافة، وأنه - أي العقل - كثيراً ما طاف وتطلع إلى الورد وهو ظامئ صدي، ولما أتيح له المورد.. الذي أضناه الوصول إليه، رفض ما كان يبتغي وينصب ليصل إلى شيء من ذلك، ومرد ذلك العقل.. الذي يشقى به الإنسان، على رأي المتنبي، والحس كذلك، الذي يترفع دائماً.. إذا أدركه شيء من تردد وحواجز ولغوب. ويعود الشاعر يزدري بالعقل وتسلطه وتحكمه، لأنه يشغل

بالعواقب.. وما هو خاف وراءها، إنه تخوف إدراك واع، على حين نجد العواطف تندفع نحو رغباتها.. لتنال منها ما تريد، وليكن ما يكون بعد ذلك، لا تأبه بالكوابح ولا بالنذير. والحس في التقدير عينه يرى أن الهيام بما سيكون من نتائج سفاهة، تفضي إلى ضياع الفرص والاستمتاع بلعب ولهو وزينة الحياة. وتنتهي هذه القصيدة.. التي جمعت أطرافاً من متع الحياة وهمومها.. في وصف أخّاذ قوي، طاف بنا عبر تخييل ورؤى شاعر مجلٍ مجيد؛ ذي قدرات شتى، تفضي إلى هذا اللون من الشعر الممتع للنفس، فتجد فيه نفسها وسلواها وهواها، لأنه وصف للحياة.. التي يضطرب فيها الأحياء من الناس، والذي يتقن تصويرها على حقيقتها هو خيال شاعر موهوب، ذي حس شفيف، وإتقان بارع لنسيج رائع.. يبقى مع الأيام مؤثراً، لأنه صادق وفيه مقومات البقاء، التي تحفظ الشيء ذا القيمة، لأنه قيمة.!

أبيس

أمامي بعض قصائد لشاعرنا حمزة شحاتة.. مثل «غادة بولاق»، التي نشرت في الديوان.. بعنوان «نفيسة»، نهاية، «لغز الحياة»، - حظوظ، «فلسفة حائر»، وكلها قصائد جياد، نسيب وغزل. وحتى لا يطول الوقوف.. في هذه الورقات،

وكذلك الوقت لا يسعف.. لأتوقف مرات متعددة رأيت أن أكتفي بهذه القصيدة.. التي أسماها الشاعر «أبيس». ولعلها واحدة من قصائد أخرى، تهتم بموضوعات متصل بعضها ببعض، وأكبر الظن أن الشاعر.. في ساعة من ساعات ضيقه بالحياة والناس مزق ذلك الشعر، وربما كانت القصيدة هذه.. بعيدة عن يده، أو منها نسخ لدى بعض الصديق، فأتيح لها.. أن تدخل الديوان، وهي كما أظن «بقية» من قصائد طوال، نظمها الشاعر، خلال أيامه.. قبل الأخيرة، ناقماً وساخطاً على ما حوله، فصاغ سخطه شعراً، يصور تبرمه بما حوله وضيقه بما يجري من نكر واستبداد وظلم وباطل، وما أكثر الظلم والباطل والاستبداد.. في هذه الحياة، التي أرخص شيء فيها هو الإنسان وليس سواه، وإنما كل شيء غال، والإنسان أرخص السلع في أسواقها. إنه «أبيس»، كما تقول مقدمة القصيدة، ولست أدري، هل هذا التعريف.. كتبه الشاعر أم غيره، وقد لا يعنينا ذلك كثيراً. و- أبيس - حسب الشرح والتفسير المدون كبيان للاسم هو: «عجل ذو صفات خاصة، جعله المصريون القدماء رمزاً للقوة الحيوانية، وقدسوه، وهو في هذه القصيدة رمز لحاكم معين». وأترك المقدمة، وأكتفي بتعريف العنوان، لأتوقف مع الشعر وقفات.. لا أدري هل تطول، أم أني أكتفي بإلمامة قصيرة، مما توحيه القصيدة وتلم به، وأكبر الظن.. أن التأمل فيما تحمل القصيدة من معان

وتصور.. لما أحس الشاعر وشاهد وعاش تدعو إلى وقفة لا تكون عجلى، فقصيدة طويلة، تتحدث عن مصاب.. ينبغي أن تأخذ حقها من الحديث الممعن.. في التأمل، ليس بعيداً عن جو القصيدة، وإنما من معطياتها، وما تحمل من رؤى وحياة، يصوره هذا الشعر الصادق الحي النابض.. الذي جاشت به نفس الشاعر، والنفس وحس الإنسان لا يجيشان إلا في عظائم الأمور، وحين يبلغ السيل الزبا، كما تقول العرب، و« يفيض الإناء ويطفح » بما فيه، مما يكرب النفس، فتجأر بالشكوى العارمة، والتعبير ثاني أدوات الإنكار لما يجري من نكر على الأرض بين الناس، فهو استبداد الأقوياء، الذي يطحن الضعفاء ويسلبهم إرادة الحياة، والطغيان.. ينساح في ساحات عريضة من دنيا الناس، وخالق الخلق ومبدع الكون رقيب حسيب، وهو سبحانه يمهل، فإذا أخذ، فأخذ عزيز مقتدر، وأخذه أليم، حين يعم الفساد والجور والبطش، ويعلو صوت السخط والشكوى إلى عنان السماء، **﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون﴾**، كما يعلن الكاتب العزيز. والطغاة يتمادون في غيهم وطغيانهم. وأخذ الله لهم أليم شديد. غير أننا ونحن نستقرئ التاريخ.. لا نرى عبرة في عقاب الظالمين، ذلك أن الظلم.. يتجدد ويستشري؛ كأن الظالمين على أعينهم غشاوة، فهم في عمى، لذلك يجنون العقاب الذي لا يبقي ولا يذر، جزاء ما أسرفوا واستبدوا ودمروا..

والحال تشمل قروناً وحاكمين وذوي طغيان، كعاد وثمود وقوم نوح عليه السلام، وكفرعون وهامان وقارون، إنه عقاب السماء، - جزاءً وفاقا -. ولكن الناس لا يعتبرون، لأنهم حين يتجبرون وتأخذهم الكبرياء بالإثم، لا يرون عبرة ولا هدى، ولا يرون شيئاً من حق، وإنما سبيلهم الظلم، وجزاؤه العاقبة الوخيمة، فالإنسان يطغى إذا استغنى وكان ذا نفوذ، فيتلبسه الجبروت - إلا من سلم الله - فيحق على الطغاة العذاب والذل والهوان، حين ينتقم الله منهم، لأنه سبحانه عدل، ويمتد حلمه ليتداح امتحان الظالم والمظلوم، ثم تكون العاقبة، وهي تدمير العدو، ويمكّن المستضعفين في الأرض، لينظر كيف يعملون.

إن قصيدة شاعرنا.. التي آثرت أن أقدمها على غيرها، جذبتني إليها، لأن الظلم والعدوان استشريا في الأرض، والناس يدعون.. فلا يستجاب لهم، لأنهم نسوا الله فأنساهم أنفسهم، حادوا عن الطريق السوي، فأذاقهم الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون، وحق عليهم قول ربنا: **﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾**، وقوله **﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾**. وحتى لا يأخذني الاستطراد، فإني أتعجل تقديم نماذج من القصيدة.. التي آثرت الوقوف عليها، لنرى معاً معطياتها ومضامينها، وما أراد الشاعر أن يقول فيها، ومن بدايتها يظهر فيها ضيق

الشاعر وقلقه وشكواه وغربته ولواعج الهوى، وجراح إبائه، وما يعاني من شقاء فيما يسمى نعيم ووعود الهوى، في عسر وشدة وحرمان. معانٍ شتى، وصور تتوالى تباعاً في حيرة وظلام، فهيأت إلى ما يمتح الشاعر من قلبه الدامي، وأشواق نفسه، وشقاه بشعوره وأحاسيسه، إنها نفس شاعر شفافة هائمة، في يوم الحرمان والضنك واللغوب، ولو كان من عرض الناس.. لما اشتد عذابه، ولما أحس بحرمانه ويأسه، ولما عانى هذا الكرب.. الذي نقرؤه في أكثر شعره، وأكبر الظن.. أن هذا الحرمان والعسر اللذين يثيران الشجن، وهذه الإحن.. التي ابتلى بها الشاعر فشقيت نفسه. كل هذا وغيره.. دوافع قوية، تشبه البراكين، تنفعل في نفسه، فيكون هذا الشعر القوي، الذي نقرؤه، ولولا ذلك، لما تفجرت هذه العبقرية، ولما ثار الشاعر، ليعلو صوته بهذا الإنشاد القوي الرائع، لأن الشجى يبعث الشجى.. كما يقال، فالحرمان وقود ملتهب، لإثارة كوامن النفس.. التي فيها جذوة الاستجابة، لما يعتمل في الحياة، وبالتالي يثير كوامن البركان في النفس الطموح، والفكر المتّقد، والقلب الخافق، من دواعي الرفض والتمرد على حياة الذل والركود والحرمان وتجريم الأبرياء، وأنين الحيارى، وعذاب النفس الإنسانية، من أجل أن تعيش حياة كريمة عزيزة، أو حتى حياة الكفاف. كل هذه العوامل من بؤس وكدح ومسغبة، وضياع الحقوق، واضطراب الموازين، الذي يفسره

الخليفة الراشد عمر بن عبالعزيز رحمه الله: «ما رأيت إسرافاً إلا وبجانبه حق مضيّع». فإلى الشعر دنواً واستيعاباً ورؤى:

ما اصطباري على الأسى وثوائي م ونِدائي مَن لا يُجيب نِدائي؟
جمد الدمع في مآتيَّ يا حب وقَرَّ اللهيب في أحشائي
عدت من غربتي إلى الليل والفجـ ـر، لكي يسمعا ترانيمَ نائي
ضعت في تيهك المحير يا حب تَمزَّقتُ في أسى بلوائي
وتساءلت في نعيمك: كم أشـ ـقى! وكم أرعوي بغير رضاء
كم أروض الإباء فيك على الصبـ ـر وأغضي على جراح إبائي
كم ألاقي العذاب منك، ولا أشـ ـكو، وألقاك بالهَوَى والولاء!
كم أخوض الأحزان راكب تيهٍ ضلّ في لا نهايةٍ سوداء
يا دروب الهوى تغطَّيْت بالور د على الشوك، غارقاً في الدّماء!
الضحايا من تحته مهج حرّ ى، ومن فوقه رؤىً شعراء
هكذا أنت، والمحبون، من قبـ ـلُ، فراش مسيَّر للفناء
رحلة تثمر اللغوبَ وخبط من حرير، يقتادُنا للشقاء

وتمضي القصيد بهذه المقدمة، التي تشبه المقدمات الطللية في الشعر القديم، خطاب شجو وتحسر ونداء.. لمن مضى، والمنادي - بكسر الدال -، غير مسمع. ويمضي الشاعر في هذه التقدمة المغلقة بالهوى وتوجيه اللوم إلى رموز شتى، منها بريق السراب في شكوى عازمة متراكمة عن غدر الهوى، فيقول:

يا بريق السراب! أسرفت في الجو ... ر وأثخنت في قلوب الظماء
أنت، أنت الهوى دنُّواً وبعداً ... في تصاريف غدره والوفاء
ووعود الهوى أجَلُّ عطايا ... م،، فهل برخص الهوى بالعطاء
وعذابُ الحرمان صوّر للعا ... شقِ أن الهوى زِمامُ الشقاء
غير أن الهوى يحول ويذوي ... كالرؤى والزهور والأنداء

ولا أبغي الخوض في أحابيل الهوى والانغماس في ركابه، فقد يدركني الغرق، ويعزّ المنقذ، ولكني أريد أن أنفذ إلى معاني هذه القصيدة، ولعلي أنهي هذه الوقفة، التي كنت أوثر أن تطول، غير أن الزمن يسرق الحياة ومن فيها أو أطويها على الأصح، لأدع الوقوف مع حمزة شحاتة.. لمن هو أقدر مني على الخوض في عباب هذا الشعر، ليعطي صاحبه حقه من التقدير، وللشعر نصيبه من القيمة التي يستحقها، ولاسيما القيمة الفنية، التي هي مرتكز الدراسة الجادة.. في تقويم الآثار ذات القيمة.

ويمتد الحديث عن الهوى في خطاب الشاعر المجلي، كأن الهوى مطية إلى تلك الهموم من الاستبداد والظلم والتسلط. ويمتد النَفَس بالشاعر. فيقول:

حبذا الوعرُ والعِثار، وأخطا ... ر الليالي.. سُرىً على الوَعثاء
ودروباً لا تنتهي، وعذاباً ... تتحداهما خطى التُعساء
عازفات عن الهوى ومغانيـ ... ـه، هُياماً بالواحة الخضراء

حيث لا ترتدي الصداقةُ أثوا   باً بلونيْ خداعها والرِّياء
حيث لا يطعنُ الرفيقُ رفيقا   بين دَعوى تقواهُ والإغواء
حيث تجفُو النفوسُ كل الحقارا م ت لتحيا بصفحةٍ بيضاء
لا كما تسرح السوائم في المر   عى، على فضلِ عُشبها والماء
في قيود من عيشها ودواعيـ م ـه وأمن من جهلها والغباء
حيث لا تُنصّبُ الشعاراتُ زيفاً   وفجوراً يُروّى ومحضُ افتراء
حيث لا تُمسخ النسور خفافيـ م ش، هوت فوقَ أرجلِ الزعماء
حيث تبقَ الصلاةُ تقوى وطهراً   لا نخاخاً للبيعِ أو للشراء
حيث لا يجبنُ الشجاعُ لما يخـ م شاه من سامعٍ بشي أو ورائي
حيث لا تخضع الجباة لغير اللـ   ـه، ربِّ البأساء والنعماء
حيث ما كان أو يكون سوى الحـ م ـق وصوت الهدى ووحي السماء
ربما تصدقُ المساعي فتنجا م ب غيومُ الأسى عن الشرفاء
لم تهن عزمة يساندها الإصـ   رار، لم يُلق رايةَ الكبرياء
وتؤوب الأوطار بعد نداد   ويعود الربيعُ بعد انقضاء
وكذا كل ليلةٍ تلد الفجـ م ـر فيُلوي بالظلمة الدكناء
وقطوب الغيوم بَشَّر بالغيـ م ـث، ابتساماً في البقعة الجرداء
ربَّ دانٍ نأى، ونـاءٍ تدان   رهن قيدين، صُبْحه والمساء

وكذلك وثب الشاعر من حيث الغزل وعنائه إلى ما يسمى «بيت القصيدة»: تجمز المعاني على لسانه، لتؤدي الألفاظ، وهي ترجمان لها، ما أراد الشاعر تصويره، بإرادة ورؤية شاعر شجاع، لا يهاب الإحن وأوضار الحياة، وهو

وكذلك وثب الشاعر من حيث الغزل وعنائه إلى ما يسمى «بيت القصيدة»؛ تجمز المعاني على لسانه، لتؤدي الألفاظ، وهي ترجمان لها، ما أراد الشاعر تصويره، بإرادة ورؤية شاعر شجاع، لا يهاب الإحن وأوضار الحياة، وهو يتحدث عن الحق والزيف والخداع والمين والغدر وحقارات النفوس الذليلة الهزيلة، التي تشبه السائمة، تهيم على وجهها نحو فضلة مرعى وصبابة ماء تبل الصدى، إذ تؤول المزايدات والشعارات زيفاً وفجوراً علانية، يكسوه الكذب والبهتان، وتمسخ النسور فتصبح خفافيش، تتداعى بين سوق الزعامات الخادعة المضلّة. والصلاة العبادة، تتحول إلى مصائد تباع وتشترى، ويطوّق الشجاع بالوشايات والجواسيس الخبثاء، ولكن تخضع الحياة لغير الله، ثم لا يكون سوى الحق وهدى الله. ويتمنى الشاعر أن المساعي قد تصدق، فتتحول الغمة عن الشرفاء، وأن العزيمة التي يحفها الإصرار.. لن تهون، ففي يدها راية الكبرياء. وترجع الرغائب بعد نفور.. ويزهر الربيع، بعد المحل والجفاف، مثلما ينبلج الفجر المشرق.. من جوف الليل، فيبدد الظلام الدامس، وتجمع الغيوم بشائر غيث، لتهتز الأرض وتربو، وقد كانت خاشعة **﴿إن الذي أحياها لمحيي الموتى، إنه على كل شيء قدير﴾**. وكذلك يبعد قريب، ويدنو بعيد. كما كان يردد الشاعر عبر خواطره الجامحة الدفاقة.

ونمضي مع سبح الشاعر وانثيال خواطره في هذا الشلال الدافق، البعيد المرامي، ولنقرأ معاً قوله:

يا سطوراً كتبتها بدمي الحُـ م ـرّ أنيري جوانبَ الصحراء
وابعثي في رمالها اللهب الثا وي، عهداً يفورُ بالأنواء
عهد عَمْرو يحيط بالنيل بحراً نبوياً، سرى بنور ذُكاء
وانشري في مواطن العَرَب اللا م هين ناراً مكّبة الآلاء
لتَقُصي عهد العباقرة السُّمـ م ـر، كتاباً يفيض بالأنباء
وأعيدي تاريخ مكة، في الآ م فاق، فتحاً يسعُ بالآلاء
لا هُراءً، يديره فم ملقيـ ـه، على الهاتفين والأجراء
استخفتهمو الرؤى والأمانيّ بيوم يأتي رفيرِ الغِناء
كالبراغيث ساقها الجوعُ والبر م د، وعاشت على دمِ الغرباء
إيه! يا وحدة تبشر بالخيـ م ـرِ براغيثَها، خُذي بالإناء
واملأيه دماً، من الجار والصا حب، باسم اشتراكهم في الإخاء
واضربي بالدُّفوف في حلقات الذ كر، رقصاً، وبرِّزي في الدّهاء
مايزال الخداع ميسمكِ البا م رز بين الصُّحاب والأعداء
فاركبي الرِّجس من طباعكِ يمّاً والبسي للرياء ألف رداء
لن تسودي، ولن تقُودي سوى تلـ م ك البراغيثَ، تحت كلِّ ادعاء
فالقوانين لا تجيز ولن تر حمَ من غاص في دم الأبرياء
ومن استعبَد الرقاب فاجرا م ها على حكمه بدعوى البناء
إن لله غيرةً وانتقاماً عصفاً بالطغاة، للضعفاء

عَمِيَ الظالمون عن سبل الحقْ م فهاموا في الفتنة العمياء
والمصيرُ المحتومُ يزحف في صمـ م ـت، لأعناقهم، بشرٌ الجزاء
محن الدهر تنقضي والضلالا م ت تُولي، والموتُ للجبناء

وأكبر الظن أنني في غنى عن شرح معطيات هذا الشعر، لأنه بيّن المعاني والتوجه، ومازالت القصيدة طويلة، ولعلي غير مضطر إلى أن آتي عليها كلها، إذاً، فأنا سأنقل منها أبياتاً، وهو ما أرى أنه ينبغي أن يكمل الصورة.. التي أرادها الشاعر، وحتى لا تكون الوقفة مبتورة، فأسيء إلى الشاعر من حيث لا أدري، ثم للمثقف والقارئ.. أن يرجع إلى القصيدة كلها في ديوان الشاعر، ليتأمل فيها، ويستوعبها، ويأخذ منها ويدع ما يشاء، ولن أفرض رأيي واختياري، ذلك أني امرئ، أعجبه هذا الشاعر أو ذاك، فرغب أن يصحبه، وأن يستمع إليه، ويعلق ما شاقه التعليق، بما تأثر به وأعجبه، وأشار إلى ما لم يعجبه! ذلك هو دوري اليسير.. في هذا التوجه ونحوه، مما أشغل نفسي به، وأنا أطالع ما يعنّ لي أن أختار، وأمر به من كتب الأدب.!

يا خيامَ الصَّحراءِ قد بَلَغ الصَّمـ ـتُ مَداه على أذى الغَوغاء
فاركبي، واضربي، على طول مَسرا ك، فلولَ الخَيال والخُيَلاء
الفُلولَ التي يُسَيِّرها ثَوْ رُ بَسوط الزُّعامة الجوفاء
صارَ معبودَها، كما كانَ من قبـ ـلُ، وقد خار مُمعِناً في الهُراء

وتحدّى بالظّلف والقرْن والذّنـ   ـل «وقد هاجَ» قدرةَ القُدَرَاء
مستخفّاً بالإنس والجنّ بالعا   لم طراً برفرف الجوزاء
ماضياً في خُواره بنُذر الدُّنـ   ـيا بويلات بأسه العسراء
فاختفي يا نجومُ قد أقبلَ العجـ   ـلُ، إلهُ الكُهّان.. والعُرَفاء
الذي صَيّر الخيانةَ والغَد   رَ شعاراً لعهده الوضّاء
والذي نازَعَ الرّغيفَ رعايا   هُ، فضاقوا بصيفهم والشّتاء
غاصباً من حقولهم ثمرَ الكد   ح ركاماً، أحاله كالهباء
فاذهبي يا رياحُ بالحَرث والنّسـ   ـل، وعودي بالأين والشُّؤَباء
وانسَخي آيةَ الحقار، وطوفي   بالعَوادي.. بالراية الحمراء
يا ألوهيّةَ العجول أفيقي   من خُمار الجنون والصّهباء
لم تَضق رقعةُ الخيال بعجل   سامَ عُبّادَهُ حياةَ الإماء
يا عقولاً تألّهَ العجلُ فيها   أيُّ قرنيه مُؤذنٌ بالعَفاء!
ليس يُلحَى عجلٌ، يَخورُ، فيُلقي   بينَ عُبّاده، بأيّ الثّناء(3)
جَلَّ، يا ثورُ من بَراكَ(4) وناجا   كَ على الطّور في ليالي الجَلاء(5)
وضَعُوا العجلَ حيث يَكدَحُ في الغَيْـ   ـط، ذليلَ القرنَين في استخذاء
حيث لا تَعبُد العجول إلهاً   من ذوات الأظلاف في الأهواء
حينما ألّهوا أبيسَ، فأصلا   هُمْ جحيماً.. مُستشرياً كالوباء
عن أبيس.. وعن عبّاد أبيس   وضحايا السّياسة الحَولاء
كَذَب السّامريُّ، ما كنتَ، يا عجـ   ـلُ، سوى فتنة بغير كساء
كيف لا تُعبَدُ العجولُ؟ وما تُخـ   ـلَقُ إلا للذّبح والاقتناء.
لِمَ لَمْ يُلزموكَ مأواك في الغَيْـ   ـطِ، لتَشقى بالحَرث والإرواء؟

لستَ إلاّ عجلاً تردَّد في الغَيْـ ط، وشيناً من أتفه الأشياء
لا لصونٍ، ولا لعَونٍ، تُرَجّى بَل للغو، يا سَيّدَ الفُصحاء
لم تَزَل حاملَ اللّواء وداعي عرقه الحَيّ في أبي الزهراء
قلمي إنْ بلغتَ غايتَك البو م، فحاذر ضَلالةَ الأدعياء
قلمي عشتَ كوكباً يرسلُ النُّو رَ، ويُعْلي هداية الأنبياء
رُبَّ طاغٍ عَتا، فساءَ مَصيراً حيثما ازداد وَهمُهُ في النَّجاء

وبعد:

فلن أزعم أنني بلغت ما أريد من خلال هذه النظرات العابرات، في شعر شاعر فحل، ولا أدعي أنني أرضيت نفسي.. بهذه الوقفات السريعة، ولا أرضيت الشاعر الطموح ونفسه المتطلعة إلى عظائم الأمور، ولا أرضيت منظمي هذا المهرجان. وحسبي أنني أخذت بزمام رؤية، دأبها التطلع إلى جمال الأدب وينعه، لأتزود منه بلغة نفسي.. فتتوق إلى الذي هو خير. وأعتذر كذلك، أني لم أتوقف مع أبيات هذه القصيدة الأخيرة الرائعة الطويلة «أبيس»، لأقول ما ينبغي أن يقال فيها، وإن كانت هي تتحدث عن نفسها، وهذه الرائعة.. أكبر الظن أنها في غنى عن تأملاتي، لأنها تفصح عن نفسها، وإعادة القول أو بعض القول، ربما كان حشواً، لا غنىً فيه، إذاً فعرض القصيدة.. يغني ويجزئ، لاسيما حين تعرض على

أولي الرأي من الأدباء والمثقفين، لأن لهم قراءاتهم المختلفة.. من زواياهم المختلفة كذلك.

وإنا جميعاً لنبارك هذا الملتقى، في هذا المؤتمر، وإن كان لي ولأمثالي من رجاء أن يتجدد، ليس كل ربع قرن مرة، ولكن كل خمس سنوات على الأكثر مرة، ولو كان لي من الأمر شيء، لدعوت إلى انعقاده.. كل عامين مرة. والله نسأل السداد والعون.

الهوامش

*) - ألقي ملخص هذا الموضوع في مؤتمر الأدباء السعوديين الثاني، بجامعة أم القرى في شعبان 1419هـ.

1) - مطالعات العقاد، ص 165.

2) - ص 406، رسالة دكتوراه، من كلية دار العلوم - جامعة القاهرة عن أبي الطيب المتنبي، بعنوان: المتنبي بين ناقديه، في القديم والحديث، صدرت عن دار المعارف بمصر، سنة 1964م.

3) - يلحو: يلوم ويعذل، ولحا الله فلاناً: قبّحه ولعنه.

4) - برأ: خلق.

5) - الجلاء: الخروج عن الوطن بعد الإقامة فيه.

* * *

من حديث الشعر(*)

زار الدكتور طه حسين.. في أواخر شهر جمادى الآخرة، من عام 1374هـ، الموافق شهر يناير 1955م المملكة العربية السعودية، وكان يومها.. رئيس اللجنة الثقافية لجامعة الدول العربية، وجاء معه وفد ثقافي مصري برئاسة الأديب الكبير أمين الخولي، وجاءت من بعض الدول العربية، مثل سورية ولبنان والعراق واليمن وفود ثقافية، لتشارك في الاجتماع، الذي اتخذت بلادنا يومئذ مقراً له. وكان وفد بلادنا برئاسة الأمير فهد بن عبدالعزيزو وزير المعارف آنذاك. وعقدت الاجتماعات في جدة. واحتفلت بلادنا كعادتها بضيفها على مختلف المستويات.

من ذلك مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر بجدة،

والشيخ محمد سرور الصبان، وكان يومها وزيراً للمالية. والتقى الدكتور طه والوفود المشاركة بأدبائنا ومثقفينا. واستمعوا إلى كلمات الترحيب وقصائد الاحتفاء من شعرائنا، في جدة ومكة والمدينة، وألموا بنهضتنا الأدبية. وكان ثمة أدباء كبار في البلاد، منهم كمثال: محمد حسن عواد، وأحمد عبدالغفور عطار، وحسين عرب، وفؤاد شاكر، وحسن عبدالله القرشي والسيد محسن باروم، ومحمد حسين زيدان، وعبدالله عريف، وعبدالعزيز الربيع، وحمد الجاسر، ومحمد سعيد العامودي، وعبدالقدوس الأنصاري، والسيد هاشم زواوي، ومحمود عارف والسيد أحمد عبيد، وعلي وعثمان حافظ، وحسن الصيرفي العقبي ومحمد هاشم رشيد وأحمد السباعي، وغيرهم من الأدباء والشعراء في البلاد. ومكثت الوفود في بلادنا نحو تسعة أيام، ثم عادت إلى بلادها. ويوم استقبال مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر لرئيس اللجنة الثقافية الدكتور طه حسين والوفود المشاركة والمدعوين، كان.. حافلاً حاراً، ولاسيما في الثناء على الدكتور طه وآثاره الأدبية. وحين وقف العميد يتحدث ويرد التحية بأحسن منها، قال: «منذ أن وطئت قدماي هذا البلد العزيز الكريم، أسمعكم تتحدثون عن رجل.. أوشك أن أقطع فيما بيني وبين نفسي أنني لا أعرفه. ردّوا أنفسكم إلى شيء من القصد، فلسنا

ضيفاً عليكم، وإن أردتم إلا أن نعيدها جذعة وأن نخاصمكم على هذه الأرض، فثقوا بأننا مستعدون».

وبعد عام من زيارة الدكتور طه لبلادنا، قدم الأديب الشاعر الأستاذ حسن عبدالله القرشي، ديوانه: «الأمس الضائع» إلى العميد، ليقدمه إلى القراء، فكتب عميد الأدب العربي المقدمة، وقال في مطلعها من الشعر القديم:

يمر الصَّبا صفحاً بساكن ذي الغضا ... ويصدع قلبي أن يهب هبوبها

إذا هبّت الريح الشمالُ فإنما ... جواي بما تهدي إليَّ جنوبها

قريبة عهد بالحبيب وإنما ... هوى كل نفس حيث كان حبيبها

ثم قال الأستاذ العميد: «كذلك كان يتغنى الشاعر الأعرابي في القرن الأول للهجرة، فيملأ القلوب شوقاً وحباً وحنيناً». ثم قال: وهذه نسمات من الحجاز، تبلغنا في مصر.. بعد أن طال العهد بنسيم الحجاز الأدبي، واشتد التفقد له، وملك الظمأ إليه نفوسنا التي كاد يحرقها الصَّدى. لقد سكت الشعر الحجازي.. فأطال السكوت، وأسرف فيه على نفسه وعلينا، وهو الآن يؤوب.. بعد غيبة طويلة، وينشط بعد هدوء أوشك أن يكون خموداً.

هكذا تحدث الأستاذ العميد، في مقدمة «الأمس الضائع». وذلك بعد أن زار بلادنا، وسمعنا نثراً وشعراً، بل

سمع صبية يحيونه شعراً، مثل الأستاذ محمد كامل الخجا. حتى قال من حديث المقدمة.. مشيداً بالنهضة الشعرية: «ويتغنى به صبية، سمعت بعضهم في المدينة، لم يكادوا يبلغون طور الشباب».

ويذكر الأستاذ العميد.. تغنى ابن أبي ربيعة، في بطاح مكة وظواهرها، وتغنى الأحوص في ساحات المدينة وما حولها، وكذلك العرجي، كان يفعل ذلك، بين تينك المدينتين المقدستين، حتى قال: «وهؤلاء شعراء الحجاز المعاصرون.. قد أخذوا يصلون القديم بالحديث، ويردون إلى الحجاز مجده الفني العظيم». وقال: «وعرفت أن قد آن لي أن أغيِّر ما قلته منذ عشرين عاماً، من أن الحجاز.. لا شعر فيه. وما أكثر ما تتغير حياة الأجيال.. في عشرين عاماً.. لم يكن في الحجاز شعر ذو بال، ولكن الحجاز الآن شعراً له خطر أي خطر، يتغنى به رجال قد كادوا ينفضون عن أنفسهم ثياب الشباب» إلخ.

لقد سقت هذه المقدمة، التي مضى عليها.. أكثر من أربعين سنة، لألج منها إلى شاعر ملهم معاصر، ليس خاملاً، غير أنه لا يأبه للحياة كثيراً، ولا يلهث وراء الشهرة، وهو قد عشق الفن، ولكنه لا يتاجر به، ولا يتخذه وسيلة للظهور، وإنما يراه فناً.. وإذا واتاه غنى وتغنى وأبدع نسيجاً رائعاً، لا يحفل به ولا يعده صنعة، وإنما هو مزاج خواطر تنداح، فيهتم بها

أحياناً ويهملها أحايين أخرى. رجل مزاجي الطبع، ونجده جاداً في عمله الوظيفي، في الجوازات والجنسية بجدة، وفي ديوان وزارة الداخلية، بصحبة الأستاذ إبراهيم العنقري، ثم معه كذلك.. مديراً لمكتبه في وزارة الإعلام، قبل نحو ثلاثين سنة. ذلك هو الشاعر الذي أتحدث عن بعض شعره الليلة، من خلال ديوانه المخطوط «النجوى». أقول لعل شعر السيد ماجد أسعد الحسيني.. يعرف به، لأن الشعراء المغمورين، وبعضهم شارك في هذا الإهمال، ينبغي أن يعنى بهم الدارسون والنقاد، ليظهروهم إلى الناس، ليقفوا على آثارهم شبه المنسية، لأنا أصبحنا في زمن، العناية قليلة في الاهتمام بالأدب الحي، لاسيما المطمور والبعيد عن العين، فيصبح هيناً على الخاطر.. كما يقول المثل السائر. وما أجدر دارسينا.. أن «يصلوا الماضي بيمن الحاضر»، كما يقول الشاعر.!

ماجد الحسيني، ولد ونشأ في المدينة المنورة سنة 1342هـ ودرس في مدرسة العلوم الشرعية بالمدينة، وتخرج فيها عام 1362هـ.

من رسالة السيد ماجد الحسيني، موجهة للأستاذ عبدالعزيز الربيع مؤرخة في 1964/7/14 وأظن أن صحة التاريخ هو 1364هـ. ولم يذكر البلد الذي يقيم فيه السيد ماجد، ولعله مدينة الرياض، لأن بعض أبناء المدينة نزحوا عنها طلباً للرزق.

قال فيها كاتبها: ويسرني أن أنبئك أنني أكملت المجموعة الأولى من ديواني - تحت اسم «نجوى» وهو الآن في مدينة النسيم، ويعني بها - الطائف - ليتصفحه بعض أدبائنا، وقد وضع له أحمد حوحو مقدمة[1].

أما الأستاذ حوحو فقد قال في رسالة منه.. من الطائف إلى السيد ماجد الحسيني: «طالعت «نجواك»، ووجدت فيه متعة وأعجبت به وبمعانيه الفلسفية، وكذلك اطلع عليه الأستاذ العامودي، وهو شاعر نقّادة، ولقد أعجب بمعانيه أيما إعجاب، ولكنه يرى أن أسلوبه أقل متانة وقوة من معانيه، فيرى في القصيدة الواحدة مثلاً أبياتاً بلغت درجة عالية من حيث المعنى والأسلوب، بينما يجد بعدها أبياتاً لا تقل قوة في معناها عن سواها، لكنها تقل عنها أسلوباً، فهو يعجب بمعانيك على العموم، وينصحك أن تكثر من مطالعة كبار الشعراء، وبالأخص ابن زيدون، وذلك لتكسب أسلوبه وألفاظه الموسيقية.. أما أنا - أي أحمد حوحو -، فإني أقول لك امض في طريقك قدماً، فسيكون لك شأن عظيم في دنيا القريض. فإنه لا يوجد في المدينة اليوم من يفري فريك»[2].

ونقرأ للربيع كذلك، وهو يتحدث عن صديقه السيد الحسيني وشعره فيقول: «ولست أدري كيف تقلص الديوانان - أي نجوى وأحاسيس قلب -. وكيف اختفت نجوى وأحاسيس

قلب، وتلك الثروة الشعرية الضخمة، لتحل محلها «حيرة».. في قزامتها وقماءتها»؟

ولعلي أقول، عن إعراض السيد ماجد عن طباعة ديوانه الأول «نجوى» أو - النجوى -، حتى استقرت التسمية للديوان. أن مرد ذلك في تقديري، ما أدرك من رأي الأستاذ محمد سعيد العامودي، في ضعف بعض هذا الشعر. ولعل أدباء آخرين ممن عرض عليهم الأستاذ حوحو ديوان - النجوى-، أبدوا آراء.. لم تشجع الأستاذ ماجد على طباعة ديوانه.. في محاولته الشعرية الأولى.!

ويتحدث الأستاذ الربيع عن صديقه ماجد الحسيني في إحدى مقالاته التي كان ينشرها في مجلة الرائد، بعنوان: «لقاء.. كل أسبوع». فيقول: ماجد أسعد.. شخص سعيد، فهو أديب الخلق، لطيف المعشر، ممتاز الصفات». إلى أن يقول: فماجد شخصية مرحة، يمتاز بمزية يغبط عليها، تلك هي ميزة الاستهتار بالحياة، ميزة عدم المبالاة، فهو يعيش ساعته بكل جوارحه، ويبدو وكأنه يسير في حياته على الطريقة التي تحدث عنها الشاعر.. حين قال:

ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها

والربيع.. يصف صديقنا الحسيني بـ - الكاتب الشاعر -، ونثر الحسيني قليل، إذا قيس بشعره، ولا أعرف

منه غير رسائل أدبية متقنة منمقة، كان يبعث بها إليَّ، لأنشرها في صحيفة - الرائد - يومئذ.

الربيع يقول: «ولو انصرف شاعرنا ماجد إلى الشعر.. لأخرج للناس طائفة من الدواوين، ترتفع بأدبنا، وتحقق له انتصارات لا يستهان بها». ولعل شاعرنا كغيره، ممن يضيق ذرعاً بالحياة، فيتلف ما ينشىء من نثر وشعر، كما فعل الشاعر الكبير حمزة شحاتة رحمه الله. وأن ذلك الشعر في تقديري نقد للحياة ومن فيها، وليس متاحاً نشره على الناس.!

ويعلن الربيع.. أنه قرأ الكثير من شعر ماجد وأعجب به، صياغة ومعاني، حتى قال: إن ماجداً في شعره نسر محلّق، وأن الأجواء الطليقة لتنتظر أن ترى هذا النسر الجبار». ويقول الربيع: إن ماجد أسعد كخالد رجب من جيل واحد، امتاز بشهوته للعلم، ورغبته في القراءة، وتعلقه بالثقافة. فلقد قرأ كل منهما كمية من الكتب.. تعد بالمئات في شتى فروع المعرفة، وكل منهما كون نفسه تكويناً صحيحاً[3].

ويصف أحمد رضا حوحو الحسيني بأنه رجل لا يبالي بالحياة، وأنه لنحالة جسمه، وعدم قدرته على الصراع، ينافح خصومه بلسانه وشعره، وإن في طبع الرجل قلقاً وتمرداً على أنظمة المدرسة التي كان فيها، ويطالب بإصلاحها، وزملاؤه..

لا يهمهم شيء مما يدعو إليه الحسيني. وهو ناقم ساخط، لا يرضيه شيء، وأنه ذو ذكاء متقد.. إلخ. ولقد وقفت على ديواني الشاعر المطبوعين: «حيرة»، - ضياع -، في كتابي - الصخر والأظافر -، وقفة غير مطولة[4]. ومجمل القول في شعره، الذي ضاع أكثره، أنه شعر نابض بالحياة، وأن قائله شاعر ابتداعي، مجدد في ألفاظه ومعانيه وصوره ورؤاه، وكذلك الحال في نثره.

والسيد ماجد في مطالعاته الواسعة.. وكما أشار الربيع، قرأ الشعر القديم الجاهلي والإسلامي بوعي، كما قرأ الشعر المعاصر، لشعراء العراق والشام ولبنان والمهجر ومصر وتونس، وأحاط بالمدارس القديمة والجديدة، ثم هو رجل موهوب، له حس أدبي نجده في شعره النابض ورسائله الأدبية. غير أنه لم يفرغ للأدب، إلا كهواية. وذلك دأب الحياة والنوابغ فيها، حلقة متصلة، لا تكتمل في كل الأحيان، فالحياة هموم وشجن، والأدب القوي، قد يجر على صاحبه متاعب وعناء.. لا قبل له بها، والذي يؤثر العافية، يركن إلى الدعة، ويجنح إلى السلامة.!

إن الأستاذ السيد ماجد أسعد الحسيني، شاعر مجدد، ينتمي إلى شعراء المهجر.. ومدرسة أبوللو، وإلى شعراء الشام ولبنان، ولد ونشأ في المدينة المنورة، وهو في طليعة لداته:

محمد هاشم رشيد، ومحمد العامر الرميح، وحسن الصيرفي وأضرابهم. والسيد ماجد.. ليس تقليدياً، وإنما هو شاعر مجدد، وليس انطباعياً.. ولكنه ابتداعي، يمتح من بحر دفّاق، وقاموسه الشعري واسع، وتخييله بعيد مداه، وشعره ليس راكداً، ولكنه متموج منساب، تجد المتعة في قراءته، فلا تصدمك رتابة الشعر التقليدي المتكلف، ولا تجد فيه نبوءاً وثقلاً،. كحال الشعر.. الذي ليس فيه من اسمه إلا تفاعيله وشكله الخاوي من المعاني والتجديد، وهو ركيك.. لأنه نظم لا معنى له.

كان السيد ماجد.. في وقته المبكر في المدينة، فيما يشبه السباق مع أصدقائه.. الذين ذكرت، يقرؤون الشعر العربي القديم، ويقرؤون الجديد، الذي تنقله دواوين الشعر العربية والمجلات الأدبية، وكان في الوقت سعة.. للقراءة والاستمتاع بها، وظهرت يومئذ المواهب الدافقة.. مبكرة تنظم الشعر وتتغنى به، ويتنقل في المجالس، وينشر بعضه في الصحف.. على قلتها يومئذ، قبل نصف قرن أو يزيد. وتسمع في المناسبات أصداء شعر الشباب ينداح في الساحة، وقد تراجع وانكمش شعر الشيوخ التقليدي. ولست أعني بالتقليدي.. الذي يلتزم البحر والقافية، فكثير من شعر المجددين بدأ واستمر أكثره محافظاً على معطيات مدرسة الخليل بن أحمد الفراهيدي، ولكنه جيد ومتميز.. بنبراته

ومعانيه وموضوعاته الوطنية، وغيرها من الشعر النابض القوي، لفظاً ومعنىً. ولكن الشعر الذي عنيت بالتراجع.. ذلك النظم الخافت، لأن الخيال فيه ضعيف، وهو أو أكثره ساذج، لا يهزك ولا يطربك.. ولا يأسرك، فهو نسيج ركيك.!

وللسيد ماجد الحسيني.. من شعره المطبوع «ديوانان»، الأول - حيرة -، والثاني «ضياع». والأول ظهر من وقت بعيد، قبل أربعة عقود. أما الثاني فصدر عن النادي الأدبي في الرياض عام 1401هـ، الموافق 1981[5].

أما الديوان.. الذي بين يدي - النجوى -، فلم يطبع بعد، رغم أنه يرجع إلى أكثر من نصف قرن. وهذا يظهر من المقدمة التي كتبها الأديب الشهير الأستاذ أحمد رضا حوحو.. رحمه الله، بتاريخ 1364/5/16هـ 1945م. ولست أدري.. لماذا لم يُخرج شاعرنا هذا الديوان في حياته ؟. وربما مرد ذلك.. أن الشاعر غير راض عنه كل الرضا، لأنه من شعره المبكر.. قبل النضوج الفكري، وأنا قد قرأت هذا الشعر، فرأيت فيه الجيد والمتوسط، فهو إذن شعر مرحلة مراهقة، فعمر الشاعر نحو عشرين خريفاً، وهي مرحلة مبكرة.. ندر من يبدع فيها. وأشهد أن الأخ ماجد الحسيني رحمه الله.. شاعر، بالمعنى الذي تعنيه هذه الكلمة. ولا أدل على ذلك من تصديه لقصيدة الأستاذ عبدالله بلخير.. المنشورة في كتاب «وحي الصحراء» عام 1355 بالتشطير ؛ ومطلعها:

نهض الحجاز وصحّت الأحلا م، ووفى الزمان فبرّت الأقسام

وكان مطلع معارضة الشاعر الشاب:

«نهض الحجاز وصحّت الأحلا م» ومشت تهز قناته الأعلام

وعلا إلى الجوزاء في إقباله «ووفى الزمان فبرّت الأقسام»

ويقول كاتب مقدمة «النجوى»، إن «التشطير» يقع في خمسين بيتاً «نشر في جزءين من مجلة المنهل، حتى إن صاحب المنهل شك في قدرة هذا الفتى الصغير.. أن يصنع ما رأى، فأخذ - كما يقول كاتب المقدمة -، في اختبار الطفل الذكي، والمتوهج العقلية، حتى إذا اقتنع الأستاذ الأنصاري، وهو الحريص وذو الخبرة، بقدرات فتانا، نشر التشطير، وهو معجب بما رأى وقرأ وعرف.

وحين أرجع البصر.. في تسميات شاعرنا لدواوينه الثلاثة، أدرك أنه يجنح إلى تسميات منطلقها نفس حائرة.. قلقة، ولقد عرفت الشاعر، عبر لقاءات شتى سريعة، فرأيت فيه هذا القلق والحيرة، رغم أنه ينتمي إلى أسرة محافظة، وأبوه كان يحفظ الكتاب العزيز، وكان يعلم الصبية.. في مدرسة العلوم الشرعية بالمدينة المنورة القرآن وحفظه سنين طويلة. غير أنها حال شاعر.. لذلك لا نستغرب القلق في هذه النفس، التي قرأت ألواناً من الأدب القديم والحديث، خاصة الشعر، وعاشت الحياة بأبعادها المختلفة، وتنقلت بين المدن في

وظائف شتى. وخالطت أخياف الناس.. وما يضطربون فيه، من خلال تعايشهم وتعاملهم. ولا ريب أن القلق سمة في أنماط من الشعراء ذوي الحساسية، وهو كذلك نتاج صراع نفسي وحرمان، ورؤى الشاعر المتحفز في الحياة، تختلف عن غيره.. ممن تقل دوافع نفوسهم، لأنها أقل توهجاً، وأكثر استقراراً، وأقل اكتراثاً بمتغيرات الحياة وشجونها وهمومها!

يا حب فيك بعثت أول نغمة وتفجرت من بعدها أنغامي
وطفقت أرسل في الجمال بدائعي ونزلت في شفتيَّ بالإلهام
فإذا بعثت إليك أول قطفة فلرعي - سالفة - وحفظ ذمام

و«النجوى»، وهو اسم الديوان.. الذي بين يديّ، اسم من المناجاة و - السر، والمُسارون من القوم، وأسرار الحديث. و- أصابته النجواء - حديث النفس ونجواها. وحين نقف على إهداء الديوان.. نجده:

إذاً.. كما توقعت، فإن هذا الديوان، أول إنتاج الشاعر، فهو قد قال في الإهداء، إنه «أول قطفة». وإلى الحب يبعث بأول نغمة، وبعدها تفجَّرت أنغامه، لأن الجمال.. جذبه، ذلك أنه مغرٍ. والحب أنطقه بالشعر، إذ ألهمه، لذلك خاطبه معترفاً بفضل البادي، وللوفاء بالذمم.. في هذا التلاحم.

وبعد الإهداء، نجد كلمات، عنوانها: «بين يدي القارىء» يقدم بها شعره، وقد قال في السطرين الأخيرين.. من هذه

الكلمة القصيرة: «فإن رأيت أيها القارىء شيئاً راق لك أو أمراً لم يتناسب مع ذوقك، فاعلم أن من سطّر هذه السطور بشر لا يعصم.. ثم اعلم أنما هذه الأوراق خطوة في طريق الفن؛ وتمهيد مهم». ومن المؤكد أن هذا التعبير.. كان في وقت مبكر، لذلك جاء تلقائياً، ليس مُنمنماً ولا منمقاً، وقد رأيت لاحقاً.. أن نثر الشاعر، الذي كان يكتب به كلمات.. نشر بعضها في صحيفتي - الرائد - قبل نحو أربعة عقود، نمط فني راق، لأن لغة الشاعر ارتقت، بعد أن اغترف من مناهل الثقافة الكثير، لأنه كان نهم القراءة، وكان يختار ما يقرأ، من جيد النظم والنثر، والأدب المترجم، وينساق وراء الخيال الرفّاف الخصيب، لأنه شاعر، يعنى بالتخييل، لأنه رافد كبير للشاعر الملهم الموهوب، أعني شاعر الطبع.. وليس شاعر الصنعة.

وفي مطلع الديوان.. مقطوعة، عنوانها - شعري - يغرس الشاعر في شعره شيئاً من ألم الهوى والشوق، بل إن شاعرنا ينضح فيه دمعه وشكواه، ويردوه وهو حزين مهموم، وهذا الشعر سيبقى ذكرى عبر الزمن، فتجد فيه الأجيال صدىً لنفوسها اللاغبة، ذلك أن القريض الحق خفقات حرة وحرى.. من الروح، ينقلها بيان دافق، يعكس أفراح وحزن النفس، من خلال نقل بعض الفنون.. إلى الوجود، وهو تصوير للحياة وما يضطرب فيها.. مما يفرح ويحزن. اسمعه يقول عن شعره:

أحمّل عني الشعر بعض لواعجي وأسكب فيه دمعتي وأنيني
وأنشده ولهان رجعاً موقّعاً يرتله قلبي بخفق شجوني
وأسْطرُه ذكرى تظل على المدى تطالع للأجيال وقْع رنيني
وما الشاعر إلا نبضة الرّوح حرّة يترجمها عنها بيان مبينِ
يصوِّر من أفراحها وشجونها ليحمل للأكوان بعض فُنونِ

أما قصيدة «الغرام الأول»، فإنها - من ذكريات الدراسة والتعليم.. وزهرة العمر، ونضرة الشباب - كما سجّل الشاعر في تقديم هذه القصيدة، ومطلعها يرتبط بعنوانها، وما يفرزه الغرام.. من آلام وحرمان وشكوى - وذكريات - وحيرة.

خذ من حديث صباباتي ولوعاتي ذكرى غرامي وذكرى وجديَ العاتِي

وهو محق.. في عجز البيت التالي، حين يقول:

أيام أوّل عهدِ بالهوَى حدثاً وأطيبَ العُمْرِ أيّام الحداثاتِ

ومرد ذلك أن أيام الصّبا، فيها الكثير من العبث واللهو وعدم المبالاة:

أيام لا المرء مأخوذ بهفوتهِ وليس يُسأل عن ماضٍ وعن آتِ

فهو في مرح وفرح، لا يدرك من هم الحياة سوى أن ينال رغائبه وما يبهج نفسه ويسليها.

جذلان لم يدر من همّ الحياة سِوى إشباع رغبتهِ كلّ المسرّاتِ

وشاعرنا ذو لسان طلق ذلق، وذلك لأن قاموسه واسع فهو لا يسوق، في أكثر الأحيان في شعره ألفاظاً مبتذلة ميتة، ليكمل بها شطرة، أو يختم بها قافية، وإنما هو ينتقي كلماته البليغة، ذات المعاني والرنين، لأنه يكتب شعراً، يرجو أن يبقى، لتقرؤه الأجيال وتحفظه الأيام، أو يبقى معها.! ودنيا شاعرنا أشبه بعود الطيب، الذي يضوع حين يحترق في الموقد.

دنيا من السِّحر ما فيها سوى فتنٍ   يا طيب ذكرتها من بين ذكْراتي

ويشبه الشاعر سني الصّبا والفتوة.. بالدهر الذي لا يهرم ولكنه يتجدد، وتتجدد معه البشاشة، لأنه بعيد عن الكدر والهموم، وهو مرحلة طلب العلم والدراسة.

عمْرٌ هو - الدهرُ - ما شيبتْ بشاشتَهُ   عهد الطُّلاب وأيامُ الدِّراسات
أغدو، وأذهب لا همٌّ يُكدِّرني   نشوان بين زَمَالاتي ولذّاتي

لكن أيام الشاعر، والأيام أغيار، لا تدوم على حال واحدة، وتلك النفس الأبية الشامخة، التي لا تبالي، جدَّ عليها.. ما كبح جماحها، فلانت قناتها، وأخذت تصور الجمال وبهاءه وإسره ومرحه ومفاكهاته، وتلك تأثيرات الهوى وسيطرته وقواه، التي تقلب القوى ضعفاً وهزيمة، فالهوى سلطان، والجمال طاقة غلابة خارقة، حين يُصادف من يأسره بسحره وهيمنته.

أبى نفسٍ فما لانت ولا وهنتْ حتى بليت بظبي راضَ إعْنَاتِي
ربْع القوام مريض الطَّرف - لا سقماً حلو الكلام لطيف في الفَكَاهَاتِ
في سمرةٍ - كطلوع الفجر - رائقة سبت فؤادي فلا ينجو بإفلاتِ

وأصبح الشاعر أسير الجمال.. لا يلوي على شيء، ولا يستطيع السُّلو، وذكرتني غيرته حتى من النسيم العليل، بغيرة الشاعر الغزل الرقيق «البهاء زهير»، الذي يقول:

فيا نسيم الصبا أنت الرسول له والله يعلم إني منك غيران

والسيد ماجد في - غرامه الأول -، تكبّل وغرق، بعد أن كان حراً، لا يأبه لشيء، والهوى كما قيل أوله المزاح، وآخره شبيه بالمنايا. ودعونا نستمع إلى صور وتصوير الشاعر لحاله.. ولمن يهوى، ثم أن - دوام الحال من المحال -؛ كما يقال. فلم تدم سويعات الهناءة والرضا، وذلك طبع الحياة والأيام. ولعل الهوى.. لا يترك فرصة للمرء أن يتأمل ويقدّر، قبل أن يَقدُم ويغامر، لأن تياره جارف، أشبه بالسيل الهادر، الذي لا يبقي ولا يذر. وحين يصحو من صدمة التخلي والبعد، في تلك المفاجأة المباغتة، يأخذ في الشكوى والأنين.. والبوح بما آلت إليه الحال من جدب وإمحال، بعد ربيع يانع، في ربوة خضراء مزهرة، تضوع بالشذا.. في هيام دافق، لا يأبه لما حوله، وكل ذلك من صور الحياة.. عبر تاريخها الطويل، وتاريخ البشرية التي تضطرب فيها ؛ في حالاتها.. التي ليس

لها فيها خيارات. ودعونا نمضي مع شاعرنا في حديثه، والأمور تنقلب به.. بين مدّها الشائق السندسي العبق، في أحلام، أشبه بأحلام شهرزاد، وبين صحو فجائي، تتغير فيه المعطيات، فيكون الجزر والمحل وضبابية المناخ المتغير، لنقرأ ما يلقي به الشاعر إلينا ؛ ونحن نقرأ شيئاً من آثاره.. بعد أن ودع الحياة وأهلها.. قبل عامين، وقد عانى من السقم ما يحزن، رحمه الله.

علقتهُ راغماً من حسن عشرتهِ وطيب ما كان يبدي من مواساتِي
إن غبتُ يسأل عنّي ما ألمَّ به وما الذي كان مدعاةً لغيباتِي
وإن حضرت نحىّ جنبي يؤانسني وليس يغضب من جفوي وزلأتِي
حتّى غدوت ولا أسطيع فرقته مولهاً فيه لا أصغى لعذلاتِي
أغار إن صافحتْه الريح سارية أو صعّدته عيون من صَحاباتِي
أحنو عليه ولا أسلو مودّته وقد تمكّن حتى من خيالاتِي
لا أستكين إلى إلفٍ سواه ولا أبغي به بدلاً بين الأخواتِ
وبات بادلني بالود ؛ بالهوىً برعاه قلبان من بين المودّاتِ
ما فرصة سنحت إلا ولد قطفت منها يدانا - جناها في الصُّباباتِ
يا حسنها من سويعات مضت وعفت وخلّفت لفؤادي حرّ حسْراتِ

* * *

وفرّق الدّهر شملاً كان مجتمعاً من غير رُحمى لدمْعاتي وأنّاتي
هو استمالته دنياه بزخرفها وعصبة من صحابٍ أهل رغْباتِ
ورحت غرقان في نثّي وفي كتبي «وخلفتنا الليالي بعض أشتاتِ»
عجبت والدّهر لا ينفكُّ ذا عجبٍ كيف استحال هوانا حلْم هجْعاتِ
ورحْت أزجر نفسي في غِوايتها حتّى استكانت إلى صبري وعزْلاتِي
فلا الجمال يسبيني برونقه ولا الغرام سوى إحدى الضّلالاتِ

هكذا انتهت الحال بالشاعر، بعد فشل تجربته الأولى، فآب وأنكر ما كان فيه.. بعد تلك الصحوة غير الإرادية منه، ولكنها الأيام، وما تحمل في ثناياها.. أفجعته، حين صحا مكرهاً، ورأى ما أفزعه وروّعه، فلملم أشتاته ومزعه، وأنحى على نفسه الأمارة باللائمة، لأنها غوت، ثم بعد الصدمة تراجعت جريحة دامية مهزومة.. تأسو بقاياها. ولست أدري، ولا أريد سبق الأحداث، هل ارعوى الشاعر من تجربته الأولى.. فأعرض عن الهوى، أم أن النفس تدندن مرة ومرة، لتدور مع الحياة في غوايات الهوى وعذاباته المرة - الحلوة ؟ لست أدري.!؟

من خلال تقليب صفحات ديوان - النجوى -، للسيد ماجد الحسيني رحمه الله، الذي لم ينشر بعد، وجدت أمامي قصيدة عنوانها: «سبحانك تبت إليك»، وبجانب العنوان..

كتب الشاعر هذه الكلمات: «إلى الله الأعلى.. أرسلها توبة وعود».

وخلال قراءة.. هذه القصيدة الجامعة، في نسيجها ومعانيها وصورها وتراكيبها، تذكرت قصيدة، بل ملحمة شعرية.. للشاعر الغنائي الرومانسي، علي محمود طه، عنوانها: - الله والشاعر -، نشرت في ديوانه «ليالي الملاح التائه».. جاء في مقطع من مطلعها قول الملاح:

لا تفرقي يا أرض لا تجزعي
من شبح تحت الدجى عابر
ما هو إلا آدمي شقي
سموه بين الناس بالشاعر

وخلال أو بعد استعراض.. قصيدة - التوبة - للحسيني، أعوج على مطولة الشاعر الملهم.. صاحب «الجندول»، التي يستعرض فيها ما ينتاب الإنسان من اضطراب وهموم وقلق وحيرة وضياع وشقاء.. في حياته كلها. وقد وقف الأستاذ العميد، الدكتور طه حسين على هذه الملحمة، في الجزء الثالث.. من كتابه «حديث الأربعاء»، وحاور الشاعر حواراً جاداً ورفيقاً، في معنى.. تعبير الشاعر: «يعرق حد السيف من لحمه»، وقال الدكتور طه إنما الذي يعرق هو العظم، ورد على الشاعر في قوله: «ومنك يارب أخذت

الأمان»، فقال الكاتب الناقد البصير: «متى وكيف وأيان.. أخذت الأمان من الله ؟».

ودعونا.. نر شكوى شاعرنا الحسيني، وهروبه إلى ربه.. معلناً التوبة والأوبة، وهذا الحوار من طرف واحد.. هو الشاعر أو قل الخطاب الشعري، في هذا التوجه الشاكي، نادماً على ما كان منه.. في أيامه الخوالي، من إسراف على نفسه، وحين صحا، لجأ إلى خالقه.. في هذا التضرع بصوت عال، يرجو الرحمة، ويستجير من العذاب والعقاب، ولندع الشعر يتحدث، فهو منطقي العرض.. لحاله، وما انتابه من كرب وضياع وخوف وشتات.

ربّاه قد ضقت بهذا الوجود

وجئتك المستغفر التائبا

لم ألق بين الناس إلا الجحود

والأمل المستضحك الكاذبا

هذه بداية الخطاب، شكوى وعودة إلى الله، وأنه في مسار حياته واختلاطه بالناس، لم يجد إلا ما يكره، ولعله كان غافلاً لما كان فيه، إلى أن صدم بما حوله، فأفاق، وغيّر مساره، ورجع يلتمس العفو من الرؤوف، فاراً من هوى.. عاش فيه بعض الوقت، حتى أدركته الصحوة، فتقرب إلى الرحمات، علّه ينال أجر العائدين إلى سبيل الخير والهدى والعفو.

إليك وجهت بقلبي الذي

شط على حكمك في جهله

وجئت للإثر به أحتذي

مسترحماً عفوك في قتله

عاد الشاعر بقلبه، يرجو الغفران، قبل أن يضيع ويموت القلب، الذي وصفه الحديث الشريف.. بأنه مضغة في الجسد «إذا صلحت، صلح الجسد كله، وإذا فسدت، فسد الجسد كله».

أنت الذي صورتني كائناً

أغدو على أرضك في نعمتك

كيف إذاً تدفعني لاعناً

وكنت قبل اليوم في رحمتك

شعر.. يحمل نمطاً من الجدل، فالمجادل - بكسر الدال - هو الشاعر، والمجادل - بفتحها -، هو الشاعر نفسه، كما فعل شاعر الجندول في عرضه في تلك المطولة الجامعة، وكان في حديثه وخطابه.. يسلك الدرب عينه، كإنسان، وجد في هذه الحياة، وسط موج كالجبال، أخذ يصارع فيه، ليحيا أولاً، وليسلم ثانياً، ولينجح ثالثاً، وليسعد وينجو. وذلك الهدف.. في خاتمة المطاف، لأن له نهاية حتمية، وكل ذي عقل.. يفكر

في الزاد، لأن السفر طويل، والعقبة كؤود، والظهر مثقل. ونتابع مع الحسيني إنشاده:

كيف أقوى على نقمتك

أنا الذي ضاقت به نفسه

أخرجني آدم من جنتك

وحاق بي، ما بعده نحسه

هكذا.. يمضي السرد الشعري، وهو أشبه بالسرد القصصي والروائي، مع الفارق في شكل الطرح.. بين الشعر والسرديات الأخرى، لأن لكل منهما مساره، وإن التقيا في المحصلة والنتيجة، ومعطيات الإيقاع.. قد تختلف في هذه الأنماط عبر إنشاءاتها وسبل مساراتها، وتأثيرها في المتلقين، وقدرة المنشىء على ذلك، وما قد ينتابه شيء من إخفاق ونجح، تؤديه الثقافة والموهبة، وحتى الصياغة.. لها إجادة وخصوصية، وكذلك سبل التقديم. كل ذلك قدرات متفاوتة.. عند الذين يمارسون الكتابة، شعراً، وقصة ورواية.

أرى في مسار السيد ماجد الحسيني في هذه القصيدة، عرضاً لمسار حياة كائن إنساني، والشاعر أكثر قدرة على إلقاء خطابه وكذلك الكاتب. وهو التوجه نفسه.. الذي نجده عند الملاح التائه في تلك المطولة، التي أشرت إليها آنفاً. والنمط نفسه في توزيع مقاطع القصيدتين، وتغيير القوافي..

بعد كل مقطع، ليمتد هذا النسق الشعري المتماوج، في بناء هيكله ورسمه وإيقاعاته، التي تغري القارئ والمنشد معاً، في هذا التقديم النموذجي، ولا أقول جديداً، غير أن التوزيع، الذي يشبه التوزيع الموسيقي، من خلال «جوقة» متلاحمة.. قادرة على إتقان عرضها، وفق قيمة المغنى وما يلقى فيه ويعطي جواً، يحفل به المشاهد والمستمع، ويبقى مع الأيام، مثل السيمفونيات، لأن العازفين فيها.. مجيدون لفنهم وقدراتهم وأدائهم، فهم عباقرة في فن راق ومتقن، لذلك بقيت آثارهم، تأسر ذوي الأذواق.. والحس المرهف. ونسير مع سبح الشاعر الحسيني.. في هذا الشعر النابض، لأن فيه مقومات قيمة الفن الرفيع.

أنت الذي تبت على آدم
بعد الذي أخطأ في جنته
فلتنزل اليوم على ظالم
رحماك، كي يأمن في توبته

أكبر الظن.. أن شاعرنا الحسيني، أثرت فيه القصيدة «الله والشاعر» لعلي محمود طه، وليس تأثيراً سطحياً، ولكنه عميق وقوي، لذلك.. نسج على منوالها هذه القصيدة التي نقف عندها، في تأمل وسرح، لأنها خليقة بالوقوف حيالها، فهي قوية، بليغة ومتميزة في نسيجها ولغتها

وسردها.. في تماسك بناء فني، لا يحس القارىء الفطن بقلق أو ما يدعوه إلى قلق في إخلال فني.. لا يتجاوزه الحاذق الواعي، لأن الفن فيه ارتقاء بالذوق، وإمتاع للحس، وهو قبل ذلك موهبة وقدرات وعبقرية.

قد جاء يرجو الصفح عن ذنبه
بعد الذي جرّ به في الأنام
يا عالم الأسرار من قلبه
خذه إلى نورك من ذا الظلام

دعاء ورجاء وأمل وخوف، ورجوع.. إلى قيوم السموات والأرض. لعله بفضله ورحمته، يصفح ؛ وهو الذي يغفر الذنوب جميعاً، ويعفو عن السيئات. ويقبل التوبة عن عباده - غفّار - وعفوّ.

مدّ إليه يدك المنقذة
وكفر اليوم على ما جنى
فإن يك الشيطان استحوذه
قد جاء بالتوبة مستعلناً

ونمضي في عرض أبيات قصيدة «التوبة»، والأستاذ ماجد، قد قرأ شعر علي محمود طه.. في وقت مبكر، في

المدينة المنورة، هو ولداته الشعراء والأدباء، كما قرؤوا شعر المهجريين، والسوريين واللبنانيين، والعراقيين، وجماعة أبوللو، لذلك.. فهم قد تأثروا في بداية حياتهم بما قرؤوا، إلى أن اشتدّت سواعدهم، وصلبت قنواتهم، فاستقلوا في تفكيرهم، وأكبر الظن.. أن السيد ماجد لم ينشر ديوانه هذا، لأنه «باكورة» شعره، فما أراد وقد نضج، أن يخرج شعراً.. يحمل طابع التقليد والتأثر والمعارضة، والنقاد يشترطون في المعارض.. أن يتفوق على سابقه، وإلا فلا قيمة تذكر لمعارضته، لأنها لم تضف جديداً. ونتابع عرض قصيدة التوبة:

إن أنت لم تبسط له في الرجا
يوشك أن يأخذه غمّه
وموشك إن لم يجد مخرجاً
يطول في نكسته سقمه

ورغم أن الشعر جيد في معانيه وسلاسة لغته ونسيجه، عبر خطاب واضح جلي، أفرغ فيه الشاعر.. ما يعتمل في نفسه، إلا أنه لم يبلغ مستوى قصيدة علي محمود طه، وليس هذا عيباً، لأن شاعرنا.. تأثر في وقت مبكر بما قرأ، فأعجبه ذلك، فأخذ يحاكي، ويحاول جاهداً.. أن يقدم فناً ذا قيمة، يرضيه ويرضي قارئه الواعي، والمتذوق لفن الشعر الراقي.
وحين نرى أن تاريخ مقدمة الديوان - النجوى -، 1364/5/16هـ،

فهذا الشعر يفترض.. أنه نظم قبل عام أو عامين، وعمر الشاعر يومها لم يبلغ أو لم يكمل عقده الثاني، فهو إذن يافع، وتلك السن التي تقدم شعراً كهذا، لهو دليل النبوغ والنجح، ووقد الموهبة الشعرية المتحفزة الدافقة.

يا غافر الذنب، إذا أنت لم
تأخذ به، من بحره اللاطم
يوشك أن يذهب بين الألم
في حيرة المستنكر الآثم

مناجاة الشاعر متصلة.. إلى ربه، بعد أن أعلن التوبة إليه، وفي كل مقطع من هذه القصيدة المتدفقة المعاني والرنين، من واقع وزنها وأجراس كلماتها، ضاجة بالإنابة واللجوء، وبث الحيرة والخوف من العقاب، وإعلان الإثم، رجاء أن يتقبل الله التوب والأوب.

والذنب مهما يعل بنيانه
يحول في التوبة بعض الهباء
والقلب مهما شط طغيانه
إليك رجعاه، وفيك الرجاء

* * *

وأنـت مـن عـودنـا صـفـحـه
وصـابـر الـعـبـد، عـسـى يـرجـع
ولـم يـزل يـنـفـحـنـا نـفـحـه
مـادام فـي أكـوانـه طـيّـع

تتالى هذه النجوى.. على هذا النسق، في ابتهال خافق، إلى الله، ليجود بالصفح، إنه جواد كريم. وليس للعبد المذنب الضعيف، إلا أن يرفع أكف الضراعة، لأنه لا منجأ، ولا ملجأ من الله.. إلا إليه، ورحمته وسعت كل شيء، وقد تعودت أن أمهد للمقاطع الشعرية، شارحاً بعض معاني ألفاظها، غير أن هذه القصيدة في رأيي واضحة، فهي ليست في حاجة إلى تقريب إلى القارئ، لأنها قريبة جداً منه، فألفاظها سهلة ميسورة، لا تدعو إلى جهد وإلى عناء في فهمها، وهذا الشعر من السهل الجميل، في نسقه ومعانيه وهدفه الجلي.

يـبـيـعـني الـصـاحـب فـي نـفـعـه
لـشـهـوة جـارفـة.. طـاغـيـه
والـودّ قـد يـسـعـى إلى قـطـعـه
لـزلـة واهـنـة.. واهـيـه

وفي سياق التوبة والأوبة، يعرج الشاعر في شكواه من الناس، فالصاحب يخسر صاحبه، من أجل منافع زائلة، وقد

عبر الشاعر عن ذلك بالبيع، فكان في النفس حرقة وحزن أليم، حتى تصل الحال إلى القطيعة، إذا بدر من الطرف الآخر خطأ عارض، على حين أن الوفي.. يمنح قلبه، ويقدم المروءة والحنو، وبعد ذلك يلقى سوءً، ويفشي صديقه أسراره إلى أعدائه، كما نقرأ في المقطع التالي:

أمنحه قلبي، وأحنو عليه

فلا يرى مني سوى السيئات

وطالما أودعت سري لديه

فبات سري ذائعاً للعداة

ويبوح الشاعر بما في نفسه، بأنه يخالف هواه.. من أجل صديقه ورضاه، ومع ذلك، ينكر الجميل، ويتنكر للمعروف، ويذهب العرف ضياعاً، ويظل الشاعر يفي.. لأنه فطر على الخير والإحسان، ومقابلة السيئة بالحسنة.

ويشير الشاعر في المقطع التالي إلى حلم القوي العزيز على عباده المذنبين، ولم يعجل بمؤاخذتهم على ما كسبوا، ولو فعل ما ترك على الأرض مذنباً. وهذا تصديقاً لقول الحق: **﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى﴾**. لكن الناس لا يصبرون.. على ما يحل بهم. ويصف الشاعر في المقطع التالي رحمن

الدنيا ورحيمها، وفضله وإحسانه، حتى يقول الشاعر إنه.. ليس في الكون من آثم مثله»، ولكن الله يمن على عباده، لأنه أرحم الراحمين.

وأنت رباه الذي تصبر
لو شئت، لم تبق على المذنبين
صبرت للذنب.. الذي أصدر
والناس مني؛ أصبحوا قانطين

حقاً، فإن الحق سبحانه وتعالى فضله لا حدود له، أملاً في عودة العاصي والظالم لنفسه ولغيره.. ليجد لذنبه غفّاراً، رؤوفاً رحيماً بعباده. ولذلك جاء في الكتاب العزيز: ﴿ **ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة**﴾، غير أن الخلق سريعو القنوط والحكم الذي يحيد عن طريق الحق، لأنهم خلقوا من عجل. أما الخالق.. فإنه غفار الذنوب جميعها، لاسيما حين يتراجع الإنسان ويندم على ما اقترب من حوب، فإنه يجد أمامه غفّار الذنوب، الذي.. يعفو عن كثير.

رباه ما مثلك من راحم
يا موئل العطف، وأهل الحنان
وليس في الأكوان من آثم
مثلي، وأنت الرب ذو الامتنان

والآن نقف على بعض نصوص مطولة «الله والشاعر»، لعلي محمود طه، وهو في تقديري أسبق من السيد ماجد الحسيني.. في قصيدته التي قرأت أكثرها آنفاً: «سبحانك تبت إليك». لنرى الشبه بين النظمين، الذي قلت.. إن قصيدة الحسيني محاكاة لتلك، والقصيدتان تسيران في فلك واحد، هو الإنسان.. وما ابتلى به وامتحن في هذه الحياة، غير أن نفَسَ «الملاح التائه» أبعد وأطول وأعمق، فهو يغوص في شؤون شتى.. في فلسفة الحياة، وما قدر على الإنسان، ويذهب إلى الجنة والنار، ويجادل في أمور شتى، يظهرها شعره.. الذي سنقف على بعضه لتكون المقارنة من قريب بين الشاعرين، في هذا السبح الشعري الرائع، لأنه فن من أرقى الفنون.. إذا كان شعراً بحق. أما إذا كان نظماً، فلا يعول عليه، ولا يؤويه له.! وعلي محمود طه، شاعر مصري.. من المنصورة، توفي عام 1949م وله شعر رومانسي غنائي جميل، وهو رجل مهندس، ولكنه عشق الشعر فبرع فيه. وهو صاحب قصيدة فلسطين، التي أنشأها عام 1948. ومطلعها:

أخي جاوز الظالمون المدى فحق الجهاد وحق الفدا

وكان ينشر شعره في مجلة الرسالة.. لصاحبها أحمد حسن الزيات ومجلة أبوللو، وشعره مطبوع في مجموعة كاملة. وقد كنى الشاعر نفسه بـ «الملاح التائه»، فهو رجل ترحال في

فضاء الله الواسع يذرعه ؛ ولقد تحدث عن بحيرة «كومور وفينسيا في إيطاليا» و«كان» في فرنسا، ونهر الراين في ألمانية. وفتن بجمال الطبيعة وبهائها، وهو يسبح في كون الله العريض.

يقول الشاعر الملهم.. علي محمود طه، في إهدائه ديوانه - مجموعة أشعاره -، المطبوع عام 1972، بدار «العودة» في بيروت:

«إلى أولئك الذين يستهويهم الحنين إلى المجهول!
إلى التائهين في بحر الحياة!
إلى رواد الشاطئ المهجور!»

ثم يقول شاعر الجندول في مطولته.. التي أنا بصددها، في موضوع المحاكاة: «الله والشاعر»:

لا تعدني يارب في محنتي
ما أنا إلا آدمي شقي
طردتني بالأمس من جنتي
فاغفر لهذا الغاضب المحنق

* * *

حنانك اللهم لا تغضب
أنت الجميل الصفح جم الحنان

ما كنت في شكواي بالمذنب
ومنك يارب أخذت الأمان

يلقي الملاح الحائر بشكواه العارمة.. في هذا السرد الشعري.. المتتالي، يشكو حظه، ويشكو البشر، ويعلن هذه الحيرة.. التي تلفه، فلا يجد منها فكاكاً ولا مخرجاً، ويعرض قضية كبرى، بل قضايا شتى.. في حياته وحياة الناس، يجأر بالشكوى إلى خالقه، وكأن الأبواب قد سدت في وجهه، فلا يجد سبيلاً.. إلا أن يرفع صوته، ليسمع الخلق، أما خالقه، فهو يعرف سره ونجواه.

ما أنا بالزاري ولا الحاقد
لكنني الشاكي شقاء البشر
أفنيت عمري في الأسى الخالد
فجئت أستوحيك لطف القدر

هذه المطولة.. لشاعر الجندول، تمتد أبياتها، عبر هذه المقاطع المختلفة القوافي، في سرد متصل، ومن خلال عنوان هذه القصيدة: «الله والشاعر» يدرس الدارس لها، ويدرك قارئها توجه الشاعر بهذا الخطاب، الذي تتجلى فيه هذه النبرة العالية الصدى، لتسبح في أرجاء الأرض، وفي الفضاء الكوني، وتصعد إلى عنان السماء، فالأرض بما رحبت..

ضاقت بالشاعر، فلم يجد ملجأ غير خالقه، يبثه حاله وشكواه العارمة، عسى أن يجد الملجأ والأمان، والرحمات التي ترفع عنه أعباءه وهمومه وآثامه وبؤسه الذي فيه، وإلا فإنه الضياع والحرمان، يحيقان به، فتتحطم آماله ؛ ويضيع في أدران الحياة وأشجانها وهمها الدائم الراجف.

تمردت روحي على هيكلي
وهيكل الجسم كما تعلم
ذاك الضعيف الرأي لم يفعل
إلا بما يوحي إليه الدم

ويمضي في سرد رؤاه.. وما ينتاب نفسه من رعب وذل وخوف عارم.

يعرق حد السيف من لحمه
ويحطم الصفوان بنيانه
وينخر الجرثوم في عظمه
ومنه ينمي القهر ديدانه !

ويمضي الوصف الدافق، في هذا العرض المتراكم، كأنه يقص سيرة إلى الملأ، رغم أنه يتوجه بهذا الخطاب الشعري إلى الله، جل في علاه، والسرد.. يعني الشاعر نفسه كإنسان تائه وضائع في الكون والحياة.

ما هو، إلا كومة من هباء
تمحقه اللمسة من غضبتك
فكيف يثني الروح عما تشاء
وكيف يقوى ؟ وهي من قدرتك

ولقد قلت وأنا أستعرض شعر السيد ماجد الحسيني، إن القصيدة التي وقفت عليها، وعنوانها: «سبحانك تبت إليك» تجاري هذه المطولة.. لعلي محمود طه، كأن الشاعر الحسيني قرأها فتأثر بها، ثم أخذ يحاكيها، لأن نفسه وجدت استجابة بما أعتمل فيها من الملاح التائه.

تقول روحي إنها ملهمه
فهي لما قدرته متبعه
فلتجزها اليوم بما قدمت
وإن تكن مما جنته براء

ويتحدث الشاعر عن نفسه في هذا السرد المباشر، عبر خطابه الشعري.

الخير والشر بها توأمان
والحب والشهوة في طبعها
حواء والشيطان لا يبرحان
يساقطان السحر في سمعها

ويحلق الشاعر على محمود طه في نجواه، وهي تلتقي مع نجوى شاعرنا الحسيني، فكل منهما شاعر بذاته وبما حوله.. في هذه الحياة المضطربة.

أفي سبيل العيش هذا الصراع؟

أم في سبيل الخلد والآخرة؟

وهؤلاء البائسون الجياع

تطحنهم تلك الرحى الدائره!؟

ويتنقل في سرده، بين الدنيا والفناء والآخرة، يضطرب فيما حوله من خلال رؤاه، لا يدري.. ما المصير، وما المحصلة!؟

أيصبح الإنسان هذا الرميم

والجيفة الملقاة نهب التراب

أيستحيل الكون هذا الهشيم

والظلمة الجاثم فيها الخراب؟

جدل.. بمنطق الجدل، في شيء من استغراب وذهول وقلق نفسي، عن المصير والمآب، كل ذلك يشغل الشاعر ويفزعه إلى حد الهلع.

لمن إذن تبدع تلك العقول؟

أفي الردى تدرك ما فاتها
أم في غد تشوي. بتلك الطلول
ويسحق الدهر يواقيتها؟

* * *

وآسفاً للعالم البائد
ليس له مما يرى مهرب
على رنين المنجل الحاصد
مضى يغني.. وهو لا يطرب

كيف يطرب.. وهذا مصيره، وما سيؤول إليه، وليس له من الأمر شيء، نهاية ومصير وذوبان العقل والبدن والكيان كله.. في التراب!

وحين رحل الشاعر الملهم علي محمود طه، رثاه الأستاذ أحمد حسن الزيات[6]، فقال: «من هذا الشاطئ، شاطئ المنصورة، ركب الملاح زورقه الهائم، ثم مخر به العباب، تارة يختفي، وتارة يظهر. فإذا اختفى غاب مع «الأشباح والأرواح»[7] في جزر الأرخبيل وعلى جبل الأولمب. وإذا ظهر.. شوهد على سواحل كليوبطرة، يردد اللوعة والأنين، أو على جندول البندقية.. يُرَجِّع الشوق والحنين، أو في بحيرة كومو، يمجد الحب والجمال.. في صور الناس ومجالي الطبيعة.

وكذلك كان في كل بحر يجري فيه، وفي كل ساحل يدنو منه، يرسل الأنغام العذبة من قيثارة المرح، ويبدع الصور الجميلة بريشته الفنانة، وينفح الصدور المكروبة بنسماته الشعرية السحرية، التي تسرّي هموم النفس، وتهوّن متاعب الحياة. نحن هنا في البلد الذي خرج فيه إلى نور الوجود. ونحن هنا في البلد الذي رجع فيه.. إلى ظلام العدم»، حتى وصل إلى قوله في نهاية مطاف الشاعر المجيد المبدع: «ثم غام الأفق في وجه الملاح، وثارت الأعاصير، وسكن المجداف، وتمزق الشراع! وفي يوم من الأيام السود، ألقي في ساحل المنصورة.. حطام الزورق، وجثة الملاح! وفي حفرة ضيقة من المقبرة المنهومة.. ثوى القلب الكبير، وذوى الأمل النضر، وهمد الجناح المحلق».

إن حديث الزيات عن صاحبه حديث ماتع، لأنه أدب عال، جميل في تصوير المرائي، لأن الكاتب مبدع. فهو يصف صاحبه بقوله: كانت لذته في أن يفعل الخير لأنه إنسان بفطرته، وكانت متعته في أن يقول الشعر لأنه فنان طبعه، كان شعره صافي الأسلوب لأنه صافي القلب، متسق الألفاظ لأنه متسق الخلق، مشرق المعنى، لأنه مشرق النفس».

ويمضي الشاعر في حديثه.. من مطولته تلك:

فدعه ينسى بعض ما حُمّلا

من نكد الدنيا وضنك الحياة

وأولـه الـعـطـف الـذي أمّـلا

فـإنــه أولـى بـعـطـف الإلــه

والشاعر الذي رأيناه في كثير من شعره حالماً سعيداً، يمرح في الحياة، ويغرق في لذاتها، والسعادة تملأ نفسه، وهو يسبح في الكون والجمال، لعله استيقظ.. بعد سبات طويل، فجاء بهذا النزف الشعري، يرسله في توجس وخوف وهلع من المستقبل المجهول،

مـن عبراتـي صـغـت هذا المقال

ومـن لهـيـب الروح هـذا القلم

مـلأت مـنـه صـفـحـات الـلـيـال

فـضُـمّـت كـل مـعـانـي الألـم

* * *

مـا الـشـاعـر الـفـنـان في كـونـه

إلا يــد الــرحــمــة مــن ربــه

مـعــزّيَ الـعـالـم فـي حـزنـه

وحــامــل الآلام عــن قــلـبــه

* * *

عــزاؤه شــعــر بــه أهــزج

في نغم مستعذب ساحر
ما يحزن العالم أو يبهج
إلا على قيثارة الشاعر

ويتجدد القلق في نفس الشاعر، في هذا الهيام المترع، والخوف الذي يفضي إلى الفزع والرعب والرهبة،

يا ضلة الشاعر أين النجاه
وأين أين المنزل الآمن
أكل واد طرقته خطاه
طالعه منه الرّدى الكامن؟

* * *

حتى إذا ضاقت عليه السبل
وعزّ في الأرض عليه المقام
آوى إلى كهف بسفح الجبل
عساه يقضي ليله في سلام

إن الذي يقرأ هذا التصوير والوصف الرائع.. للملاح التائه، يأخذه العجب، لهذه القدرة الفنية، وهذا الخيال الخصيب، الذي ينسج هذا الإبداع، في هذا التجلي، الذي يمتع القارئ، ليشغله هذا الشعر الدافق.. بالمعاني والرؤى المحلّقة،

لأنه شاعر مجدد، يتقن هذه الصنعة.. في هذا الهيام المرع، ودافعه الجمال، الذي يقسره، أن يعبر بالكلمة الشاعرة.. بما يليق بالجمال من الطموح الشامخ المدلل.!

مررت بالبلدان مستعبراً

أبكي الحضارات، وأرثي الفنون

أنقاضها تملأ وجه الثرى

وكنَّ بالأمس مثار الفتون

* * *

يا أيها الغادون والرائحون

في شعب الأرض وليل الهموم

تمسون أشتاتاً كما تصبحون

والشمس حيرى فوقكم والنجوم

ويمضي هذا السيل الدافق، من وجدان الشاعر.. الهائم في الفضاء الرحب، ويذرع الأرض، يبحث عن الهدى والنجاة، لأن الحيرة ملكت عليه نفسه، وانفتحت عليه أبواب، صعبة المسالك، ولا يدري.. أين تكمن السلامة والأمان.!؟

يا أرض ناديت فلم تسمعي

أنكرت صوتي.. وهو من قلبك

لا تـفـرقـي مـنـي ولا تـفـزعـي
مــن شــاعــر شــاك إلــى ربــك

* * *

ويخاطب نفسه، طالباً إليها أن ترجع وتتوب إلى بارئها نادمة مستغفرة، تذرف دمع الألم.

فـابتـهـلـي لـلـه، واسـتـغـفـري
وكـفـري عـنـك.. بـنـار الألـم
وقـدمـي الـتوبـة، واسـتـمـطـري
بـين يـديـه.. عـبـرات الـنـدم

وهكذا دوران شاعر الجندول في أفلاك الكون، يحادثها ويحاورها، ويبحث عن مجهول، ربما لا يدري هو نفسه.. ماذا يريد، لأنه في خضم حياة، يكتنفها الغموض، فهو تائه.. كما سمى نفسه، في أحد دواوينه، ولست أدري، هل بلغ سبيل النجاة.. من خلال بحثه وسعيه، أم ظل لا يلوي على شيء يهديه طريق الخير والاستقرار، لتهدأ نفسه، وتعيش في سكينة وأمن، قريبة من قيوم السموات والأرض، فهي بذكر الله تطمئن وتثوب، وتدرك نصيبها من الاستقرار والهدوء النفسي، وتنعم بحياة مستقرة، وارفة الظلال، حفيلة بالخير والحياة الكريمة السعيدة.! ولعل قارئ هذه الوقفة، يرى تلاقي شاعرنا الحسيني.. بشاعر الجندول، فيما ألمحت إليه آنفاً.!

وأعود إلى شاعرنا الحسيني، لنسمعه يردد في قصيدته.. «سبحانك تبت إليك»:

وكم عصيت النفس من أجله

مطاوعاً ما يرتجيه هواه

ولم يك المحسن في فعله

لكن قلبي ذاهب في هواه

وضاق الشاعر ذرعاً بما حل به من كرب ونكران وجحود، وهو يدعو ربه.. أن يفتح له ملكوت السماء فقلبه قد صدئ، مما لقي من الخلائق، غير أن الجود يظل في النفوس البريئة:

قد ضقت بالكون، أيا منشئه

فافتح لقلبي ملكوت السماء

فطالما قلبي قد صدأه

نكراهم، والجود في الأبرياء

ويعقب الشاعر.. في خطابه لخالقه، إذا كان قد عصى من أجل الناس وهوى نفسه، وهو في شقائه، ولم يطع أمر ربه.. فيما أمر به، وإنما أطاع الناس، وأطاع هواه. والآن عاد وآب، وأن ما أمر به الحق هو النفع للخليقة، وقوله الحق والعدل، وعدا ذلك.. باطل، ومستغلق، ويحول دون المراد.

إن كنت فيهم قد عصيت القضاء

في سالف الأيام.. من شقوتي
ولم أطع حكمك، رب السماء
في طاعة الناس، وفي شهوتي

* * *

لها أنا المستغفر التائب
عرفت أن الخير.. ما تفعل
وقولك المستحكم الصائب
وما سواه باطل معضل

* * *

وتنتهي قصيدة السيد الحسيني، بابتهال وتضرع.. إلى الغفور الرحيم.. الحنّان، وأن الشاعر يعلن لخالقه في رجاء وإلحاح، أنه لا يوجد في الملكوت آثم مثله.!

ربّاه ما مثلك من راحم
يا موئل العطف وأهل الحنانْ
وليس في الأكوان من آثم
مثلي وأنت الرّب ذو الامتنانْ

لقد ألمحت آنفاً.. أن ديوان السيد ماجد الحسيني «النجوي»، يعد باكورة إنتاجه وبداياته. لذلك.. فحين أضع

قصيدته «التوبة»، أمام قصيدة «الله والشاعر»، للشاعر علي محمود طه، وهما متقاربتان في التوجه والشكوى والألم والندم، وبث أخطاء البشرية، نجد فوارق.. في القوة والسبك والإتقان. وأنا أؤكد أن ماجد الحسيني شاعر ابتداعي ملهم، غير مقلد، وليس ضعيفاً، ولو أنه أعطى شعره شيئاً من توجه، لقرأنا له روائع لا تقل جودة وإتقاناً عن كثير من الشعراء المبدعين.. في الوطن العربي، لاسيما شعراء المهجر، ومن جرى مجراهم، واحترب في ساحتهم. وأكبر الظن أن لشاعرنا الحسيني شعراً متميزاً رائعاً، لعله مزقه ولم يبقه للتاريخ، كما فعل شاعرنا الكبير حمزة شحاتة، وكما صنع شعراء آخرون، في ساعات غضب ويأس، لم يبقوا على شيء من روائعهم، خشية أن تجلب إليهم متاعب وعناء، لأنهم حين أنشأوا، تركوا لأنفسهم العنان لكي تكتب ما اعتمل فيها، ذلك أنهم ضاقوا بما اختزنوا، ولأن آلامهم انفجرت، فلم يستطيعوا كفها أو الحد من جموحها، فأطلقوا لألسنتهم العنان لتعبر.. بما يختلج في تلك النفوس المكبوتة، وهم هائمون في دنيا الناس والحياة، علّهم ينفسون عن نفوس حائرة، تتوق إلى الحرية والحياة الكريمة، وتأبى الذل والهوان، لأنها خلقت حرة، ترفض الضيم وحياة الهوان والتدليس والمداجاة والصغار.!

وللشاعر الحسيني قصيدة رائعة، مطلعها:

حيلة العاجز في دنياه آه ليتها ماتت عليها شفتاه

أيها الأخوة الأعزاء:

هذه وقفة سريعة مع شيء من شعر السيد ماجد الحسيني، في لقائي هذا بكم في ناديّ الأدبي بالباحة مع طرف من ديوانه «النجوى»، غير مطبوع، علّها مقدمة لوقفات أخرى بإذن الله، لأوفي الشاعر الصديق.. رحمه الله بعض حقه، ولأعرف به الذين لا يعرفونه، علّهم.. أن يجدوا في ديوانيه المطبوعين، إذا أتيح لهم أن يجدوهما، شيئاً من سلوى ومتعة، في قراءة الشاعر المطبوع المجيد، ذلك أن الشعر الجيد.. قليل اليوم.!

أكرر شكري لنادي الباحة الأدبي رئيساً وأعضاء، ولكم كذلك، وأرجو ألا أكون قد أطلت وأثقلت، والسلام عليكم.

الهوامش

*) محاضرة، ألقيت في نادي الباحة الأدبي، في 1420/5/6.

1) ص 148 كتاب مناقشات ومناوشات، مقالات للأستاذ عبدالعزيز الربيع، إصدار نادي المدينة الأدبي، 1419هـ.

2) المصدر نفسه، ص 149.

3) المصدر نفسه، ص 212.

4) الصخر والأظافر، ص ص 245-262، لكاتب هذا البحث.

5) «حيرة» صدر في (112) صفحة، طباعة دار العلم للملايين في بيروت - وله ديوان ثان: صدر عن النادي الأدبي بالرياض عنوانه - ضياع - «173» صفحة، عام 1401هـ.

6) كلا الرجلان من المنصورة بمصر، وكلمة الزيات نشرت بتاريخ 6 مارس 1950 في افتتاحية مجلة الرسالة، ص «188»، وحي الرسالة ج (3)، ص 189.

7) ديوان للشاعر.

* * *

العربية بين العوربة والعولمة(*)

*** إن العربية إن شاء الله محفوظة ومصونة، رغم أنّ أهلها ومن انتسب إلى القرآن، هم المستهدفون..**

لعلي أهدف في ورقتي هذه إلى الحديث عن العربية من جهة كونها لغة تهمّ ما يزيد عن بليون من سكان العالم (وهوعدد المسلمين اليوم)، لا من وجهة أنها اللغة الجامعة لمائتين وسبعين مليونا من أهل المعمورة. على أني لا أنكر لهذه الوجهة الأخيرة أحقيتها ونفعها، إلا أنه ليس من الضرورة - في رأيي - أن يذهب الاشتقاق الصرفي سعيا وزحفا ننطلق - بدافع الذود والحماية - على لغتنا إذ تكافح لأجل خاصتها وميزتها، لفظ العوربة ليكافئ ويوازي وزنا وقوة هجوم العولمة. لأنه إن نحن نحونا هذا المنحى، وذهبنا هذا المذهب نكون :

أولاً - قد غيرنا في الحروف من جهة الترتيب الذي هو في أصل الشعار التَّالد (العروبة) بالتقديم والتأخير (تقديم حرف الراء، وتأخير الواو) وما غيّرنا في المقصد والمعنى من جهة الرابطة القائمة على اللسان - بالحصر والتحديد - إمعانا في تثبيت العصبية الأولى: عصبية القبيلة لما علق بها من مفاخرات بين البطون والأفخاذ، وبما رافق حياتها من تشتت شمل وعداوات جرّتها حروب طاحنة، لا سبب وجيه يدفعها ولا نتيجة ترتجى (حرب داحس والغبراء، حرب البسوس ..الخ).

ثانياً: غفلنا على ما في وزن العولمة وفحواها من معاني التحويل القسري وليّ الأذرع والألسن قهراً وغصباً، صرفاً للتنوّع وجلبا للقالب الواحد والنمط الفرد.

المشكل الأساس - في ظننا - حين تعلق اهتمام غير العرب باللغة، أو حين استهدفت رياح الغرب العربيةَ في أزمان متفرقات من تاريخ العرب المسلمين، هو أن نجدّد انتباهنا إلى: كيف السبيل لأن يكون للعربية حضورها ومكانتها بين الألسن؟ وهل كان لها ما كان في عز حضارة العرب من مكانة نتيجة ومحصلة لانتسابها للعرب وانتمائها لجنسهم؟ أمْ للحاقها بألسن الفرنجة ممن تدفقوا دخولا في حضارة بلاد العرب لما حلّ بها الدين الخاتم؟

(1)

لمّا كان العرب في الأصل «سكان فياف وتربيةُ العراء» ولمّا لم تكن لهم حِرف ولا صنائع وكانت «أذهانهم حِداداً»، وجهوا طاقتهم واستفرغوا قوتهم «لقول الشعر وبلاغة المنطق، وتشقيق اللغة وتصاريف الكلام»[1]، حتى أن الكلام أضحى سيفا من سيوفهم بالطبيعة الغريزية الجامحة (جليّا عند المتمردين من صعاليكهم)، وأداة للتدافع والرجم، بالعادة والعرف (واضحا في تطاحن قبائلهم). ولأنهم لم يكونوا من طُلاب المجد والسيادة إلاّ فيما بينهم، وعلى الأرض الضانة التي هم عليها (نضوب الماء، وندرة الكلإ)، لم تهفُ نفوسهم إلى ما في أيدي الفرس ولا طلبت إلى ما في خزائن الروم، ولم يخطر ذلك قط بأذهانهم لِما عليه حالهم من تأخر يحطهم عن مرتبة تلكم الأمم، وضعف عن بلوغ شأوها وشوكتها، بالقرينةِ والرُّفْقة، كانت لغتهم عاجزة عن تجاوز حدود الجزيرة، ولا هي عتبت خارج حدود قبائلهم.

ولما جاءت الرسالة الإلهية، والبعثة المحمدية، حُمِّلت اللغةُ الرسالةَ وكُلِّفتْ تكليفا بالدعوة وبتقلّد شرف الأمانة، من جهة أن الكتاب الكريم نزل بها وأعجز العرب بما كانوا فيها يدّعون، يتمارون ويفخرون. وكان القرآن المجيد من قبلُ قد بَعث في قوالبها وأركانها من القيم السامقات والمعاني

الساميات وهذّب بأدبه عقائد القوم وسرائر أكنَّتهم، وأقوالهم الجارية على ألسنتهم، وأفعال جوارحهم وسائر صروف معاشهم.

تدفَّقت الأقوام دخولا في دين الله عز وجلّ، ولما كانت عاجزةً ألسنتها عن أن تلهج بلغة القرآن على الوجه الصحيح، والصفة التامة، اعتماداً على ما تعودت عليه النظم التي في أذهانها من خاصة لغتها الأولى، حصلت ظاهرة اللحن في حواضر بلاد الإسلام. ولأن الأمر صدر عن أقوام هم من الأمة بالانتساب والولاء، ومن الجسد بمثابة الأجزاء والأطراف، قام نفر من العلماء أشهرهم الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 170هـ) للتصدي إلى معالجة هذه المهمة. كان ذلك في منتصف القرن الثاني للهجرة حين اتجهت وجهة بناء أركان النحو وقواعده نحو أصقاع العرب، ومنابت البدو والقفار، لتجمع اللغة من ألسنة الغلاظ الشداد. على أن هذا العَوْد - على ما فيه من الدقة والشدة والقوة والصرامة - لا يلغي أبدا ما في ألسن العرب من تعدد واختلاف. بل ينهض على جمعها بمتفرقها ومتعددها[2].

ويبدو لنا أن العربية عند علمائنا الأوائل إن نحن أردنا الاختصار، واختزال صورتها، وكيف تكون بأيدي مالكيها، قلنا هي: «كالطِّوَلِ المرْخِيِّ وثِنْيَانُهُ بِاليدِ». ذلك أنه وإن

اختلفت عدنان وقحطان و «تخالفت عليا تميم، وسفلى قيس، وعجز هوزان، وفصحاء الحجاز، في اللغة، وهي على أكثرها على خلاف لغة حمير، وسكان مخاليف اليمن، وكذلك في الشمائل والأخلاق كلهم مع ذلك عربيٌّ خالصٌ»[3].

لأن الوحدة الراشدة والعروة الوثقى لا تنفي بحال من الأحوال التعدد الذي عليه وضع أصل الخليقة . بل إن هذا إغناء لتلك وسند لها ما خلصت النيات وصفت السرائر. والشاهد ما رأيناه من الأمم الداخلة في الإسلام ، وكيف أنها أفادت بفلسفاتها ومدنياتها العرب ودفعتهم - بلحنها في اللغة واعوجاج ألسنتها - إلى بناء صرح النحو وقواعد العربية، دفعا من داخل الحواضر المتجددة القائمة في تداولها على الألسن المتعددة، وهي كلٌّ متوحدة الصف، موحِّدة لإله واحد. ولأنّ التنوع الجديد له من التنوع القديم أصول عند مختلف لهجات العرب، فقد أقر الإسلام أن ينفتح القرآن الكريم على الأحرف، هي السبعة الأقلام، تيسيرا على بطون العرب وتسهيلا على مَنْ بألسنتهم إعجام. «ولأنّ الأمر إذا تجاوز حده انقلب إلى ضده»، رأينا ما جاء في الأثر.. حينما لحن أحدهم - قيل - «أرشدوا أخاكم فإنّه قد ضلّ»، ومن أجل ذلك اهتدى المسلمون من بعده إلى الرجوع إلى المصحف الإمام، خوفاً من انفراط العقد، وشتات الأمر.

بلغ التنافس بين الأقوام والأمم مبلغه من التنافس للظفر بتعلم العربية - بعد انتشار الإسلام وعلوّ شأنه في العالمين - بل تسابقت الألسن في اتقانها ونيل رضوانها، حتى أضحى من تكلّمها أو تملك زمامها أخذ بأسباب التحضر وتقلّد أوسمة التمدن. وانتقل العرب بهذه الجبلة، وتلكم الحركة إلى تأكيد الحضور في أصقاع ما حلموا يوما مرورها بالعبور، إنما هي الرسالة والهدايا حين جمعت هؤلاء إلى شيع الفرس وطوائف الروم وسائر أهل البرنس والمستقسمين بالأزلام تحت راية واحدة وكتاب، قال الله فيه: **﴿لَقَدْ جَاءكُمْ من الله نورٌ وكتابٌ مبين، يهدي به الله مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلام ويُخرِجَهُم مِنَ الظلمات إلى النورِ بإذنِهِ ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم﴾** (الآية 16-15 من سورة المائدة).

ذاك ما كان في أيام انبعاث العرب بالإسلام من رقدتهم، ونهوض لغتهم بعد أن أنهضتهم الرسالة من كبوتهم، وهم في تلكم العصور الأولى كما أشرنا آنفاً من القوة والتمكين إذ قويت شوكتهم، وثقفت رماحهم. أما في الأواسط من العصور حين مسهم بعض من ضعف في سنامهم، وتراجع عسكرهم في ساحات قتالهم، فقد بقي الدين الذخر والمعين، وبقيت به العربية القوة الداعمة، والحبل ذو الثنيان المتين. وقد رأينا كيف آلت حملات جنود جينكيز خان وهولاكو وتيمور لانك على أمة الإسلام من بغداد وفارس وأرض العرب من هزيمة

العرب عند اللحمة والحمية في الحرب، إلى انتصار للدين والقرآن، إذ تحول الأعداء إلى موالين للحق بعد أن وضعت الحرب أوزارها، لاهجين بالعربية - وإن نحن تجاوزنا قلنا مغزوين في عقولهم وألسنتهم - إنما هو الحق الذي يظهره الله على ما سواه، حتى ليذهب الغزاة كل مذهب في مراجعة موروثاتهم وعاداتهم لتستقيم على النهج القويم، بل تروح تبحث عن سبل كتابة لغاتها بالحرف العربي - عن طواعية غير مكرهة ولا هي مُلزمة - زيادة في القرب من القرآن وإظهارا للولاء للإسلام ، قناعة ثابتة وعقيدة راسخة، لا يدفعها سيف ولا حرابة، بل هي كما رأينا رابحة في الحرب لا مغلوبة.

وليس هذا ينطبق على الحضارة العربية الإسلامية خاصة بالحصر والتحديد، بل هو مما ينسحب على كل حضارة متمكنة وثقافة متجذرة، ولغة شاعت بهذه وتلك. فلو عدنا أدراجنا ننقب في تاريخ الأمم لوجدنا في العصور القديمة الموغلة في القدم، ألوانا من هاتيك الحكم، فأثينا على خسارتها في غزو الروم لها واستحلالها أرضها، ما لبثت أن غلبت بأن حولت الروم إلى ثقافتها الواسعة وعلومها الشامخة، وأضحى مَن كان جاء غازيا بالأمس - وقد تحقق له ما أراد في ساحة القتال - مغزواً في فكره مستهدفا في لسانه. هذا يتفق مع ما أسلفنا، في القانون الساري في منحى التاريخ الجاري . فإذا أضفنا لذلك أنّ حفظ العربية من حفظ القرآن، وهو ما أكد

استمرارها على مستوى نحوها وتراكيبها لما يزيد عن أربعة عشر قرنا من اقتران الإسلام بها - دون احتساب ما قبله من عهود - بينما أقصى حياة اللغات هو بين قرنين وأربعة قرون بحسب ما وضع علماء الألسن من التقديرات.

(2)

إن ظاهرة اللحن التي شهدتها حضارة الإسلام ولغته في أوج عطائها وانبثاق أنوارها لا تشبه في شيء الدعوات إلى العامية التي فرضها الغازي الجديد (الاستعمار: أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين). ذلك أنّ الأولى - إضافة إلى أنها صدرت عن أقوام اعتنقوا الإسلام ودانوا بالولاء كما أشرنا، ورغبوا من ذاتهم في تعلم العربية - فإنّها (أي ظاهرة اللحن) دعت الثقافة لأن تعيد تشييد ذاتها بالارتداد إلى دواخلها، وبناء نحوها على دعائم من جنس لغتها وجواهر معدنها. ويومئذ لم تكن للإسلام من مطامع في ما هو بأيدي الآخرين، ولا هو مضطر لإضعاف ثقافات الأمم ولغاتها وتفتيت مرتكزاتها وبنياتها، وإنما مبلغ غايته كان: كيف السبيل إلى إشاعة مبادئه السمحة وقيمه المثلى التي تحقق للإنسان عتقه وسراحه من عبودية أخيه الإنسان؟ وكان لأجل تحقيق الغاية يضطره الصدّ والمنع لإعلان حروب ضد سادات البشر ومستغليهم، والحائلين بينهم وبين الدين القيّم. قلنا إن

منحى الاستعمار كان خلافاً لما كان عليه نهج الإسلام وسلوك المسلمين لاختلاف المرامي والأهداف، وقبله لاختلاف الوضع البشري والأمر الإلهي. ولمزيد من التفصيل في هذا، نعرض لما رافق الإنجليز في حملتهم على مصر: إنّهم (أي الإنجليز) على عهد الخديوي إسماعيل في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، قد أعدوا العدة بنية ضرب لغة الضاد. ولما كانت لغتهم ليس لها من سبيل إلى القوم المحتّلين إلاّ إذا ضعفت عربيتهم ، فقد أطلقوا الدعوة إلى اتخاذ العامية سبيلاً ليس في حيز التداول اليومي - لأن ذلك ما هو جارٍ بالواقع حاصل بالبديهة - وإنما سبيلهم ومرماهم إلى جعلها اللغة الرسمية والقانون السائر، وقد وظفوا لذلك أحد الألمان المختصّين (ولِهَلْم سبتّا)، وكان منطلق هذا الأخير ما خبره من تبدّل يعلمه وتغيّر خبره أصاب قديما اللاتينية عند الأوربيين، فأضحت لغة تالَدة ولسانا معفيًا، قامت مقامها لغات هي بالأساس والأصل لهجات تلكم الأقوام وعامياتهم. ثم طفق «سبتّا» يؤلف صرفا ونحوا بعد أن فحص مختلف ألسنة حاضرة مصر وبواديها، وزاد بأن جمع الأمثال والأزجال وقصص الذين كان يراهم أقواما يبشر بجمع متفرقهم، وتأسيس كيانهم، وتقويم لسانهم. واستثمر الإنجليز إنجازات «سبتّا» هذا، والتي كانت توصف عندهم بالدراسات «العلمية»، وراحوا يبحثون عن الدواعي الكفيلة حتى يستسيغها الشعب القابع تحت قبضتهم

ويرتضيها، وتهضمها بطون علمائهم ويعملوا على تطبيقها واقعا حيًا يدبّ على الأرض. ومن أهم تلكم الدواعي التي اتخذوها متكأ يستندون إليه، ومعوّلا يعتمدونه، هو حرصهم على رفع الأميّة ودفع الجهالة ، ولعل اعتقادا يتلبّسهم بأنهم سدنة المشعل وحملة النور إلى شعوب بدائية وأمما متخلفة، هو أصل كل ذلك وأساسه. وغريب الأمر أن ترافق هذه الدعوة (أي دعوة رفع الأمية) العمل الدؤوب والجهد المضفي لتقنين استعمال المصرية يومها بحروف لاتينية، باسم التعارف بين الأمم وتسهيل تجارات رابحة وأرزاق وافدة، ومقاصد خيرة في تعليم أهل البلاد ونقلهم إلى المدينة. وعلى رغم تهافت الدعوة وبروز القصد المخبوء، والنية المبيّتة، فإنّ ذلك لم يمنع بعض أهل العربية من المنتسبين من الانجراف دون أن يعوا لهذه الدعوة بآذان صاغية طائعة، وأقلام داعية حامية. بل لقد امتدت الفكرة وانتشرت انتشارا حتى تفرقت في بلاد الشام (لبنان وسوريا خصوصاً)، وتنوعت الإسهامات لدعم هذه الجلبة بين الكتاب والصحيفة والمجلة. ولو ظنّ الظّانون أنّ الكتب الجامعة للأمثال الشعبية والحكم الإنسانية، إنما هي أعمال الجدّ، تدعم علما هو علم الإناسة عند العرب - وهو لديهم ضعيفا-، وأنّ الصحف والمجلات الصادرة باللهجات المحلية ، هي من باب الأعمال الداعمة لأدب السخرية - وهو ما تحتاجه أمة مقهورة - إلاّ أنّ الحجّة تستمر في سقوطها، ولو راوح

الأمر بين العلم الجاد والأدب الساخر. لأننا واجدون في الصحف الساخرة في النصف الأول من القرن العشرين سفوراً واضحاً لهذه الأهداف، وتلكم الأغراض حيث تتوّج اسم جريدة «المطرقة» القاهرية الصادر عددها الأول في «10 آب» (أغسطس) 1924 بـ «لسان حال رابطة الزجالين»(4). أو نجد الالتزام بأبيات زجلية في افتتاحية كل عدد من جريدة «الدبّور» البيروتية، (يعود عددها الأول إلى 14 كانون الثاني (يناير 1923)(5) أو يلازم صحيفة «نهارك سعيد» للويس الحاج الصادرة صيف 1952 شعار «جريدة رصينة مستقلة تصدر باللغة التي تفهمها»(6).

وضمن وجهات النظر تجاه هذه الصحف التي كثر الجدل حولها أيام انبعاثها، يمكن الرجوع لنموذجين نقديين.. أحدهما وصفي، والآخر معياري. أما الأول، فقد صدر عن جبر ضومط وهو لغوي وأستاذ الأدب العربي في الجامعة الأمريكية في بيروت، ونشر انطباعه عن مجلة «سركيس» في عددها الصادر أول تموز (يوليو سنة 1908) يقول فيها: «أما المجلة فأسخطتني أنا وأرضت امرأتي وأولادي..» وتعليقا على أحد المقالات الواردة فيها قال: «إنها قصرت وقتي وفكهت عقلي وأنستني نحوي ولم تؤثر بصرفي»(7).

أما الثاني: فهو رد اتحاد الكتاب الفلسطينين على أحمد

شاكر الكرمي الفلسطيني صاحب صحيفة «الميزان» الصادرة في دمشق غرة 1925، لما أشرك الشاعر الشعبي البيروتي عمر الزعني في التحرير، وسمح له بنشر قصائده. ومما جاء في كلمة الاتحاد: إنّ في نشر قصائد الزعني «دليلا على الميل إلى العامية، واستحسانا لاستعمالها، وحضا على التشبث بإحيائها. وفي ذلك جناية على لغة القرآن وعقوقا لأم اللغات[8].

من هذا وذاك نتبيّن أن السجال قديم، والرؤى في المسألة تتضارب وتتعارض، وإن كان الرأي الأوّل قد حصر جماع الموضوع في اختلاف الأذواق، في شقه الأدّل ما بين العالم باللغة وغيره ممَّن لم يكن على تلك المنزلة، ولا بلغ المرتبة، فإنَّ الشق الآخر فيه إشارة واضحة ودلالة صارخة على أنَّ الخطر في التساهل مع اللهجات أنه يصيب ناطقيها بفساد في النحو دون الصرف، وآفة التراكيب حسب رأي علماء العربية عالقة باللهجة متصلة بها.

ثم إن الثاني ينتفض لسبب وجيه جداً هو خطورة تداخل الأطر، واختلاط الحابل بالنابل، لأن المجلة عرفت نفسها، وحددت صفتها تخصيصا وتعيينا في افتتاحها بأنها جريدة ثقافية، ولا يغيب على صاحب بصيرة «أن تكريس للهجة حاملا للرسالة الثقافية، وبديلا عن اللغة القومية لهو الانتحار

الجماعي ، على عتبات ملكة التاريخ»[9]، ثم لا ينأى بنا هذا الرأي عن نقده وسؤاله، لما فيه من حمّية وحماسة تضمنت خوفا على ما لا يخاف عليه، وتصدِّيا لحظر لا يمس إلاّ أهل اللغة الناطقين بها، أمّا اللغة من حيث إنها لغة القرآن، فهي محفوظة مصونة من ربٍّ ديّان، لا يصلها بسوء واصل وإن جدّ، ولا يبلغها قاصد بضرر وإن حرص كل حرصه.

(3)

أما مع الكونية الشاملة، والعولمة، الجامعة فإنا واجدون السيرة ذاتها، والطريق الاستعمارية المهيمنة نفسها من حيث فرض النمط الأوحد، واللون الذي يتأبى عن التعدد. في شكل من الغطرسة والقوة بلغت منتهاها، وأصرت على تحقيق غايتها ومداها في إضعاف العربية وضرب أهلها. وإن هي - في تصورها حققت في الثانية المنى على ما عليه حالنا - فإنّ مع الأولى عاجزة ومخذولة. لأنها قاصرة على أن ترى الروح الباعثة لهذه اللغة، والقوة الدافعة لها على البقاء بنحوها وتراكيبها على صورتها كما هي منذ قرون وقرون.

وإنّه لما رأوا ما في العربية من ذاك الثبات وما أدركوا فيها من قوة للاستمرار والحياة، مالوا لطرق من الإقصاء، وأساليب من التعسف ليمنعوا.. بقاءها بين أخواتها لغة معتمَدَة في مؤسسة هي بالأساس لخدمة أهل الأرض

جميعاً"[10]. أضف إلى ما سبق الربط الغريب الذي تقيمه بعض الدعاوى الوافدات من أصحاب العولمة وسدنتها، بين ظاهرة التّشدد وجرائم الإرهاب، ومسألة العربية ومحاولات التعريب في مناهج مدارسنا..، وهم في ذلك يحاولون جهدهم إرجاع السبب بسببه الذي خمّنوه - ظلما وعدوانا - إلى العربية والإسلام، فمنهم القائل إن التعريب، وجهود المعربين هي المنشأ والمسند، لرجوع الناشئة إلى دائرة العنف والتعصّب. ونسوا أو تناسوا حوادث تنقلها وسائلهم بالاستمرار والدوام من أعمال العنف عندهم، حتى إنها طاولت ناشئتهم وولدانهم، بل وتقوم الجرائم البشعة والأعمال الدنيئة في مدارسهم وساحات علومهم. فإن نحن قسنا على ما قاسوا ، وذهبنا إلى ما ذهبوا - ولسنا فاعلين - قلنا إنّ مردّ ذلك إلى أن لغاتهم جميعا تعود بالأصل إلى اللاتين، وأن العنف في لغاتهم من جهة سلطة المتكلم الفرد فيها، وإغراقها في التعدد إلى حدّ التشتت والتبدّد. ولمّا علمنا أن هذا الرأي مردود بالبديهة وباطل بالعقل، نرجّح أن يكون مردّ عنفهم إلى ما آلت إليه حضارتهم من غلبة للآلة ، وضياع للإنسان في رحاها. بل نزعم أننا لا نكون مغالين إذا قلنا إن حيرة الإنسان وعنفه، إنما يعود كل ذلك إلى ضعف جانب الروح، في معترك التشاغل عنه بنداء الأرض. وتثمين للجسد وإعراض عن النفس. هو ما أدى إلى ما وصلت إليه حضارتهم من تآكل وتفتت.

ثم إنه من أغرب ما سارت عليه، بلاد كنا نحسب أنّها تشاغلت عنّا بما مس كيانها من غزو عولمي، وما استهدف لسانها من هيمنة السكسوني، هو أن تطلع علينا وزارة التربية والتعليم الفرنسية بقرار هي مانعته عن نفسها ومحرمته على لغاتها، ففي السابع من الشهر الأول من هذه الألفية (2000/1/7) طلعت علينا عبقرية الفرنساويين واستنباطاتها، بما يمس ناشئتنا ممن شاءت أقدارهم أن يكون تعليمهم لدى الفرنجة بحكم الغربة والهجرة. وأراد قرارها - عسفاً وظلماً - أن يختبر أبناءنا في عربيتهم الفصحى، مشافهة في الباكالوريا (الثانوية العامة)، على أن يكتبوا اختبار اللهجة - ومن هنا يزداد عجبنا - كتابةً مثبتة على الأوراق المعتمدة. ومما يعجب منه العجب أن تتدافع دعاواهم إلى كتابة العربية بالحروف اللاتينية[11]، وهو ما يعود بنا إلى عهود الاستعمار التي ظننا أنا انفككنا من إسارها، وقدم أجدادنا وآباؤنا أرواحهم ثمنا لحريتهم وحريتنا من قبضتها وعقالها. على أن الفرنسية اليوم ليست بأحسن حالها ولا بصحتها وعافيتها التي كانت في غابر الأزمان، أيام القرن التاسع عشر إلى الحرب الكونية في ثاني جولاتها. ويجدر بأصحابها والقائمين عليها أن يلتفتوا إلى إصلاح حالهم، وترتيب أوضاعهم، لعلهم يقفون على عوراتهم وثغراتهم. ولعلّ امتناعها وتصديها لمحاولات العولمة في «إدراج الثقافة ضمن اتفاقيات التجارة الدولية»، وعمل

الأمريكان على «تنشيط الأنظمة البصرية»[12]، هو ما بوسعنا أن نؤيده فيها ونلتقي معها على صعيدها، على أن تَعي أن فكاكها ذاك من القبضة وصدودها هو صدودنا سواء بسواء، وأنّ ما يدعوها إلى خاصتها وخصوصيتها هو ما دعانا بالأمس. - لما عملت على تنميط ثقافتنا عند استعمارها لنا - وما يدعونا اليوم وأجيالنا، مستوى ذاك وقدره بمستوى هذا وقدره.

ثم إن العولمة التي لا ترعوي وراعيتها التي لم تتبصر بتشكّلها، حين كانت في البدء خليطاً من الأجناس والأعراق عملت على لم شمله على هوية موحدة - تزعم اليوم ألا سبيل إلى الهويات - وفي اعتقادنا أن عقلية القوة - تعود إلى الغطرسة بوجهها السافر وحالها الفاضحة في قناع عجز أن يخفيها وفشل أن يداريها.

وهي إلى ذلك بسطت ولا تزال أميتها على البلدان في الإدارة والسياسة، وكذا قبضت مصائر المعائش وضيقت موارد الأرزاق - واهمة -.

ويجدر بنا أن ننّوه بجهود علماء الألسن من العرب، لما نبهوا إليه من مخاطر ما يتهدد أهل العربية وألسنتها في خضم التدافع العنيف، والتقاتل على الفضاءات في حقل المعرفة والمعلومة، التي أضحت الحرب عليها كالحرب التي

عرفها سابق تاريخ البشر على الماء والحياة. وأذكر ذكرا لا حصرا صديقنا العزيز الدكتور عبدالسلام المسدي الذي نبشنا كتابه الأخير الموسوم «بالعولمة والعولمة المضادة»، وقلبنا خطابه، فما وجدناه إلا كما عهدنا، إفاضة في الثقافة وتبحرا في العلم. وقد أحاط بالموضوع، وقلب جوانبه حتى لكأني أحسست أنه لم يترك أمرا دقّ إلاّ وشمله وفحصه ودرسه. إلاّ أن ذلك لا يمنع من الحوار والمناقشة، دعما للجهود المخلصة والعقول النيرة. وقد رأيت أن أعرض لمسألة عرضها ليتناولها جمعكم الكريم وأنتم أهل الدراية والعلم ، قلت قد عرض صديقنا الفاضل عبدالسلام المسدي، لمسألة اللغات الأجنبية، وكيف أنها كانت وستظل عدواً تاريخيّا، وأضاف: «ولكننا مدعوون اليوم أن نتخذها حليفا استراتيجيا، بعيد المدى فنستنبط معها عقد شراكة بكل فوائضه القيمية المربحة. أما اللهجات - لا كأداة تعبير حي تلقائي، وإنما كوسيط ثقافي... فإنها شقيق طبيعي يتحول على أيدينا إلى عدو إيديولوجي بكل قيمه السلبية الناسفة»(13).

أقول إن كانت عقدة اللغة الأجنبية بما تعنيه من مظاهر «ولع المغلوب بتقليد غالبه» على ما يرى العلامة عبدالرحمن بن خلدون ، ومحاكاته لها في خاصة المجالس وعمومها، فإنّها في بعض أمصارنا أخفض شأنا وأقل حدة - ولعل صديقنا عبدالسلام المسدي ينطلق من عينات هذا الصنف من الظاهرة

العامة -، لكن نرى في بعض أمصار أخرى مظاهر للتقليد أشد مضاء وأقوى بأساً، إلى الحد الذي يجعلها تداخل التعبير التلقائي في التداول اليومي، آخذة من السياق والألفاظ محلها البارز حتى لتغيب اللهجة أحيانا.. لهجة أبناء العرب، ولغتهم بالكلية وهو ما يُلاحظه لدى أبناء الطبقات المرفهة عادة، وأمر متمكن في جل الطبقات لدى الشعوب التي عاشت الهيمنة الاستعمارية لأزمان متطاولة، ثم لا تقف الحال عند هذا الحد، بل يتجاوز بالاستتباع إلى التداول الثقافي، ولسنا معترضين على صحفنا التي تصدر باللغات الأجنبية، ولا تلك القنوات التي تتخذ اللغة الافرنجية، لأنها أدوات لو أُحسن توظيفها لأزالت من أذهان الفرنجة كثيراً من التصورات الخاطئة في نظرتهم إلى أهل الإسلام والعربية. بل نقصد بالتحديد والتعيين تلك المناقشات الثقافية التي تجري في مؤسساتنا وفضائياتنا التي قامت على المناقشات الأدبية واختيار العربية أداة، وإذا بالنخب القائمين عليها، والضيوف الحالين بينهم، يتطاولون مفاخرة من الحين إلى الآخر - باستدعاء المصطلحات - المجتلبة والكلمات الدخيلة، إمعاناً منهم في الادعاء، وهم إذ يفعلون ذلك يعبرون عن عقد النقص التي استحكمت في نفوسهم، واستولت على ألبابهم، مع أننا لا نعدم الأعذار لبعضهم في ما كان اختصاصا نادرا وعلما لم نصل بعدُ إلى امتلاك أدواته ومصطلحاته، وإن كان هذا محفزاً

لمزيد من الدرس والتنقيب في تراث يزخر، وجني حقول من صناعة العرب الأوائل لاتزال أسراراً محفوظة وكنوزا مكنونة. مع هذا الرأي الذي رأيناه، والاعتراض الذي أبديناه، يجدر بنا أن نثمِّن تعريج صديقنا وتأكيده، على أنّ الهجمات المقنعة باسم دعم اللهجات إنما يهدف إلى إضعاف العربية.

انطلق المتربصون بالعربية قديما وحديثا.. من قضية أن اللغة - أية - لغة إنما هي نتاج اجتماعي تتحول بتحوّل تواضع الناس عليها، وما تحدثه حيواتها بحياتها عبر الأزمان والأمكنة، وهي حقيقة باتت من المسلمات. ونحن لا نرى أننا ملزمون في فحص لغتنا على الوقوف حجرا عند تلك المسلمة، ذلك أن العربية قد أضيف إلى وضعها، كلغة تواضع العرب عليها أنّها اقترنت ببعد روحاني، وبكتاب محفوظ. فأخذت من قداسته مكانتها ومهابتها، ولأجله قلنا إنّ بقاءها إلى هذا الزمن هو قرين بقاء القرآن. ونضيف أنّ مستقبلها باق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ولذلك يبطل قياسها على ما في ألسن الأقوام الأخرى ، لأنّ ألسنتهم كما هي حضاراتهم.. من الوضع البشري سليلة وإليه آيلة وعائدة، وجودها بوجودهم وحدودها بحدود أذهانهم، وما توصلت إليه رؤاهم ومخيالهم. وهي أي لغاتهم قريبة قرباً شديداً إلى لهجاتهم التي يتداولون وأزجالهم التي يزجلون. مؤثرة هذه على تلك بشكل واضح معلوم، في تقلبها ودورانها وتأثرها وتأثيرها. وكان وراء

دفعهم إلى تبني اللهجات في بلاد العرب والمسلمين.. قاصدين أن ينفك عقد العربية كما انفك عقد اللاتينية إلى لغات مختلفات، كانت لهجات في بدئها ومولدها، هي الآن متعددة الكيانات، مستقلة في نحوها وصرفها وألفاظها تتشابه في القليل، وتختلف في المتعدد الكثير، بين إسبانية وإيطالية وإنجليزية وفرنسية. إلخ. لكننا رأينا كيف أن تلك الدعوة بطلت وتشتت شملها واندثرت، على أنّها استفرغت جهدها لمدة غير يسيرة، منذ أوائل القرن التاسع عشر إلى هذا اليوم من الاستعمار العسكري للبلاد العربية، إلى الهيمنة الاقتصادية التي لازمتها الهيمنة الثقافية، ولا يعود مرد اندحار هذه الدعوة لتصدي نفر من علمائنا الخلص لهذه الحملات لأنّ قصارى ما حققته هذه العصبة الكريمة هو ليس الحفاظ على العربية من الاندثار - لأنّ ذلك في رأينا هو ما تكفل به الله عزّ وجلّ إذ حفظ كتابه - وإنما هي ذادت عن ألسنة ناشئتنا وحفظت سلامة لغتها من الزيغ والعجمة، سواء بعملها على ربط الصبيان بالحفظ والرجوع إلى معدن اللغة الخالص (القرآن)، أو في وضع المناهج وتسطير البرامج في مدارسنا المدنية ومؤسساتها الحضرية في جانب درس العربية، وتيسيرها ثم تداولها بين الأجيال على صورتها الناصعة، وتلك لعمري رسالة العلماء التي هي من رسالة الأنبياء الأطهار. نعمل ما وسعنا لدعمها ودفعها وتشجيعها.

لأجل كل ما تقدم فإننا لا نرى من مبرر لقياس العربية على ما يعتري اللغات الأخرى حين النهوض لتحسين أداء ناشئتنا، لأن الفوارق ظاهرة بارزة، وواضحة جلية: أهمها تعلق العربية بالرسالة، وأدناها التحام الألسن الأخرى بصفة الضعف البشري والقصور الإنساني، في أصل اللغات التي لم تتحول عن طابعها الوضعي، وصورتها الطينية الأرضية ولا هي تعلقت بالسماء من جهة إعجاز رسالاتها النبوية.

من ذلك فإن الخائفين - في رأينا - على العربية مما يحسب أنه يتهددها من مخاطر، وما يظن أن عواصف تستهدفها كمن هو خائف على الإسلام والقرآن مما يحيكه أعداؤهما، وما يتربص به ألداؤهما، هذا سواء بسواء، مع ذاك في الفهم والدرجة. وحقيقة الأمر في رأيي ليست المسألة على ما يُظَنُّ كذلك، بل قصارى المصيبة ومنتهاها أن المسلمين يُصَابون بالسهام، والناطقين بهذه اللغة تمسهم الشظايا وتحرقهم نيران أعدائهم. (ذاك بمثل ما يصيب أطفال الانتفاضة المباركة في فلسطين المحتلة هذه الأيام). مما يجعلنا لا نتوقف على التنبيه إلى حسن تعليم الناشئة لغتهم.. منذ وقت مبكر، وإصلاح ما مسّ ألسنة الداخلين علينا بدون استئذان، المتحدثين إلينا - وهم منا - عبر الشاشات والإعلان. أما العربية والقرآن، فهما في حفظ ربّ الأكوان.

الهوامش

*) هذا البحث قد ألقي في ملتقى المجلس الأعلى للغة العربية، في ندوة عنوانها: «مكانة اللغة العربية بين اللغات العالمية»؛ في الجزائر خلال أيام 10 و11 و12 شعبان 1421هـ الموافق 6، 7، 8 نوفمبر 2000م.

(1) رسائل الجاحظ: الرسائل السياسية: قدم لها وبوبها وشرحها، د. علي أبو ملحم، ط 1، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1987، ص 476.

(2) لا نرى أنّ هذه العودة «لعالم الأعراب» - كما ذهب د. محمد عابد الجابري - دليل على محدودية عالم اللغة، ذلك أنّ عملية الشد كانت نتيجة ومحصلة لعملية جذب كما أوضحنا، على أنّ القرآن أضاف لكل ذلك ما فتحه للغة في معجمها من عالم الحضر الكثير، يمكن العودة لما طرحه محمد عابد الجابري في كتابه: التراث والحداثة - ط 1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1991، ص 144-143.

(3) رسائل الجاحظ، ص 476.

(4) جان دايه: دوريات ساخرة، صحيفة الحياة، السبت 12 آب (أغسطس 2000) الموافق 12 جمادى الأولى 1421هـ/ العدد 13667، ص 14.

(5) نفسه، الحياة، السبت 23 أيلول(سبتمبر 2000) الموافق 25 جمادي الآخرة 1421هـ/ العدد 13709.

(6) نفسه، الحياة، السبت 2 أيلول (سبتمبر) الموافق 4 جمادى الآخرة 1421هـ/العدد 13688، ص 14.

(7) نفسه، الحياة، السبت 22 تموز (يوليو 2000) الموافق 20 ربيع الآخر 1421هـ/ العدد 13641، ص 21.

(8) الحياة: السبت: 5 آب (أغسطس 2000) الموافق 5 جمادى الأولى 1421هـ/ العدد 13660، ص 14.

(9) انظر: عبدالسلام المسدي، العولمة والعولمة المضادة، ط 1، كتاب سطور، مصر، 2000، ص 406.

(10) ينظر المرجع نفسه، ص 393.

(11) انظر: عبدالسلام المسدي، العولمة والعولمة المضادة، ط 1، كتاب سطور، مصر، 2000، ص 395. وانظر: عثمان سعدي، قراءة في الخلفيات السياسية، (الحياة) الأربعاء 14 نيسان (أبريل) 2000 الموافق 14 محرم 1421هـ/ العدد 13552.

(12) المرجع السابق، ص 397.

(13) المرجع السابق، ص 409.

* * *

زهرة العمر!

«1»

صديقي العزيز الشاعر المحب الوفي.. النابض قلبه بالإيثار والوفاء، الأستاذ يوسف السيف. تعرفت عليه قبل بضعة أشهر، وكان البادئ بالفضل والوصل ، فسعيت إليه، حفياً به، ذلك أني لمست الود من أول لقاء.. كما يكون الحب من أول نظرة. وتحدثنا عن الحياة والأدب والترحال. والصديق قضى نحو عقدين.. في البلد الشقيق والجميل تونس، يعمل هناك.

وفي الزيارة الثانية.. بعد نحو شهر، قدم إليّ كتباً قرأها، وقلت إن عملي.. يصرفني عن القراءة. فأصر بكرمه.. أن آخذها، فهو قد فرغ من قراءتها، وربما قرأها أكثر من مرة.. كما قال لي، فأخذتها. وحينما بعدت عن - جدة -..

أياما في ربيع الأول، أخذت معي كتاباً.. جذبني عنوانه، ذلك أن اسمه.. يلح عليّ وأمثالي أن يرجع إلى ذكريات الشباب وربيع العمر. واسم الكتاب: «زهرة العمر»، لكاتب فنان مجيد بارع.. في الوصف والحديث . والكتاب كما يعرفه من قرأه.. رسائل ، كتبها الحكيم بالفرنسية .. إلى صديقه الفرنسي «أندريه»، المقيم في فرنسا. بعض الرسائل كتبها الحكيم وهو في باريس إلى صديقه.. الذي كان يعمل في فرنسا بعيدا عن باريس والباقي من الإسكندرية بعد أن عاد الحكيم.. من رحلته الدراسية في فرنسا، في عام 1936م. وحينما زار الحكيم فرنسا.. في عام 1938م، التقى بصديقه وزوجه - جرمين -، وكان الصديق يحتفظ برسائل صديقه، فطلبها الحكيم منه وأخذها، وحين عاد إلى مصر، حولها إلى اللغة العربية، ونشرها في كتاب.. كان ذلك العنوان - زهرة العمر- وكانت طبعته الأولى عام 1943م.

إن صديق الأستاذ توفيق الحكيم المسيو أندريه -، رجل مغمور، لا يعرفه عالم المعرفة، فأظهرته رسائل الحكيم. ولست أدري، هل الحكيم.. حين نقل رسائله تلك من الفرنسية إلى العربية، بقيت كما كتبها يومئذ، أم أنه غيّر وبدّل وعدّل؟. من المحتمل.. أن تلك الرسائل نالها شيء من الحذف والصياغة والتعديل ، لتكون هكذا.. كما ظهرت منشورة في كتاب -

زهرة العمر -. ولو كان بجانب كل رسالة.. النص الفرنسي الذي كتبت به، بخط الكاتب نفسه، دون تبديل أو تعديل، لكان التأكيد واقياً من التشكيك.!

وندع هذه الخاطرة جانباً، وإن كانت مهمة، لنتحوّل إلى نصوص تلك الرسائل، في أيام الصبا والشباب، حيث اختير.. أن تسمى كذلك. ونلاحظ أن رسائل الكاتب لا تحمل تواريخ كتابتها، ونقرأ في مقدمة الكتاب الذي يحويها قول كاتبها: «على أن من واجبي أن أشير إلى أني وجدت مع الأسف أكثر هذه الرسائل غير مؤرخ، ولم يكن في مقدوري ترتيبها على حسب التواريخ، ولا حتى حسب الحوادث، ترتيباً دقيقاً. ولعل ترتيبي هذا هو أقربها إلى الحقيقة والمنطق». ونجد الحكيم في المقدمة.. يعلن أن الرسائل الحقيقية لا يستباح بها التنقيح والحذف والتهذيب، فإن ميزتها الوحيدة هي التشجيع على نشرها بخيرها وشرها - وأكد أنه - توخيا للصدق لم يحذف حتى ما كان يحسن حذفه من عبارات أو فقرات أو حوادث.

وكنت أوثر لو أنه أثبت التواريخ للرسائل التي تحمل ذلك، ولكنه اختار إغفالها جميعها. والفترة التي كتبت فيها الرسائل محدد زمنها، وقد بدأت منذ كان الحكيم في باريس، وأندريه.. تحول إلى العمل الذي كان فيه - شمال فرنسا -، والبقية.. وهي الأكثر كتبها أديبنا من الإسكندرية . حين أقام

فيها بعض الوقت، قبل أن يستقر في القاهرة. ويذكر الكاتب، في المقدمة ، أنه تحدث عن صديقه الفرنسي.. في كتابه «عصفور من الشرق».

ولعل كثيراً منا يعلم أن الأستاذ توفيق الحكيم.. قد ذهب إلى فرنسا ، ليدرس القانون، ويعود من هناك إلى مصر وهو يحمل أكبر شهادة في ذلك الوقت. غير أن مدينة النور – كما تسمى – بهرته بأدبها وموسيقاها وفكرها ، فانحاز إلى هذا الجمال، بدل مواد القانون الجافة.. التي لا توائم طبعه وحسه وأخيلته ، لأنه كما يبدو خلق ليكون أديباً ، لا قاضياً ولا وكيل ورئيس نيابة، والحديث النبوي الشريف يعلن قول من لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وسلم: «كل ميسر لما خلق له».

جمع ونشر الحكيم «زهرة عمره»، قبل أن تذبل تلك الزهرة اليانعة، لأنها قوة وشباب وطموح وأمل ورجاء وتطلع إلى الارتقاء، وتوثب نحو المستقبل والحياة الكريمة، لأنها حياة.. بكل أبعادها ومدلولاتها ومعطياتها!

حين زار الحكيم باريس في عام 1936.. بعد انقطاع سنوات، كتب خلالها الكثير من رسائل، ثم توقفت بين الصديقين تلك الرسائل. وخلال جلسة شاي ، في منزل أندريه، نهض المضيف في صمت وهدوء.. واختفى لحظة. كما يقول

الحكيم «ثم عاد إلينا يحمل صندوقا صغيراً، وهو يقول باسماً: لم يكن من السهل أن ننساك أو ننسى تلك الأيام، وهذه رسائلك عندنا نلمح فيها طيفك ماثلا أمامنا.. أليس كذلك يا - جرمين - »؟. ويقول الحكيم إنه.. مدّ يده - على الرغم منه - إلى الصندوق، واختطف بحركة - غريزية - إحدى الرسائل، وأخذ يقرأها بشوق ولهفة، حتى نسي نفسه - كما يعلن -. ونسي من حوله والشاي الذي أمامه، ولم ير سوى شبابه ماثلا حوله. وأصر الحكيم على أخذ رسائله، لأنها جزء من زهرة عمره، على حين.. تمسك بها - أندريه. وتدخلت الزوجة «جرمين» لحسم الموقف، وهو أن يأخذ الحكيم رسائله، شريطة أن يعيدها إلى صاحبه.. خلال شهر أو شهرين، فوعد الحكيم بذلك، وحملها.. بحرص وحنان كما يقول، وكأنه - يحمل الرماد المتخلف عن «زهرة العمر».. الذابلة -.

ومضى الحكيم في ذلك الصيف.. الذي زار فيه باريس، وانطلق مع بعض الصديق إلى جبال الألب، وإلى الفن في - سالزبورج -، وشغل عن رسائله.. إلى أن عاد إلى مصر، فكان يرجع إليها بين الحين والحين، كأنه يرى فيها شبابه وحيويته، وما كان وسيكون، وأصبحت كما يقول أنيسه في وحدته. ومرت شهور.. دون أن يعيدها إلى صاحبه - أندريه -، وهو ذاكر لوعده . ثم أخذ في نقلها إلى العربية في

بطء.. كلما وجد وقتا، ولم يعدها إلا بعد عامين، حين سافر.. إلى فرنسا في صيف عام 1938م. وهو حريص على الحفاظ على النسخة العربية، لأنها جزء منه، وقطعة من حياته، وزهرة عمره.. كما يقول.!

وحين نقلب وريقات الزهرة الشفافة.. نجد الرسالة الأولى، كتبت من باريس، حيث كان يقيم الحكيم.. إلى صديقه «أندريه»، في البلد الذي يعمل فيه، بعيداً عن باريس، وذلك في عام 1936م.

يبدأ الحكيم حديثه إلى صديقه بقوله: «صدقت فراستك.. الخيال قد أضاعني يا «أندريه».. أنا شخص شقي، وليس الشقاء هو البكاء.. وليست السعادة هي الضحك.. فأنا أضحك طول النهار؟ لأني لا أريد أن أموت غارقا في دموعي».

ويسرد الكاتب حاله.. في تصوير فني بديع ، بأنه ضائع ومهزوم في كل شيء، وأن الحب.. كان آخر مرحلة انهزم فيها، وأن أناشيد الشجاعة.. التي كان يرددها ومظاهر البطولة التي كان يبديها، ما كان ذلك سوى تشجيع لنفسه، - كمن يغني في الظلام.. طرداً للفزع -.

ويمضي الحكيم في حديثه إلى صاحبه، متحزما بالقوة والشجاعة، وأنه يوهم نفسه بهذا التظاهر، وأنه يحس راحة

وعزاء، وهو يتحدث في وحدته عن القوة، ويرى أنه ذلك الرجل الذي صوره «إبسن» بقوله: «الرجل القوي.. هو الرجل الوحيد». ويخبر صاحبه بأن النقود التي أرسلها إليه قد وصلت كاملة، ثم يشكره، ويقول له: «وأرجوك ألا تستدين من غيري، ولا مني.. إلا للضرورة، فإني أعرف فيك الإسراف والتهور أحياناً. يجب أن ترعوي، وإلا أخبرت «جرمين» - زوج أندريه - بكل شيء».

الحكيم.. يضع في مطلع رسائله البلد الذي يكتب منه، وهو الآن في باريس، ويسجل اسم الشارع الذي يقطن فيه، ثم يضع حرف - في.. كناية عن التاريخ الغائب.!

لقد تذكرت ما قاله الأستاذ العميد، يوم استقبل توفيق الحكيم عند دخوله لمجمع اللغة العربية في مصر، بذلك الخطاب الرائع.. الذي استهله بقوله: «صديقي الأستاذ توفيق الحكيم.. حسب الناس لك.. وحسبوا عليك»، ثم قال: إن الناس يصفونك بالبخل، وأنا أقول إنك كريم.. إلخ. وحين فرغ الدكتور طه من خطابه، وخلا بالحكيم، عاتبه الحكيم على وصفه له بالكرم، لعله لا يريد أن يظهر بهذه الصفة ، حتى لا يطمع فيه الناس. وحين قرأت قول الحكيم في رسالته الأولى لصديقه - أندريه -، وقد تسلم القرض الذي عند صاحبه، دعاه ألا يستدين منه ولا من غيره!

في رسالة الحكيم الثانية إلى صاحبه، يقول في ثناياها: «قاتل الله الضعف، ومع ذلك، لولا هذا الضعف الإنساني.. ما وجدت العواطف الإنسانية الجميلة، التي تنتج أحيانا الأعمال الإنسانية.. العظيمة. إن الضعف مظهر جمال في بعض الأحيان. لماذا نعدّ دائماً الضعف البشري نقيصه؟.. مادمنا قد وصمنا به إلى الأبد، فلنحترمه أحياناً، ولنستثمره، ولنحوله إلى فضيلة من فضائل البشر.. بغير هذا فإن الحياة لن تحتمل». إنها تعابير فنية جميلة، من كاتب فنان، قرأ الكثير من الآداب، لاسيما بالفرنسية، ووقف على تلك الأخيلة الثرة الناضجة التي تكتب في حرية وبقوة ، وبوعي وإدراك.. تلك المعاني الجميلة، التي انغرست في مخيلة الحكيم وذاكرته، خلال تلك السنين الغنية بالفكر والثقافة الواسعة.. في مدينة النور، كما يتحدث عنها ويصفها الذين انبهروا بها، حين زاروها وعاشوا حياتها ومتاعها العلمي والمعرفي!

ويمضي الحكيم في حديثه إلى صديقه، فيقول: «أتراني أقلب «الحقائق».. كي أرى الدنيا ملأى بالحسنات والفضائل، خليقة باحترامنا، جديرة بتحملنا الآلام في سبيل المكث فيها؟».

«2»

إن الكتابة على السجية.. وإرسال الخواطر بلا تصنع

تفضي إلى معان جميلة.. ومعطيات تلقائية، فيها الكثير من الإعجاب الماتع، فهي تصوير نعشقه ونرتاح إليه، ونرى فيه إبداعاً غير مجلوب، ذلك هو عطاء النفس الصافية، تفرز صفاءً ومتعة أخّاذة.. تأسر قارئها بما يلاقي من زخرف وتنميق طبعي.. لا عوج فيه ولا أمت. إنه الأدب الحي النقي المصفى.. إن صح هذا التعبير، ترسله النفس من شفافية مفعمة بالرؤى والجمال المنداح فيها، لأنها تعيش.. في حياة حفيلة بالجمال نفسه، في زهرة العمر.. الذي يتيح له المزيد من العافية والمعرفة، فكان هذا الإبداع.. الذي يبقى مع الأيام جميلاً، لأنه صناعة جميلة، من خلال تطلع إلى الحسن المختلف.. في الحياة كلها. وحق لي أن أرد قول الشاعر:

والذي نفسه بغير جمال لا يرى في الحياة شيئاً جميلا

إن الأدب جمال في ذاته ولصاحبه، إذا كان الملازم له صادقا حقا، وذا مروءة ووفاء وأمانة، أما إذا كان متقلباً وفق الأيام، فإن أدبه لا قيمة له، فهو أدب مظهري موقوت وتصنع لا يدوم، لأنه زيف وباطل، وذلك في نفوس سيئة.. مع تلميع المظهر. فالأدب حياة النفس الوادعة المطمئنة السمحة السخية، التي تركن إلى الخير، ولا تركن إلى الذين ظلموا، وإلى الفجور والظلم والزور!

ويبدع الحكيم في التصور البياني والجمالي.. في السطور التالية، لأنه يمتح.. من شلال قراح صاف. أسمعه يخاطب صاحبه أندريه: «إنك لا تعرف الشقاء.. أما أنا فأعرفه.. إنه فجيعة الإنسان في آماله؛ نحن إنما نعيش داخل آمالنا.. فإذا اندكت ، فنحن كالنمل الشارد في الشتاء العاصف! لم يعد لآمالي مذاق؛ فهي كالماء القراح.. أجرعه على غير ظمأ، يخيل إليّ أني هويت قبل الآوان، كالثمرة التي تسقط من الفرع قبل النضوج..».

الحكيم يسترسل في رسالة التنفيس إلى صاحبه ، لأن أبا الحكيم بعث إليه ببرقية يسأله أن يبعث إليه رداً برقياً في حال نجاحه. ويعلن الحكيم لصاحبه.. أن كلمة النجاح غريبة على أذنه يومئذ. واسمه مسجل في بلاده.. في جدول المحامين منذ زمن، فيقول.. إن اسمه في عرف القانون محام. «لقد كانت فجيعة لأبي المسكين أيام أن كان يسمع ويرى أني.. أنسى صفتي كمحام، وانحشر في زمرة الممثلين، أو أولئك الذين يسمونهم عندنا – المشخاصية».

ذلك أن الحكيم حين ذهب إلى باريس.. بهره الفن والجمال، فدخل من أوسع الأبواب إلى الأدب والفن والحياة العريضة للفنون بعامة، وما أكثرها وأعمقها هناك، لذلك فهو يدرك أنه خيّب أمل والده، في أن يكون من كبار رجال القانون

والقضاة والمحامين، لأن نفسه خلقت لتعشق الفن والجمال، وصناعة القوانين والمحاماة والقضاء بعيدة عن هواه بعد المشرقين.!

ينساق الحكيم في حديثه إلى صاحبه، بأنه يختلف عن الذين عملوا في السياسة وأفضت بهم إلى الأدب في مصر. لكنه اختار من البداية الأدب، ولا شيء سواه، ولا يستطيع أن يتحول إلى غيره. وأدرك والده ذلك، وأنه سيجرفه عن حياة القضاء، فأشار عليه من أسماهم بالمخلصين.. أن يقصي ابنه عن مصر بعض الوقت، فبعث به إلى باريس، علّه ينسى الفن ويتركه إلى حياة قانونية.. ينظر إليها بكثير من الإكبار والتقدير. ويتساءل في حيرة: ماذا سيقول لأبيه، وقد غاص في الفن إلى الأذقان، في بلد الفن والأدب والجمال!؟

وتوقفت الكتابة بين الصديقين بعض الوقت، فيسارع الحكيم بالكتابة إلى صاحبه. فيقول له.. في أثناء الرسالة الرابعة: ويخيل إليّ أن الحب في هذا العالم.. عضو سوف يتمكن العالم الحديث من بتره واستئصاله، دون أن تخسر الإنسانية شيئاً كبيراً».

ويشغل بال الحكيم مستقبله وما يرضي أباه من نجحه في القانون، ولعله في شبه حلم، أو أمل.. لا أمل في تحقيقه، وذلك حين يقول: «إني أرغم نفسي الآن على الاستعداد للتقدم لامتحان الدكتوراه في القانون.. إرضاء لأهلي، لا شيء

يعوقني عن النجاح.. غير طبيعتي التي خلقت للضياع في الفضاء، لا للوقوع في قيود الدكتوراه . نفسي قد خلقت.. لتقرأ ما تريد، وقتما تريد، لتسعى إلى تأمل كل شيء، وتستبقي في الذاكرة ما تشاء، وتنسى ما تشاء»!

في الرسالة الثامنة.. من الحكيم إلى صديقه. وبالمناسبة ينبغي الإشارة إلى أن رسائل أديبنا، مرة تبلغ عدة صفحات، ومرة صفحة واحدة، وأحياناً سطوراً معدودة. ولعل ذلك يرجع إلى الحالة النفسية والوجدانية.. وقت كتابة هذه الرسائل، وكم وددت.. لو أن الحكيم احتفظ برسائل صاحبه، كما فعل الآخر، وبالتالي ينقلها إلى قراء العربية، ليروا أداء كل من الصديقين الفني والتعبيري.! غير أن الأديب العربي، وخاصة الشرقي، لا يهتم بالحفاظ على الرسائل الأدبية، ورسائل الأصدقاء، لتكون ذكرى ومرجعاً، حين يتاح لها أن تنشر. فالقدماء.. لعلهم كانوا أكثر منا حرصاً في الحفاظ على الرسائل التي يكتبها بعضهم لبعض، ولقد حفظ التاريخ رسائل الجادين منهم وغير الجادين.. في الماضي البعيد والقريب والحاضر كذلك. وأرجو أن يتاح لي يوماً ما كتابة مقالات.. عن تلك الرسائل الثرية، التي أتيح لها أن تبقى، وأن يعنى بطباعتها، لتكون حديثاً يتداول ويرجع إليه، لأنها تمثل أنماطاً من الفكر والأحداث والوجدان والتاريخ والأدب وحتى الملاحاة، فهي جزء مهم من التاريخ ، خاصة الفترات التي كتبت فيها، وحال الكاتب

والمكتوب إليه. وهي حلقة من الحياة، سميت بـ «أدب الرسائل»، وفي بعضها أو أكثرها ثروة أدب ولغة وبيان. إنها نمط مستقل.. أبدع فيه المبدعون، وحفلت به الحياة، وعشنا في زمن غابت فيه تلك الرسائل بأنماطها ومعطياتها. وجاء زمان، تدخلت فيه الآلة والأجهزة، التي قضت على ذلك التصوير الجميل البديع، بعامل السرعة وقلة بركة الزمن، وانشغال الإنسان بالحياة.. والتكالب عليها، كأنه سيخلد فيها، ونردّ ذلك إلى الهموم وقسوة الحياة، وأشياء أخرى كثيرة.. لعبت بالإنسان، وكان قبلها.. في هينة ودعة وراحة بال واطمئنان. ونقرأ قول القائل اليوم:

ومر زمان لعبنا به   وجاء زمان بنا يلعب

من خلال حديث الحكيم في هذه الرسالة الثامنة، إلى «أندريه»، يقول له بعد بعض التفاصيل.. التي يسوقها الحكيم إلى صاحبه، كأنه ينفس عن نفسه.. من خلال تلك الرسائل، ونحن واجدون.. أن بعضها يقطر أدباً وتعبيراً جميلاً، وبعضها.. ليس أكثر من تزجية وقت ! يقول الحكيم لصاحبه: «ولقد ذهبت أمس - الأحد - إلى «اللوفر» كعادتي - متحف باريس الشهير - الرائع. وإنك تعلم لماذا أواظب على الذهاب إلى اللوفر كل أحد، فهذا هو اليوم المخصص للدخول بالمجان».

ويصور الحكيم انبهاره بذلك المتحف، كما يصوره المعجبون والمتذوقون لذلك الفن التصويري الرائع، لأنه قيمة باقية.. متجددة مع الأيام.!

يقول الحكيم: «كل لوحة في الحقيقة.. ليست إلا قصة تمثيلية داخل إطار، لا داخل مسرح، تقوم فيها الألوان مقام الحوار.. إني لأكاد أصغي إلى أحاديث الأبطال وهم على الموائد في «أفراح قانا».. لوحة «فيرونيز»، وأكاد أسمع ضجيج الحاضرين». إنه حس أديب ذواقة فنان واع. يعيش الحياة والفن بنفس تشرئب إلى تلك الروائع الباقية والمتجددة مع الأيام، لأن فيها فنا راقيا متجليا، من مواهب أبدعت في صنعها وتصويرها، فبقيت مع ما أبقت.. من فن عال نادر! وحديث الحكيم ووصفه لتلك اللوحات النوادر، معطيات ذواقة، بهره الفن، فملك عليه نفسه، إعجاباً.. بصنع الإنسان الموهوب المبدع . وحق للحكيم أن يترك القانون الجاف، الذي كله عقاب وأحكام وقضاء وتجريم، إلى ما تميل إليه نفسه.. من جمال أخاذ، لأنه إنسان.. لم يخلق لكي يكون قاضياً، وإنما لكي يكون فناناً.. متذوقاً، ثم مبدعاً، فيما كتب وأعطى.. لأكثر من ستين مؤلفاً، أثرت الحياة الفنية الراقية عبر نصف قرن، وإلى اليوم والغد.!

وقال الحكيم.. وهو يحادث صديقه من خلال رسالته هذه، وهو يعلن اندهاشه وانبهاره.. بما في متحف اللوفر من

إبداع فني رائع: «إن طريقة إبراز كل هذه الحياة بالريشة.. لقريب من طريقة إبرازها بالقلم!.. إن أساس العمل واحد فيهما: والملاحظة والإحساس، ثم التعبير بالرسم والتلوين.. ولطالما وقفت عيناي طويلا على صفحات ناثر أو شاعر، وأنا كالمأخوذ.. أفحص السطور بيدي، لأتبين إن كانت من مداد أو من أثير!».

«إن روح الكاتب أو الشاعر.. لتشف أحيانا وتخف وتتحرك في الأجواء.. بلطف، كأنها نسيم راقص. هذا الشعور ملأ نفسي وبصري أمام لوحة، مثل «الربيع» لـ «نيونيتشللي»، التي يصور فيها رقص «الحسان الثلاث».. في غابة البرتقال، و «فينوس» قربهن تتبع بيدها وقع الخطا.. و«النسيم» من حولهن يعانق الأزهار «...» إن الشعر والرقص والموسيقا.. ليتناثر أريجها مجتمعة، في جو مثل هذا الفن العظيم». ذلك نمط من وصف الحكيم الفني، يصوره لصديقه.. عبر هذه الرسالة، وهو يجول بحسه ونفسه في ذلك المتحف النادر، يدخله مجاناً.. في يوم أحد، وأكبر الظن أن الزحام فيه على أشده، لكن الحكيم .. لا يعنيه ذلك كثيراً.. مادام يستمتع بالفن الذي يعيشه ويهواه، ويقضي أكثر يومه فيه، لا يشغله إلا استمتاعه بما حوله، مما يرى ويشاهد ويلمس، يعيش بحسه وحده.. في هذا الجو المفعم بالجمال المعروض أمامه، في أحسن عرض، وقد توفرت فيه كل سبل

الإغراء، ليتحقق للمشاهد الذواقة ما يبحث عنه.. ليمتعه ويبهجه ويرضيه، من فن راق رائع، بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى!

«3»

أما الرسالة التاسعة.. التي كتبها الحكيم لصاحبه ، فإنه يبدأها بقوله: عزيزي «أندريه». «سررت لخطابك الضخم، الذي انهلت عليٌّ فيه طعناً وتقطيعاً وتجريحاً!.. ولا أستطيع كيف أشكر لك عنايتك بتحليل شخصيتي المنكودة». ثم يقول الحكيم: «إن خيالي ليس من نوع الخيال المثمر.. الذي خدم الشعراء والكتاب، بل هو من نوع الخيال المهلك، الذي أضاع في وديانه السحيقة كثيراً من عاثري الحظ.. الذين حسبوا أنفسهم شعراء زمناً طويلاً، وهم ليسوا بشعراء!...».

الحديث بين الصديقين.. يجري تلقائياً، فلا الحكيم بضيق بما يصله من صاحبه.. من نقد، ربما يصل إلى حد اللذع، ولا أندريه.. يقلق من تهميشات الحكيم، عبر رسائله.. التي لم يتح لنا الإطلاع عليها ، لأن أديبنا يضيق بالحياة وأهلها ، وفي طبيعته القلق والتبرم. ولو حفظ الحكيم رسائل صاحبه، لكان أمامنا إنتاج زخم، كثير التنوع ومتعدد المذاق.. إن صح هذا التعبير.!

إن الحكيم شخصية مختلفة عن الآخرين باعترافاته في

رسائله هذه، وفيما قرأت له من قبل. وفي رسالته (9) يتحدث إلى صاحبه بمدخول نفسه وحاله ، فيقول بصراحة: «ثم هناك شيء آخر.. إخالك لم تلتفت إليه ، وهو طبيعتي التي تميل إلى عدم الأخذ بما يأخذ به الناس جميعاً من أوضاع؛ هرباً من الوقوع في الابتذال، وشغفاً جنونياً بالتميز والإغراب، ففي لبسي.. لا أرتدي كما يرتدي الآخرون، ولا أدخن.. لأن التدخين عادة عامة، وربما دخنت لو انقطع الناس عن التدخين، لا أهدى إلى حبيبتي الأزهار الجميلة ، ولا العطور اللطيفة، بل أهدى إليها - ببغاء - في قفص. وتسألني بعد ذلك.. لماذا أحب «المودرنزم».. أليس لأنه أعرب الفنون إلى الخروج عن المتبع المألوف». ويعلن كاتبنا إلى صديقه أنه يفهم حركة الحديث، ذلك أنها اتجاه إلى عدم التقيد بالمنطق العام. ويؤكد الحكيم لصاحبه.. الذي وصفه فيما يبدو، بأنه يصلح أن يكون رياضيا. ويعلن له.. أن أفكاره وتصرفاته - تكاد تسير على طريقة هندسية أو حسابية أو جبرية -. ويرى الحكيم أن ركونه.. إلى السبل الرياضية، في أفكاره وتأملاته - لمصيبة كبرى -. لذلك يقول: «إن التصوير الحديث.. أخرج من حسابه العواطف البشرية، وجعل أساسه الهندسة والمنطق العقلي الواعي وغير الواعي». ويطالب الحكيم في هذه الرسالة صديقه.. أن يكثر من هذا النوع من رسائله، ويراها متعته الوحيدة، لأنه محبوس في حجرته، استعداداً لامتحان

الدكتوراه.. في شهر مارس القادم. وهو ما لم يحدث، ولم يتحقق!

وفي الرسالة العاشرة للحكيم - تحاور - مع صاحبه شبه القريب، ولاسيما بعده عن زوجه وطفله اللذين يعيشان في باريس، وهو بعيد عنهما. وكان الحكيم.. يفيض عليه من شآبيب التصبّر، وتحمّل الغربة.. والاستمرار في عمله، واحتمال حال الوحدة. ويعلن الحكيم لصاحبه.. أنه كان قاسياً عليه - قسوة الطبيب الذي يمنع الماء عن مريضه الظمآن، بحجة الطب -. ويتراجع الحكيم في هذه الرسالة، لأنه سبب لصاحبه آلاماً، فيقول: «إنك تعرف أني بطبعي لست ممن يقفون عادة مثل هذه المواقف نحو العواطف! إني أحب الحب، وإنك لتعرف أن للحب مقاما كبيرا عندي في الحياة!.. في كل الحياة.. وربما كان الحب هو الشيء الوحيد الجميل .. الذي نعيش به ومن أجله نحن البشر!.. ».

ويأخذ كاتبنا يأسو جراح صاحبه البعيد عن الأهل، وكأنه يعتذر إليه. مما بدر منه ، ويشعره أنه يكبر الحب ويحترمه، ويقول: «أنا الذي اعتقد طويلاً.. أن عظماء الرجال هم عظماء العواطف، وأقوياء الرجال.. هم أقوياء العواطف.. إن الذي لا يعرف، ولا يستطيع أن يحب إنساناً.. لن يعرف، ولن يستطيع أن يحب الإنسانية! إن الحب والقوة لا يتعارضان»... في هذا البيان مجال بيان كاتب كبير، يعرف كيف يعتذر ويتراجع،

حين يدرك أنه قسا، وأنه أخطأ. وينصع بيانه.. في بلاغته وجمال سبكه وأدائه، ليكون جمالاً، يؤاسي به ما حدث، ليظل الوفاء والأداء الرائق منطلق الخطاب.. بين صديقين.. وإنما لقدرة كاتب، وشجاعة موقف، وصدق في الأدباء.. الذي يصبح قيمة، من معطيات قيمة الفكر والشخصية.. التي وعت الحياة، وعركها الزمن، فتكوّن فيها الوعي والقدرة والإدراك العريض!

وفي الرسالة الحادية عشرة، يرد الحكيم على رسالة صديقه - أندريه-، حيث تلقى الحكيم التمويل.. أربعمائة فرنك فرنسي.. القرض، فاطمئن أديبنا إلى وصول حقه. ويبدو أن صاحبه مسرف في الإنفاق. ويعلن الحكيم أنه شعر بالهدوء حين تلقى المال، وأن هذا الهدوء سوف يستمر، شريطة ألا يعود صاحبه لطلب قرض جديد، ولو - مليماً واحداً - على حد تعبيره، وذلك لحفظ توازنهما، أو كما جاء في تعبير أديبنا: «هي الطريقة الوحيدة لتصحيح مركزك المالي، ومركزي أنا أيضاً!..».

ويذكر الحكيم في هذه الرسالة.. رصيده في البنك، وهو مبلغ غير كبير، ثمن رواية له.. تمثّل في القاهرة.

ويعيد الحكيم اليوم مجددا .. ما قاله آنفا لصاحبه، من أنه جاد «في الاستعداد للامتحان في أول مارس». ذلك أنها

آخر فرصة له ، فإذا ضاعت.. فإنه يقطع الأمل نهائيا في نيل الدكتوراه. وهو ما حدث.. بعد ذلك ، لأن الرجل يسعى ورا أمل.. لا أمل فيه ، لأنه لا يحب ذلك التوجه الذي وضع فيه - من قبل والده.!

يضيف الحكيم «حاشية» لرسالته هذه، بأنه أراد الذهاب قبل يومين.. لمشاهدة «أندروما» لـ - راسين -، في الكوميدي فرانسيز!. وفكر في اصطحاب زوج صديقه معه، غير أنه.. حين تحسس جيبه، لم يجد فيه سوى قيمة مقعد واحد بالمسرح.. بالأعلى، وهو أرخص مكان هناك، وأعلن أنه لو كان يملك أجرة مقعد آخر في ذلك المستوى ، لخجل في دعوة - جرمين -. فيقول: «إن الارتفاع والعلو موضع فخر في كل شيء ، إلا في المسارح !..». ويقرر.. «إن الصلة وثيقة جدا بين فن النحت وفن تمثيل «التراجيديا»، كما هي وثيقة بينه وبين فن الموسيقا . ثم يقول: وهل الشعر - بنظمه وقوافيه وأوزانه الموسيقية - إلا من الفنون الخارجة على الطبيعة؟».

وفي رسالة الحكيم «12»، ينتقد نفسه، وكأنه نادم.. على موقف، لم يكن فيه الرجل الكريم المنفق في المعروف، وما أكثر ما يندم الإنسان في تقصيره، ولكن بعد فوات الأوان، والندم اعتراف وشجاعة موقف، ونقد للنفس الأمارة. قال الأستاذ الحكيم: «لاشك.. أني لست كريم الخلق بالفطرة والسليقة.. أمس هبط عليّ الشاعر البارناسي، في حال يرثى

لها، فلم أمد له يد المعونة كما ينبغي. يجب قبل كل شيء، أن تعرف.. من هو هذا الرجل عندي؟ إن الجلوس إلى ذلك الشيخ المنهدم.. كان ينسيني مفاتن الدنيا، لأنه كان يريني مفاتن الفن»!

وذلك الرجل الذي ضن عليه الحكيم ببعض العون المادي.. في لقائه ذلك، ثم ندم وأفضى بما حدث إلى صديقه، الذي يفضي إليه.. بما يقع له ومنه، عبر هذه الرسائل المتتابعة، من باريس، ومن الإسكندرية. ذلك الرجل البائس، كان يعين الحكيم.. في تجواله، في دنيا الفنون بباريس، وذلك حسبما يتحدث كاتبنا في هذه الرسالة بقوله عنه: «إنه أراد أن أبدأ في معرفة الفن من البداية، فأراني تطور النزعة الفنية.. منذ الإنسان الأول، وقادني إلى متحف التاريخ الطبيعي، ثم إلى دار الكتب، وعرفت كيف أبصر دون حاجة إلى دليل». ذلك أن عينيه تفتحت كما يقول، ومن ذلك اليوم.. تعلم الحكيم السير بمفرده، وقد أفاده الشاعر بما يكفيه، وأصبحت «محادثة الشاعر لم يعد فيها جديد».. يثير اهتمامه ولا التفاته. وأدرك الشاعر ذلك بحاسته، فلم يعد يحدّث الحكيم عن الفن وأصبح التقاؤهما نادراً، و بقي الكلام.. عن أشياء عابرة، تتعلق بشؤون الدنيا حتى توقف اللقاء. ولم يعد يراه.. إلا خلال ظروف قاسية، تدفعه إلى الزيارة ليقترض بعض فرنكات من الحكيم. ويتجدد ندم كاتبنا على تقصيره في حق صاحبه،

حتى حين اصبح ساخطا متبرماً، وهو يرتعد من البرد، ويقول له: «إذا لم أجد دثاراً ثقيلاً.. في هذا الشتاء، فإني لن أظل حياً حتى مطلع الربيع». ولكن الحكيم تجاهل شكواه، وكأنه لم يسمع شيئا.. في هذه الشكوى المؤلمة، ولم يزد على أن وضع ورقة نقدية في يده، حال من يصنع ذلك مع - شحاذ -».

وندم الحكيم على فعله ذاك، كما سجل في رسالته هذه؛ ورآه سوء عمل، وحار.. كيف يعالج تلك الخطيئة، ولم يعطه ما يكفيه. أو ما يستطيع أن يشتري به دثاراً وطعاماً.. في ذلك البرد القاسي! وقال بلغة الندم: «هناك أدركت إذ لو كنت كريم النفس.. لألقيت على منكبيه الهزيلتين معطفي، بغير تفكير ولا تدبير ولا تردد».

إن هذا التعبير التلقائي.. من شفافية النفس الشاعرة في كفة، وحال الإمساك، وهوى النفس اللوامة في كفة أخرى!.. إنه صراع بين الحالين، ورجوع النفس الشاعرة بالخطأ.. نادمة على ما بدر منها. والندم تراجع، وحس عال، ينداح في مواقف شجاعة، وحين التقصير والتجاوز، وصراع بين الإمساك والعطاء.!

الرسالة الثالثة عشرة، يتحدث فيها كاتبها.. عن إخفاقه في شق طريقه عبر - القانون -، فقد قصر في ثلاث

درجات، ولجنة الامتحان أو - المحلفين - بتعبير الحكيم، أبت - جبر النقص -، ولجنة أخرى جبرت أربع درجات لأحد أعضاء البعثة، ويؤكد الحكيم لصاحبه، ألاّ يظن أنه قصر في الدرس. ولكنه أخفق في علم المالية، ويجنح إلى السخرية.. حين يقول مرادفا نتائج مقابلة المحلفين: «ولعل هذا يفسر لك ارتباك ماليتي. إنه علم إجراءات وأرقام.. لا تستقر في ذاكرتي». وأكبر الظن أن انشغال الحكيم بالمطالعة الحرة، وهو يعلن أنه يقرأ في اليوم ما لا يقل عن مائة صفحة - في مختلف ألوان المعرفة -، وأنا استثني مواد القانون التي حددت له لكي يمتحن فيها، لينال الشهادة العليا، لأنه.. كما أشرت آنفاً، وكما هي حاله، لم يخلق ليكون فيما أراد له أبوه.! ويخفف من ألم إخفاقه.. حين يقول: ألم أخبرك أنني تتبعت كثيراً من دروس «السربون».. لغير غاية؛ إلا تتبع آثار.. الثقافة التي تعينني..». ويمضي في محادثة صاحبه، وقد خسر الدورة ولم يحقق الهدف الذي سعى إليه، ولم يبق له إلا الحديث.. الذي يديره مع صاحبه، كمحصلة لما آل إليه، ولم يكن له أمل في تحقيق أي نتائج أخرى.. في علم القانون والنجح فيه، وإنما هو معنيّ بالثقافة والمعرفة في مظانها، لأنها غايته وهدفه الأسمى. ولو أتيح له أن يتخصص في الأدب، لنال أعلى الشهادات.. في وقت قياسي، لأنه هواه ومبتغاه، واسمعه يقول: «إن التحصيل في ذاته للثقافة والتكوين.. هو

لذتي الكبرى الآن، إنما الذي يخيفني هو الامتحان.. لقد تحقق لديّ اليوم أني لا أصلح بطبعي للتقدم.. إلى أي امتحان؛ ذلك أن الامتحان يريد مني عكس ما أريد أنا.. من القراءة.! الامتحان يريد من أن أوقف عملية الهضم، حتى يتحقق الممتحن.. من وجود المواد، صلبة مفروزة.. داخل المعدة الذهنية»..

ويفضي كاتبنا إلى صاحبه، مقدما ألوانا من التشاؤم.. سبقت الامتحان، فأثرت في نفسه، وتوقع الفشل.! ويقول في نبرة.. ربما كانت حزينة، ولكنها مؤملة: «فقد فشلت يا أندريه، فأرث لي».. وكان قبل ذلك منشرحاً، لأنه قرأ المقرر، وظن أنه سوف يجتاز الامتحان بسلام ونتائج مفرحة، تسعده، وتسعد بالتالي آمال والده.!

«4»

والرسالة التالية، الصادرة عن باريس، وضع في رأسها تاريخ 24 مايو.. ولا ندري أي مايو، وفي أي سنة هو؟. وهو يخبر صاحبه أنه على سفر في اليوم التالي.. بالقطار إلى مرسيليا، ومنها يستقل الباخرة، وأنه يشعر بالهدوء، ومرده.. أنه يتوقع في دخيلة نفسه النتيجة التي آل إليها في امتحانه الأخير، ويسميها كارثة. وأنه طالما توقعها بذعر وفزع. ويطلب من صاحبه أن يواصل الكتابة إليه. حيث يستقر في مصر،

ويقول له: «رسائلك تحمل إليّ في صحرائي.. نسيم أوربا العظيمة».

إذن.. فإن أديبنا يودع صديقه وباريس، فيقول: «أودعكم.. وأودع فيكم «باريس».. الفن والفكر!.. ويعلن الحكيم لصاحبه .. أن باريس هي «فترينة» العالم!.. نعم.. هي الواجهة البلورية.. التي تعرض خلفها عبقرية الدنيا».

والرسالة الخامسة عشرة، مؤرخة.. في 12 يونيو.. من الإسكندرية. وكان صاحبه - أندريه -، سريع التواصل، فقد كتب إليه، والبريد هناك منظم، فلا تلكؤ، ولا ضياع، ولا إبطاء. جاءت الرسالة إلى الحكيم من صاحبه، بعد أسبوع من وصوله الإسكندرية، فاحتفى بها، و سجل جميلا لصديقه، مضافا إلى سابق وفائه واهتماماته، وكانت رسالة مطولة، لعل كاتبها.. أراد أن يخفف على صاحبه من آلام إخفاقه في نيل شهادة القانون الكبرى، ولابد أنه شعر بفراغ.. وبشيء من حسرة ويأس وقنوط، فأراد أن يسليه والوفاء له. قال الحكيم: «رسالتك الطويلة التي بادرت بإطلاقها في إثري، فأدركتني. ولما أتم الأسبوع في بلادي». ويضيف: «إذا أردت أن تعرف مقدار.. اغتباطي بهذه الرسالة، فأذكر أني ضمختها بعطر فرنسا»!..

ويعلن الحكيم حاله وظروفه، وأن أيامه تجري - كالدموع

الباردة.. ويريد من صاحبه.. أن يزيد في تسليته، عبر رسائله فيخاطبه بقوله: فأنت الذي يقدر على إمتاعي بالطريف القيّم، أما أنا فما عندي شيء مفيد أقوله لك.!..

وتتوالى رسائل الحكيم إلى صاحبه.. من الإسكندرية إلى باريس تباعاً. ويرجوه أن يطيل في رسائله، وأن تكون الأولى.. لا تقل عن عشر صفحات، وأن اهتمامه حين يتلقى رسالة منه، هو وزنها وحجمها. فالرجل متعطش، وقد حل به انقطاع عن مورد ثر عذب، فهو في فراغ نفسي وفي قلق.. وما يشبه الشرود، وإنه ليريد أن تتواصل رسائل صاحبه وأخباره، وأخبار باريس، وعالم المعرفة. ويكفيه أن يقرأ ثرثرة صاحبه، ذلك أن أخبار الحكيم حيث أصبح - راكدة.. كالماء الراكد -. وأن وحدته قاسية، فهي في «أكمل وأقسى معانيها». وحين يسعى إلى كازينو - سان استيفانو - في الإسكندرية، يتحاشى نظرات من يعرف ، حتى لا يكلف نفسه عبء التحية. ويلح عليه أن يكتب إليه مطولاً، لأنه في صحراء، ويحتاج إلى «بعض نفحات أوربا العاطرة».!

في الرسالة الثمانية عشرة، يبدأها الحكيم بشكر صديقه لعنايته به، وتواصله في الكتابة إليه، بعد مغادرته باريس إلى مصر، وتكثيف الاتصال، دون أن يشغله شاغل عنه، وذلك عبر رسائله المتتالية. ويطلب إليه أن يحدثه عن نفسه بالمزيد

وعما حوله، وبالتالي فإن الحكيم يبدي لصاحبه آلامه، وأنه لا ينسى سخريته ولذعه وهزئه بكل جد . ويسأله أن يحدثه عن «الشاطئ الآخر.. المائج بأضواء الحياة الفكرية». ولعل أديبنا يعني باريس وما حولها.. وما فيها.!

انقطعت رسائل أندريه عن الحكيم شهرين، وهذا ما تبديه الرسالة «19». وبدأ الحكيم فيما يشبه الغاضب، حتى إنه أعلن إليه أنه مستعد لشراء خطاب منه بالمال. ويقول له: «نعم إنه لتمر بي لحظات أخرج من جيبي ورقة مالية.. أعلم أنك في أشد الحاجة إليها، وأضعها أمامي ثمنا لرسالة منك.. ذات أربع صفحات».!

ويسائل صاحبه.. ماذا يريده أن يكون: وكيل نيابة؟.. تاجراً؟.. مزارعاً؟. ويؤكد أن له منطقا خاصاً به، يشط به أحياناً عما اعتاده الناس، «فأنا في واد.. والناس في واد ينظرون إليّ ويقولون: إما إنه أبله، وإما إنه فطن.! ففريق - ومنه والدي - يقولون إني أبله: وفريق ومنه والدتي - يقول إني فطن . ولم أسمع طول عمري حكما وسطا.. بين هذا وذاك».!

ويسرح الحكيم في تصوير نفسه.. في هذه الرسالة، ونرى فيها إيماناً مزعزعاً، وهو يعلن أنه بلغ الثلاثين، حيث يقول: «هكذا أعيش بغير مصير.. حياتي فيما يخيّل إليّ هي في يد

المصادفة، والمصادفة غير قديرة على صنع حياة محبوكة الأطراف.. آه.. إن حياتي مفككة، كالقصة المفككة، وهذا هو سر عنايتي بالحوار التمثيلي في الأدب!..».

ويقول لصاحبه: إن له قلباً.. ولكن ينقصه الألم. ولعل الحكيم يصور الحقيقة حين يقول في هذه الرسالة: «إن الإنتاج الفكري.. يرتبط إلى حد ما بطريقة عيش الكاتب، ويتلون أحيانا بلون حياته اليومية».!

في الرسالة «22»، يطالب صاحبه أن يكتب إليه في أي شيء، وحتى في لا شيء، وهذا طلب إنسان ضائق بكل ما حوله، ويريد أن يتسلى.. بمن يحدثه من بعيد، بأشياء بعيدة عما هو فيه، خاصة صديقه أندريه. وأكبر الظن.. أن الصديقين.. لو عاشا في العصر الحديث، لما استطاعا أن يتناجيا عبر الهاتف، لأنه خراب جيوب، إذا قيس الإنفاق بتكاليف أجور المكالمات.. بين بلدين بعيدين ، مثل باريس والإسكندرية. لكن الرسائل البريدية أيسر مؤونة، وأكثر إيقاعا وتركيزا وأداء تعبير جمالي.. حين تكون منمقة، ذات دلالات، تجعل لها قيمة ومعاني.. تبقى مع الأيام - ذكريات -، لأنها صدى السنين!

ويبدي الحكيم .. احتفاءه برسائل صاحبه، لأنها سلوته فيما يبدو من الحاجة، أن يكتب إليه أندريه، ويكثر من

الكلام، حتى يصل به القول: «يكفى أن تلقي على الورق خطوطا.. فتكون لها قيمة، قيمة نقدية.. على الأقل عندي..».

ويصف الحكيم بهذه المناسبة، أن أوسكار وايلد كاتب قلمه يسكب ذهباً: «لأن عنده القدرة أن يجعل من مجرد كلامه المرسل إرسالا أشياء عالية القيمة؟ ذلك أن روحه وحدها هي كل الفن والأدب، وأن سر قوته.. في تلك السجية والفطرة الخصبة».

ويأخذ الحكيم في ضرب الأمثال في رسالته هذه، لأن في هذا الحديث المرسل تنفيسا لنفسه.. وترويحا عنها، لابد منه، وليس عنده بديل.! فهو يقول: «إن الأدب لا ينافي حياة المصنع، لأن الأدب هو الحياة، أو التعبير عن الحياة.. إنه الحياة كلها التي تحوى في جوفها المصنع وغير المصنع، ولقد كان «إيفان» عاملا وفيلسوفا».!

والرسالة (23) مطولة، يتحدث فيها الحكيم عن شؤون شتى، ويعرّج دائما على ما يشغله وهو «الفن»، ويسوق رأي «هكسلي»، الذي قال عنه: «ليس هو الحقيقة، وليس هو الواقع؛ بل شيء آخر: إنه الحقيقة مقطرة ومصفاة كيماويا»!

ويحدّث صاحبه بأنه دفعه إلى قدرته المطالعة في الإنجليزية مباشرة، رغم أنه تركها أعواماً طوالاً، ولا يشعر إلا

بقلة قدرته على التحدث بها. وأنه لا داعي لأن ينتظر ترجمة مؤلفات «برنارد شو» إلى الفرنسية، على حين أنه يستطيع فهم ما يكتب بالإنجليزية، ومرد ذلك الكسل الذي يعيشه الحكيم، ولكنه أخذ يقرأ ويستمتع بقراءة الكاتب الايرلندي، ويعجب بسخريته وفكاهته، ويعجبه أسلوبه السهل السلس.. ذو الروح والرائحة.. كما يقول.! ويصف الأدب الإنجليزي بأنه أدب مغامرات، ويرد ذلك إلى الجزيرة البريطانية المنعزلة، فهي التي قد طبعت أهلها بهذا الطابع الغريب، حب السفر.. عبر البحار بحثا عن المجهول، بحار الأرض أو بحار المجتمع، أو الماضي، أو بحار النفس، أو بحار العقل..!

يعقب الحكيم على ذلك ، وهو يجنح إلى تصوير الأدب ـسي، فيصفه بأنه «أدب - الشكل - في جماله الساحر، ،دب المحادثات اللبقة النبيلة، أدب التفكير الرائق الهادئ، أدب التعبير الرائع، والمنطق البارع، وهو أدب الوطن الفرنسي، والصالون الفرنسي، والنصيحة الفرنسية.. القائلة: إن باريس هي عاصمة الكون. بالاختصار.. هي أدب الاستقرار، لا أدب الضرب في البحار..!».

الرسالة «24»، لعل الحكيم.. تعوّد أن يتسلم كل يوم خميس رسالة من صديقه. ورسالة اليوم، يشير الكاتب فيها إلى أنه لم يتلق في ذلك الأسبوع.. الذي يكتب فيه رسالته

هذه. ما تعود ولعل التعوّد متعب، فهو حالة ترقب وانتظار، فإذا لم يرد المنتظر، فإن مؤشر القلق يرتفع، وهذا ما حدا بالحكيم أن يسأل صاحبه، الذي أخلف موعده.

ويسوق كاتبنا لصاحبه ملمحا عن «بول سوديه»، بأنه ملتزم بإرسال مقالاته.. يوم الأربعاء ، لجريدة «الوقت».. عشرات السنين - بانتظام -، «لم تنقطع في خلالها إلا لموتين: موت زوجته، وموته هو!».

ويعرج الحكيم.. على مقال قرأه لـ «فرنان فندريم».. في «بول سوديه»، وهو خصمه المعروف في المناضلات الأدبية، فيقول: أي جبن وأى نذالة؟. مقال لو أنه كتبه وتجرأ على نشره.. في حياة الناقد العظيم ، لما استطاع الإقامة بعده في فرنسا.. يوماً واحداً.. ولكنه الآن يقول ما يريد! لأن الميت لا يستطيع جوابا.. لقد جرد «سوديه» من كل حسنة، وألصق به من النقص ما يخرجه عن وظيفة الناقد.. ولكن أعجب ما جاء في مقاله عن - بول سوديه - قوله.. «إن الجانب الفني في الأعمال الأدبية.. كان يفلت منه دائماً، لأنه لم يمارس بنفسه التأليف من حيث هو خلق فني».!

يدافع الحكيم عن كاتب.. غادر الحياة، ولم يعجبه ما قاله خصمه. وصحيح.. أنه جبن أن يقارع مسلح أعزل، لا يستطيع الدفاع عن نفسه، وهذه ممارسة.. كان يجب أن تقال

في حياة الخصم ليدافع عن نفسه . ويسوق الحكيم من الماضي مقولة أحد نقاد العرب: لماذا لا يقرض الشعر؟ فقال: «أنا كالمسن.. يشحذ ولا يقطع»، ويعقب بقوله: «ولكن - فاندريم - يريد أن يقطع أوصال جثة خصمه وكفى !..».

ويتصبر الحكيم بالذكريات، وعبر ما تنقله إليه رسائل صديقه، يقرأها، ليعود إليها.. مرة ومرة، ليجدد ذكريات تلك الأيام الخوالي.. التي قضاها في باريس، ويحن إليها، يتذكر الماضي ، ويتمنى لو تعود به الأيام كرة أخرى، ليجدد شبابه، ويعيش حياة الثقافة، وزيارة متحف اللوفر.. يوم الأحد، ليستمتع بالوقوف طويلاً.. أمام تلك اللوحات الباقية، يتأملها ويحاور من فيها.. عبر خياله ورؤاه، ولا أقول: هيهات، لأن الحكيم، كان يتاح له زيارة فرنسا في الصيف، ليعيش أياماً. في ذلك المناخ الذي أحب وعايش.! وعبر هذه الرسالة.. يسائل صاحبه، ويتخيل أنه مازال يعيش في حجرته.. بشارع «بلبور»، وقد نسي رقم حجرته في الطابق الخامس، ويتذكر الببغاء الذي أهداه.. إلى ساكن الحجرة رقم «28»، ولم ينس ذلك الرقم. ويسأل عن.. مصير ذلك الرفيق الأنيس الجميل، الذي كان يردد اسمه، ويتخيل كاتبنا أن اسمه.. يتردد صداه في باريس.. حينما ينطقه ذلك الطائر، ويخيّل إليه أنه طويل العمر - أي الببغاء -. ويقول: «نحن - معشر المصريين - نفكر دائما في تخليد أسمائنا، ولقد اتخذ جدي الأهرام لهذا

الغرض، ولكن أنا.. اكتفيت باتخاذ ببغاء.. على قدر مالي واستطاعتي.. ألا ترى إني مصري بالدم والوراثة ..؟».

«5»

الرسالة .. الخامسة والعشرون مطولة تبلغ صفحاتها إحدى وعشرين. وتوقف القلم.. عن استعراض أو الوقوف على مقدمة الرسالة، فإن صاحبنا كان مع صديق له اسمه - هاب -.. في مقهى «مونمارتر». وكان الحديث بينهما عن - حوار -، كتبه الحكيم، وعرضه على صاحبه.. ليقول فيه رأيه، فأثنى عليه وأعجب به، حتى قال له: «إنك اعتصرت «موليير» و«بومارشيه» و «ماريفو».. اعتصاراً»، ففرح الحكيم بهذا الإطراء كثيراً، وأخذا يتجاذبان.. كما نقول - أطراف الحديث -. حتى رأى الحكيم منظراً قادماً.. يشبه تمثال «افروديت». ودار رأس كاتبنا، ولا يدري.. أمن الإطراء على ما كتب، أم من المنظر القادم. حتى إنه طلب من صاحبه.. أن ينادي الجرسون ، ليطلب منه - سكينا -. فرد صاحبه في دهشة: «سكيناً!؟.. تصنع ماذا؟..»، فقلت: «أقتل نفسي عند... حباً وجنوناً وغراماً». والتفت - هاب -، إلى المنظر.. ثم قال: صدقت.! ثم قال: لا أمل لك أيها الصديق.. وإذا أصررت على السكين، فإني أنادي لك الجرسون.!

وبعد أيام.. كان - هاب - يسعى، بحثاً عن الحكيم..

الذي لم يعثر عليه إلا بعد عناء ، ليقول له أو يزف إليه البشرى، ويهنئه.. أن الحظ قد واتاه، بـ «أفروديت».! ولكن صاحبنا.. حسب طبعه ومزاجه، وقد ألف الوحدة.. وما يسميه الحرية ، بعيداً عن القيد.. سرعان ما ضاق بمن حوله، بعد أن ألف أياماً.. حياة شغلته فيما يبدو عن توجهه، فأخذ يتوجه حيث أراد، وحسبما ألف، رغم أنه سعد أياماً.. بايناس، ربما كان يتطلع إليه ويهتم، غير أن إيلاف الوحدة.. دفعه إلى أن يتخلص تلقائياً من قيوده، بعد أيام وليال عذاب. غير أن طبيعة الملل.. سرعان ما تحول أو تعيد أنماط الحياة إلى مجرياتها التلقائية والطبعية .. بدون «ساشا شوارتز» - أفروديت - اليوم. والحب عند الحكيم: «مسألة رياضية لم تحل.. إن جوهر الحب مثل جوهر الوجود» هكذا يتصوره.. رجل ذو ثقافة عريضة، أتاحت له موهبته.. ذلك العطاء، الذي تمثل في كتبه الكثيرة المتعددة.

وأتجاوز هذه الرسالة.. المملوءة إثارة، بما فيها من صور ونماذج متموجة، غيرت حياة الحكيم.. إلى حد ما، مدة ثلاثة أشهر، وشغلته بعض الوقت، وربما أسعدته.. وملأت بعض فراغه إن صح أن له فراغاً، ثم عاد إلى حياته.. وإن كانت لم تتغير كثيراً، لأنه لم يغير برنامجه اليومي، فقد تعود على مسار معين.. لا يخلفه، ولا يتحول عنه، وتلك هي الحياة، أغيار.. كما يقولون، وكما هي أنماطها العامة.!

والرسالة «33»، تبلغ صفحاتها نحو الاثني عشرة. وقليل في رسائل الحكيم التطويل. وفي مطلعها يتحدث عن غرق صديقه أندريه في القراءة وسبحه وسط الكتب، وأدى ذلك إلى إصابته بمرض الشك والقلق كما يصفه الحكيم. ويعقب الحكيم بقوله: «ينبغي أن أبادر فأقول.. إن هذا القلق مرض دوري لكل رجل فكر .. ».

ويتحدث الحكيم.. عن الأدب والفكر كحرفة وغاية، كما كان يعبر من قبل.. ليصل إلى قوله: «لقد أضعت وقتي كله في باريس.. منحنيا على مكتب الحجرة «48» بشارع بلبور، أقرأ وأقرأ.. حتى قرأت كل شيء.. لم أترك شيئا في تاريخ النشاط الذهني.. لم أطلع عليه»، إلى أن قال: «لقد غرقت في آداب الأمم كلها، وفلسفاتها وفنونها.. لم أكن أسمح لنفسي أن أجهل فرعا من فروع المعرفة؛ لأني كنت أعتقد.. أن الأديب في عصرنا الحاضر، يجب أن يكون - موسوعيا - ».. ويأخذ الحكيم في حديثه الطلي إلى صديقه، بأنه.. بعد ذلك الانشغال بقراءة كل ما تقع عليه يده وتراه عيناه، تحول إلى الكتابة: «وبعد ذلك كله انكببت أكتب وأكتب مخطوطات.. كان مصيرها كلها التمزيق. إن ما جعلتك تقرؤه منها يا أندريه.. لا يوازي جزءً من عشرة أجزاء، مما أخفيته عنك،. وانتهيت إلى تمزيقه قبل أن تطلع عليه عين».. ثم يقول له: «ولعل ما قرأته أنت.. هو أنكب وأقبح ما سودت به وجه

ورق». ويضيف عبر هذا الحديث الممتع، ليصل إلى ما توصل إليه، وقد كان في حكم الوهم، حين يعلن: «ولشد ما توهمنا أن الأسلوب الخاص معناه التجديد ، وإن التجديد معناه الإغراب، وبهذا الوهم.. كتبت حماقات كنت أحسبها شعراً..».

هذه الرسالة حفيلة باستعراضات ثقافية، يسوقها الحكيم.. في بعض رسائله، حين يكون مزاجه موائماً للحديث والسبح الفكري، فيمتح من بحره الدافق، ما يسلي به نفسه، وينقله إلى صديقه، وذلك ليبرهن.. على أن العربي الذكي القادر، قادراً أن يكرع من الآداب المختلفة في مظانها، ويكتسب منها معارف.. تثرى حياته الثقافية، وتكون له زاداً يعطيه قيمة.. تجعل منه أنموذجا يحتذى، لأنه ذو فكر ووعي وفهم وإدراك جيد ومتميز.

ويمضي الحكيم في حديثه ، في هذه الرسالة الطويلة فيقول: «لقد كنت أظل أكتب أحيانا تسع أو عشر ساعات.. في اليوم بلا انقطاع، دون أن أذكر الجوع، ولقد أنفقت شهورا في وضع قصة تمثيلية، قرأتها لصديقي «مسيو هاب». قرأناها معا في يوم بأكمله.. بحديقة - اللوكسمبورج - «باريس»، وكان مصيرها - الإلقاء - في أول مرحاض عام.. بشارع - مدسيس - ذلك أني لم أستطع صبراً على الانتظار..

حتى أعود إلى مسكني ، فألقيها في سلة المطبخ. كان القلق مستحوذا عليَّ إلى درجة مروعة، لأني كنت أظن.. في الأدب مستقبلي».

ويمضي الحديث تباعاً.. عبر هذه الكتابات، من الكاتب توفيق الحكيم إلى صاحبه.. تحمل شجونه وشؤونه وخواطره، وما يعتمل في نفسه، وهو هم الإنسان.. الذي يسعى في هذه الحياة، ويفكر في المستقبل المجهول، بين الظفر والفشل.. في حال قلقة، من دوافع النفس وما يعتمل فيها.

ويصف الحكيم حاله بأنه: «أما أنا ففي باريس دائماً قد انحنى ظهري على مكتبي.. بشارع - بلبور -، أبحث وأبحث عن ذلك السراب الذي يدعى «الأسلوب».. حتى الحب، حتى «فينوس».. ضحيتها من أجل - أبوللون -. وأعود إلى أوراقي.. أنكب عليها انكباباً، ثم أنهال على عملي تمزيقاً.. لأبدأ عملاً آخر، في كد ونشاط قاتلين؛ فاندفعت أعمل سنة كاملة أخرى.. كتبت في نهايتها صفحات تقرب من الخمسمائة، لم أطلعك عليها. وإن اعتراضات الجميع لا تتغير: «لماذا تحاول.. أن تتكلف الأسلوب تكلفا!.. إنه لا يفوح من أسلوبك الفرنسي أي عطر شخصي أخاذ.. إنما هي عبارات محفوظة في كتب البلاغة، تحسب أنها أسلوب رائع. الأسلوب.. هو المظهر الخادع، الذي يخفي كتاب اليوم جهلهم

المطبق.. بروح الشعوب التي يزعمون النفوذ إلى صممها. إنهم يستعيضون بفن - الديكور - الكلامي و - الريبورتاج - السريع ، واللون المحلي السطحي.. عن الحقائق التي لا يحسنها إلا أهلها ».

وحين نمضي مع الكاتب وتصوراته.. عبر هذا الكلام المتقن في نسيجه وأدائه، ندرك سعة ثقافة الكاتب، من خلال تلك القراءات المطولة، عبر أيام طوال.. في باريس، كان هذا النزر ، ملامح وعناوين من حصيلة. نبع بعيد الغور، ثرى وثر وماتع رائع. والذي يقرأ بنهم ووعي واختيار، تكون المحصلة عنده بعيدة واسعة، مما اختزن العقل من معارف وثقافات شتى.!

ونواصل التوقف لاقتطاف تلك الثمار الناضجة اليانعة، مما خطه الكاتب.. في رسائله السريعة تلك، ومع ذلك فهي قطع أدبية فنية. ويواصل حديثه الطلي: أن ما يطلبه الغرب، وما يطلبه الشرق، أشياء غير ذلك.. اقرأ مقالات «لويس برتران» عن أسبانيا.. إنه قد أدرك كل هذا، فهو يتهم كتاب فرنسا المعاصرين بأنهم - لاهتمامهم باللون السطحي وحده - قضوا على - إسبانيا -.. أن تظل مجهولة إلى الأبد.. لعين - فرنسا -. وأنا أرد عليه، «إن كتاب أسبانيا أيضاً، من أمثال «بلاسكو ايباتيز».. ساهموا في هذا التضليل. لقد قيل

إن هذا الكاتب الأسباني المشهور.. كان ذا وجهين: وجه يتجه إلى وطنه، ينشئ له أعمالاً.. هي وحدها ذات القيمة الحقيقية، ووجه يتجه إلى أوربا، فينشئ لها أعمالا دولية.. ».

ويصل الحكيم في رسالته تلك إلى القول:

لقد كان ميسو - هاب -.. يدعوني إلى ترك الكتابة الفرنسية، لا لأني لا أحسنها!.. على النقيض؛ لأنه رآني أتكلفها، وأنمقها، واستخدم تراكيب موضوعة، وبلاغة محفوظة؛ مما حبس روحي ، وسجن شخصيتي.. في أغلال من الكذب والتصنع. ولقد أصاب الحقيقة.. فلا يخلق الأسلوب الحق إلا الكاتب الصادق.. في شعوره وتفكيره، إلى حد ينسيه.. أنه ينشئ أسلوباً.. « «البلاغة الحقيقية».. هي الفكرة النبيلة في الثوب البسيط؛ هي التواضع في الزي.. والتسامي في الفكر.. ».

* * *

أبو الفضل.. البهاء زهير.!(*)

تقدمة

مع سعيي إلى هذا الصالون المبارك، في جوار البيت الحرام، ونحن على مقربة من نفحات أعظم الشهور، أزجي التهنئات لأخي الأعز الأديب الشاعر، الأستاذ علي أبو العلا، الرجلِ الكريم المحب، فهنيئاً له بصالونه، يسعى إليه المحبون من الأدباء ومتذوقي جمال النفوس، وشحذها.. لتأنس بالحلم والخيال والسبح في الفضاء الجمالي الفسيح.

أبارك مع أخوتي صالونَ الوفاءِ والحميمية الأخوية، في جوار مقدس، هو أطهرُ وأقدس بقعة في المعمورة قاطبة، فهنيئاً بالجوار الأمين الغالي في كنف الله، وتحيةَ حبٍ لركن فيه الشعاعُ البيان، الذي حبا الله به عباده، الذين شع في

نفوسهم.. عطاءُ المنعم. في جوار كريم، يتمناه القاصي المؤمنُ بما يملك لو أتيح له.. أن ينعم بما ينعم به الجارُ المتمتع بهذا الحباء الرباني. إن الله لذو فضل على الناس. وذو فضل على العالمين. إنني أغبط ولا أحسد. وحين يتاح لي أن أغشى هذه الساحةَ المباركةَ أكون من أسعد الناس، وأنا قريب من القريب، سبحانه وتعالى. وفضل الله على صاحب الإثنينية العابقِ عطرُها ومدُّها المعرفي، أخي الوجيه الأستاذ عبدالمقصود خوجة، ضيفِ الشرف، لافتتاحِ صالون الفكر، لأنه إشعاع. والدكتور محمد حسين هيكل يقول: «الأدبُ نواة كلِّ عمل.. وكلِ حياة، بل رحيقُ الحياة وروحها». وقبل سبعة عقود، كانت مكةُ تزخر بحركة شبابية طموحة، تكتب وتجأر بصوت مرتفع، لتنهضَ البلادُ وترقى وتتطور الحياة. لتعيش هذه الأمةُ كما تعيش شعوبُ الأرض الطموحة، حياةً كريمة واعية، وراقيةً متوثبة. كان هطا التطلعُ هنا قبل أي جزءٍ من هذا الوطنْ، وكان حديثَ الزائرين من أعلام البلاد العربية الإسلامية.. يشيدون بالحجاز ووعيه وطموح أبنائه. واقرؤوا إن شئتم مقدمةَ الدكتورِ محمد حسين هيكل، في وحي الصحراء.. لتروا ثناءَه على ناشئة الحجاز وطموحَهم ووعيهم؛ وثقافَتهم وتوثبَ نفوسهِم. حتى قال حين رأى وسمع أولئك الطلعة: «وكل نهضةٍ سياسيةٍ تحتاج إلى نهضةٍ أدبية تؤازرها، ولقد كان في الحجاز ناشئةٌ تتذوق الأدب، ولا تعرف أيّان تتجه به. وكان فيه شبابٌ

يتعلمون ويتطلعون إلى هذه الحياة الجديدة.. التي اهتزت لها أرجاءُ بلادهم، ومن ثم كانت النهضةُ الأدبية في الحجاز». كان ذلك عام (1355هـ) قبل ثلاثٍ وستين سنة. ذلك تاريخُ حقٍّ وصادق، وشاهد من بعيد، لا يداجي ولا يجامل، ولا يتحدث من فراغ. وتحقق والحمد لله المزيدُ من الرقي والنهضة الشاملة.. في الكيان الكبير، وها هو الصموحُ يتجدد، أنديةُ أدب وصالونات، ومجالسُ ومنابر، وجامعاتٌ ومعاهد. ومن الثمراتِ التي تُجبى إلى الحرم الآمن وما حوله في الوطن كله. فلله الحمد رب السموات ورب الأرض، رب العالمين.

البهاء زهير.!

أبو الفضل هو زهيرُ بنُ محمد بن علي المهلبي العتْكي.. بهاءُ الدين. ولد «بوادي نخلة»، على مقربة من مكة.. عام 581 للهجرة - 1186م. ذكره ابن خلكان.. في وفيات الأعيان[1]، وصاحبُ النجوم الزاهرة[2]، وأحمدُ حسن الزيات.. في كتابه.. تاريخِ الأدب العربي[3]، وخيرُ الدين الزركلي في الأعلام[4]. ومحمدُ إبراهيم جدع، ألف عنه كتاباً أسماه: البهاء زهير - شاعر حجازي. نشره الأستاذ عبدالمقصود محمد سعيد خوجه، عام 1415هـ - 1995م[5].

هاجر شاعرُنا مع أسرته إلى مصر، وهو فتىً كما يقول

من ترجم له، واستقر به المقامُ في مدينة (قوص)، بالصعيد الأعلى. ويقول المؤرخون، وكما يذكر الجدع «أنها أكبرُ مدنِ الصعيد، وليس بأرضِ مصرَ بعد الفسطاط مدينةٌ أعظمُ منها، وهي باب مكةَ واليمنِ والنوبةِ وسواكن، حافلةٌ بالأسواق، متسعةُ المرافق، فيها تنزل القوافلُ الواردةُ من بحر الهند والحبشِ واليمنِ والحجاز. وفيها كثيرٌ من الفنادقِ والبيوت الفاخرةِ والحماماتِ والمدارسِ والبساتين. ويسكنها أربابُ الصنائعِ والفنون والتجارة، والعلماءُ والأغنياء. وكانت ملتقى الحجاجِ المغاربة والمصريين.. ومن يتّصلُ بهم. منها يذهبون إلى جدة، وإليها انقلابهم في صدورهم من الحج. ويقال إن قوص.. من قديم الزمان، منبعُ العلم والعلماء، وأن بها ستةَ عشر مكاناً للتدريس»[6].

ولقد قرأت ديوانَ شاعرنا البهاء زهير في وقت مبكر، فأمتعني قريضُه الرقيقُ كنفسه الرفّافة الوادعة الرقيقة. وهذا الشعرُ.. مما يطلق عليه الأدباءُ - السهلَ الممتنع -. أجل هو سهل، لكن لا يستطيع كلُّ شاعر أن يأتي بمثاله.. رغم سهولته، وقد مضى عليه نحو ثمانيةِ قرون ونيّفاً. وكأنه كلامٌ من نسيج اليوم، في سهولة لفظه وسلاسته وإبداعه وطلاوته وحلاوته. وسوف أقف على نماذجَ من شعره الماتع. أما نثره.. فلم أر بعدُ شيئاً منه.

ولقد نعته صاحبُ كتاب «النجوم الزاهرة» بـ العلامة المفتي، وقيل أبو العلاء.. بهاءُ الدين، الكاتبُ الشاعرُ المشهور. وأنه قرأ الأدب، وسمع الحديث، وبرع في النظم والنثر والترسّل، وله الشعر الرائقُ الفائق. وكان رئيسا فاضلاً، حسنَ الأخلاقِ. اتصل بخدمة الملك الصالح.. نجمِ الدين أيوب، في حياة أبيه الملك الكامل»[7].

وترجم للشاعر مصطفى السقا وعبدُالغني المنشاوي، كما كتب عنه مصطفى عبدالرازق، ولم أقف على شيء مما ذكر الزركلي من الكتاب المعاصرين.!

تربة غزلة

أستاذنا محمد حسين زيدان.. رحمه الله، صاحبُ الخواطرِ المجنّحة والمجنحة، رجل يُفلسف المعاني، ويولّدُ الأنساقَ اللفظية، ويمارسُ الإيجاز، لأن ذلك بلاغة. يقول إن المدينة تربةٌ غزلة. وأنا أقول إن الحجاز كلّه تربةٌ غزلة. ولن أركن إلى سياسة التاريخ، فأربطَ الغزلَ بالسياسةَ.. كانت في الماضي تجنح إلَى إشغال الشباب بما يُلهيهم، بعيداً عن فلسفة الحياة وشؤونها. غير أن الغزل شيء في الطبع، ولتكن التربةُ إيحاءَ الحب، وتعلقاً بالجمال. والنفوسُ الجميلةُ ترى الحياةَ جميلة.. كما يقول أبو ماضي. وإذا كان إنسانُ هذا البلد قد مكن الله

له حرماً آمناً وسخر له ثمرات كلِ شيء، فيُجبي إليه، فلينعمْ بعطاء الله، ويستمتعُ بحياة، فهي لعب ولهو وزينة وتفاخر، إلى آخر التصوير القرآني.

وصاحبنا ابنُ وادي نخلة مولداً ومنشأ، ثم ابن قوصٍ في صعيد مصر، رجل سمحُ الطِباع. دمثُ الخلق، هام بالجمال، وقال فيه أجمل المعاني وأعذبَ الألفاظ، وأرقَّ الكلمات، هي سلسل من شهد، وعقودٌ من در. تلك رؤاه وخيالُه المجنح، نسج منهما أجملَ تعبير، لم نقرؤه لغيره.. حتى في عصور ازدهارِ الحضارة، في بغدادَ وقرطبةَ وما إليهما. وحُقَّ للأستاذ الجدع.. رحمه الله، تلك المنافحةُ عن شاعر الحجاز، فلا يُستل من تربته، لينسبَ إلى المنشأ، فهو قد هاجر.. يحمل بين أضلعه بذورَ التربة الغزلة.. التي نبت فيها. فأينعت بماء النيل، وهي مقدرُ لها أن تينع.. حتى لو عاشت في صحراءَ قاحلة، لأن الخصب، من زرعٍ كان في واد غيرِ ذي زرع، نبت من زمزَم على سفحِ أبي قبيس، في وادي إبراهيم، سوقه تُطل عليه الكعبةُ المطهرة، ويُسقى بالرحمات والحسنات، التي تتضاعف من عطاء المعطي. ما أخلقنا أن نلهج بالشكر والحمدِ على هذه النعم.. التي يحلم بها البعيدُ من المؤمنين، وكلُهم شوقٌ وحبٌ إلى هذا الجوار الغالي، لأنه آمن، وحسناتٌ وعطاءُ المنعم، الذي أطعم قريشاً من جوع وآمنهم من خوف. ومعذرة فإن

الاستطراد في هذا القرب الحميم من بيت الله، وبيننا أيامُ من نفحات أعظم الشهور، ورمضانُ برٌّ ورحمة وعفو وغفرانُ ذنوب، يُخيم على نفسي، في جوار البيت المحرم، حيث تهوي الأفئدةُ إلى النفوس الآيبة، الوادعةِ الأوابة.

معذرة فلست على منبر وعظ، غير أن المشاعرَ تخشعُ إلى بارئها، لتنعمَ بالأوبة.

وأعودُ إلى البهاء، ولعل له من اسمه نصيباً، يتسقُ مع شعره الرفّاف، الذي يشبه الجدولَ الخرار، في نَسْمة وسنى، من عبقِ عاطرٌ شذاه في أفق البهاءِ المضوّع جمالاً وسناءً وهوى عفاً، لأنه يسبّح بلا لسان، منَ خلال جوارحه، فهي ألسنة بمصطلح المجاز.

عن نشأة.. أبو الفضل البهاء زهير، تقرأ للزيات.. أن شاعرنا نشأ وتأدب بمصر، وقد برع في النظم والنثر والخط، ولما بلغ أشده واستوى.. «اتصل بالملك الصالحِ بين الملك الكامل الأيوبي، ورافقه إلى الشام والجزيرة، فلما غلبه ابنُ عمه - أي الملك الصالح - الملك الناصر، صاحبَ الكرك، واعتقله على إثر موقعة؛ خذله قواده فيها، وتألبت عليه أجنادُه، وانضووا.. تحت لواءِ ابن عمه، لم ينقض البهاءُ عهد ملكه، ودعاه الوفاءُ ألا يخدم غيرَه، فأقام بنابلس.. حتى عاد الماءُ إلى مجراه، ونهض الجد بمولاه، كما يقول الزيات فاسترد

الصالحُ مُلكَ الديارِ المصرية، فأعاد بهاء الدين إلى خدمته، وعرف له ولاءه ووفاءه، فاتخذ وزيره وموضعَ سره، يُصدر عن رأيه، ويمشي على مشورته، وقد نفع كثيراً من الناس.. بوساطته وشفاعته، وظل على تلك الحال حتى مات الملكُ الصالح، فلزم داره، إلى أن حدث بالقاهرة وباء، فمات به، سنةَ سقوطِ بغداد في أيدي التتار»[8].

ويصف الزيات الرجل، بأنه دمثُ الأخلاق، رقيقُ الطباع. ليّنُ الجانب، حلوُ الكلام، فأثّرت تلك الصفاتُ في شعره؛ فجاء عذباً رقيقاً، يطمعُ السامع أن يأتيَ بمثله، لسهولتهِ ورقته، فإذا حاول عجز، فشعره فيضُ قريحته، ووحيُ طبيعته؛ وصورةُ بيئته. لم يقلد فيه أحداً، ولم يطلبْ من غير شهورُه مدداً. فلا كلمةٌ غريبة، ولا جملةٌ معقدة. وقد أحسن وأجاد في الغزل والعتاب، وقصّر فيما عداهما. معانيه عادية، كساها ألفاظاً سهلة. وبث فيها من روحه الفياض قوةَ التأثير، فسمت إلى أحرارِ المعاني. تَرجم ديوانَ الشاعر.. المستشرق الإنجليزي – بلمر – إلى الإنجليزية – نظماً –، وطبعه في كامبرج سنة 1876م في مجلدين وعلق عليه. والأستاذُ محمد إبراهيم جدع في كتابه، يُجادل إخواننا المصريين، الذين يدّعون بأن البهاء شاعرٌ مصري. ويصرُّ الجدع على أنه شاعرٌ حجازي، ويؤكد الجدعُ بأن تلك الأخلاقَ والصفات.. التي في البهاء زهير، هي

أخلاقُ الحجاز وروحُه وسمتُ أهله. ولست الليلةَ بحكمٍ، أجنح إلى رأيٍ من الرأيين. ولن أقول أكثرَ.. من أن الشاعر حجازيّ المولدِ والطفولة. ولعله ذهب إلى صعيد مصر مع أسرته وهو ابن العَاشرة، أو نحوَها. هو إذن ابنُ التربة الحجازية في تكوينه وجذوره ومحتده، ثم هو مصريُّ النشأة والتفتح والمعرفة والزاد العلمي، ورقةُ شعره، تشترك فيها التربةُ الغزلةُ الحجازية؛ وتربةُ وادي النيل وجمالُ جوّه، قاسمٌ مشترك في حياة الشاعر الحجازي المولدِ والصبا، والمصري التربيةُ والمناخُ والزادُ الأدبي والحياةُ الاجتماعية بعامة.!

صحبتي للبهاء

علاقتي بالشاعر الرقيق قديمة، ترجع إلى الثمانينات الهجرية، أي قبل أربعة عقود، حيث اقتنيتُ ديوانه، وأنا أحاولُ أن أثقفَ نفسي. بمجهودي الفردي. وحين قرأتُه.. طربتُ لتلك النماذج الشعرية، لطلاوتها وسهولة ألفاظها، فقرأت الديوان، وحفظت شيئاً منه، وقد صادق هوىً في نفسي، فكنت أدندن بأبيات منه، وأتحدث إلى أصحابي الأدنين مني. وأذكر أنني رددتُ أبياتاً في مجلس الشيخ حسونة البسطي رحمه الله، وكان بجانبي - العمدةُ - مبارك بن عبيد، وأنا أقول:

فيا رسولي إلي من لا أبوح به　　　إن المهمات فيها يعرف الرجل

فأخذ مبارك يردد: «إن المهمات فيها يعرف الرجل». أعجبه هذا الكلام. وهذا الكلام قد يُقال ويُستعمل في الأمور الجللِ الكبار، كأنه يبعث بالرسل في مهماتٍ حربية ومفاوضاتٍ خطيرة. ولعلها كذلك عند البهاءِ زهير.! فرسوله إلى محبوبته.

فالبهاء يهيئ رسولَه، ويكتم عنه اسم الحبيب، فكيف يعرفه الرسول؟ وكيف سيصلُ إليه، مادام لا يعرف حتى اسمه؟ تهويماتُ المحبين وجزعُهم خوفَ العُذّال. ومن وصايا الشاعر لرسوله، الخوفُ والحذرُ ورقةُ نفسِ الشاعر ووجلُه، من هذا النمط الفريد في الغزل الجميل. يقول الشاعر وهو يُوصي ويؤكد ويحرص، في أنموذجٍ فريد:

بلغ سلامي وبالغ في الخطاب له　　　وقبِّل الأرض عني، حينما تصل

بالله عرفه حالي، إن خلوت به　　　ولا تطل، فحبيبي عنده ملل

يحرص الشاعر ألاّ يخاطبَ رسولُه الحبيبَ أمام أحد، وألاّ يُثقلُ عليه في حديثه وزيارته. وإنما يبلغ الرسالة السرية جداً بألفاظِ البرقيات الموجزةِ البليغة الجامعة. ويقدمَ التذللَ بتقبيلِ الأرضَ عند الوصول، ويبلغُ السلامَ ويبالغُ في خطاب الشوق والحنين والوله، والتقديرُ والإكبارُ. ويستعطف بذكر حال المحب المسكين الضعيف - الغلبان -، الذي يرجو الرضا، ولفتةً تردُ الروح، وتطفي أوار الشوقِ العارم، وهو مغلوب.

وفي موقف آخر، يتحدث البهاءُ إلى الذين يضيقون بصروف الدهر، بأنهم أخذوا أكثرَ مما أخذ منهم، فينبغي ألاَ يضيقوا بتقلب الأيام، لأن من طبعها التغيرَ والتبدل، يقول:

لا تعتب الدهر في خطب رماك به ... إن استرد، فقدما طالما وهبا
حاسب زمانك في حالي تصرفه ... تجده أعطاك؛ أضعاف الذي سلبا
والله قد جعل الأيام دائرةً ... فلا ترى راحةً تبقى ولا تعبا
ورأس مالك، وهي الروح قد سلمت ... لا تأسفن لشيء بعدها ذهبا
ما كنت أول مفدوح بحادثة ... كذا مضى الدهر، لا بدعاً ولا عجبا
فرب مال نما من بعد مرزأة ... أما ترى الشمعَ بعد القطف ملتهبا

ونقرأ له في الغزل، وأكثرُ شعرِه فيه:

خليليّ أما هذه فديارهم ... وأما غرامي، فهو ما تريان
خليلي؛ هذا موقفٌ يبعث البكا ... فماذا الذي بالدّمع تنتظران؟
فإن كنتما لا تسعداني على الأسى ... قفا ودعاني ساعة، ودعاني

تأملوا هذه المقابلة الجميلة.. بين: ودعاني، ودعاني.!، فالأولى: توديع، والأخرى: ترك.!

وأحفظ له قصيدةً منذ زمن، تجري كلماتها ومعانيها.. على هذا النسق السهل الخفيف الظريف. ولم يكن ديوانه تحت

يدي.. وأنا أكتب هذا الحديث، يقول شاعرنا، ولعله كان غاضباً ممن يحب، ولكنه رجلٌ شديدُ التواضع، وضعيف القدرةِ على الصبر، لا يريد أن يبدوَ منه جفاء، وكيف يُطيقه.. وهو غيرُ قادر على الاحتمال والفراق.؟

يقول البهاء، وكلٌّ رقةٌ وهوى، وهو يخاطبُ رسولَه، ولعل رسلَه كثر، وقد عرفوا حاله ووجده، فلا يستغربون منه تردده وتراجعَه، وقلةَ حيلته.

فيا رسولي إلى من لا أكلمه ... إني على ذلك الغضبان غضبان

وسرعان ما يستدرك، لأنه غير قادرٍ على الجلد والمقاومة، فيقول من القصيدة نفسها:

لا يا رسولي، لا تذكر له غضبي ... فذاك مني، تمويه وبهتان

وكيف أغضب؟ لا والله لا غضب ... إني لما رام من قتلي لفرحان

أفي كل يوم لنا رسل مرددة ... وكل يوم لنا في العتب ألوان

استخدم الريح في حمل السلام له ... كأنما نحن في عهدِ سليمان

وإذا كنا نلتقي الليلة لافتتاحِ صالون جديدٍ لمنتدى أدبيّ في البلدِ الحرام، فليس بُدّ من اقتضاب الحديث. واذنوا لي بإسماعكم نماذج قصار.. من هذا الشعر الأخاذ، لشاعرنا المجيد، الشاعر الحجازي المولد والمصري النشأة، وهو على

رقته، يتردد إلى من يحب، ويقدم المستحيل من سبل الإرضاء والاعتذار، حتى في عتبه، رقيقٌ لطيف، يتوسل ويرجو ويخشى! قال واصفاً حاله ومن يحب:

أحدثه إذا غفل الرقيب ... وأسأله الجواب فلا يجيب

وأطمع حين أعطفه، عساه ... يلين، لأنه غصن رطيب

ويخفق حين يبصره فؤادي ... ولا عجب! إذا رقص الطروب

فيا مولاي! قل لي أيَّ ذنب ... جنيت؛ لعلني منه أتوب

حبيب أنت! قل لي أم عدو ... ففعلك ليس يفعله حبيب

وتصوير آخر، وهو في صراعٍ مع العذال، في مسيرة حبه، يقول:

أنا فيما أنا فيه ... وعذولي يتعقب

أنا لا أصغي لما قا ... ل فيرضى، أو فيغضب

يا حبيبي ونديمي ... والليالي تتقلب

هاتِ فيما نحن فيه ... ودع العاذلَ يَعْتَب

وشاعرنا مطبوع، لا يتكلف، فهو يرسل القريض في هينة، ووضوح وسلاسة، والقارئ لهذا النمط السهل الرائع والرائق، لا يمل ترديده، فهو شعر غيرُ مكرب، وغير معقد،

ولكنه بديعٌ وخفيف؛ عذب المرامي واللغة، شائقُ البيان العربي. قال الشاعر، وقد أسعدته زائرته حين أرخى الليل ستوره، وكان على ميعاد مع هذه الزورة، فهو يصف سعادته، في هذا الشعر.. الذي ليس فيه مجون، ولكنه وصف بهيجٌ ممتع نابض. قال:

وزائرة، زارت وقد هجم الدجى ... وكنت لميعاد لها مترقبا
فما راعني إلاّ رخيمُ كلامها ... تقول حبيبي! قلت أهلاً ومرحبا
فقبلت أقداماً. لغيري ما مشت ... ووجهاً مصوناً عن سواي محجبا
ولم تر عيني ليلة مثل ليلتي ... فيا سهري فيها، لقد كنت طيبا
سأشكر كل الشكر إحسانَ مُحسن ... تَحيَّل، حتى زارني وتسببا
حبيب لأجلي؛ قد تعنى وزارني ... وما قيمتي! حتى مشى وتعذبا

وأخيراً، نحن أمام صورة، فيها هذا الحوارُ العذب، رغمَ ما فيها من اتهامٍ بالخيانة، وما يُشبه المقاطعةَ من جانبه، ولكنه.. كحاله الذي عرفنا، لا يستطيع البعد، ولا يقدر على الهجر، فهو دائماً.. يسلم أسلحته، ويقدم تنازلاته، ويعتذر، حتى لو لم يفعل ما يؤاخذ عليه، لأنه مغلوب على أمره، ذلك أنه محب، وهو ضعيف.. في مواقفه المتراجعة؟ يقول البهاء زهير:

يعاهدني؛ لا خانني، ثم ينكث ... وأحلف، لا كلمته، ثم أحنث

وذلــك دأبــي، لايــزال ودأبُــه		فيا معشر الناس اسمعوا وتحدثوا
أقول له صلني، يقول: نعم غداً		ويكسر جفناً هازئاً بي ويعبث
وما ضر بعض الناس لو كان زارني		وكنا خلونا ساعة نتحدث؟
أمولاي إنـي فـي هواك معذب		وحتام أبقى في العذاب وأمكث؟
فخذ مرة روحي، ترحني، ولم أكن		أموت مراراً فـي النهار وأبعث

وبعـــد:

الشكر يزجى عاطراً، للأخ الكريم، الأديبِ الشاعر الأستاذ علي أبو العلا، على كريم دعوته، وجزيلِ فضله، متمنياً له، ولصالونه ومنتداه، مزيدَ التوثب والنجح، ليعنى بأدبنا، عبرَ لياليه، وليرتاده عشاقُ الأدبِ والفكر.. من المواطنين، ومن الضيف المهتمين بالأدب، الذين يِفدون إلى مكة وبيتِها المحرم، ليقفوا على الدور الذي ينهض به المواطنُ العاشق لأدبه ولغته، تجديداً وامتداداً لأيام خلت، في وقت العوز والقل، لنعيدَ سيرتنا الأولى.

الهوامش

*) ألقيت هذه الكلمة في منتدى الأستاذ علي أبو العلا، بمكة، عند افتتاحه في 19، شعبان، سنة 148، الموافق 19-12-1997م.

(1) ج، (2)، ص 81 - 82.

(2) ج، (7)، ص (62).

(3) ص ص 355، 356، 1357.

(4) ص (52)، ج (3).

وكتاب الأستاذ الجدع هذا، نشر منجماً في مجلة - الرائد - التي كنت أملكها، والتي كانت تصدر بجدة، وتوقفت حين حلّت المؤسسات الصحافية محل الصحافة الفردية، في أواخر عام 1383هـ، الموافق شهر مارس 1963م.

*) إن الإستاذ محمد إبراهيم جدع، يصر على تسمية البهاء زهير، بـ - الشاعر الحجازي -، غير أن الترجمات التي جاءت في مؤلفات المترجمين له، تعني فيما سجلت، أن صاحبنا: شاعر حجازي - مصري. فهو قد ولد في وادي نخلة بالحجاز، ثم رحل مع أسرته إلى صعيد مصر، حيث نشأ وعاش عمره، وتوفي ودفن بالقاهرة.. فهو إذاً: حجازي - مصري، ومصري حجازي.. ذلك أن أبويه من صعيد مصر، جاءا إلى - وادي نخلة، حيث ولد البهاء زهير وعاش معهما، ثم رحلوا إلى صعيد مصر، فهو مزدوج الوطن.

(5) البهاء زهير، للجدع، ص (15).

(6) المرجع السابق.

(7) ص 355/356، تاريخ الأدب العربي للزيات، الطبعة الخامسة والعشرون.

* * *

حول: مجمع اللغة العربية.!

● يقول النحويون وأهل اللغة: «المؤكد لا يؤكد». ولست في حاجة إلى تأكيد حبي للغتي العربية، ولا أبالغ إن قلت إنها عشقي الأول والباقي ما حييت، بحول الله وقوته.

● سقت تلكم الكلمات، وأنا أحاول الرد على التساؤل الذي ألقي إليّ عن جدوى إقامة مجمع اللغة العربية في بلادي المملكة العربية السعودية، فإذا خالف رأيي رأي الأغلبية، فذلك حقهم وحقي في قول ما أرى. رغم أني موقن أن اختلاف الرأي يفسد للود قضية.!

● هناك أربعة أسئلة تلقيتها من الأخ حسين بافقيه في هذا الموضوع، قد لا أكون مضطرا لكتابة أجوبة على تلكم الأسئلة ، ولكني أكتب رداً لا أقول جامعاً، وإنما فيه ما أرى.!

1 - لا أعتقد أن المملكة تستوعب مجمعاً للعربية، تحقق من

ورائه أدواراً لم تحققه المجامع الأخرى التي سبقتنا في الوطن العربي، ولعل في مضمون كلمتي ما يشير إلى ذلك، وموقعه سيكون تقليديا، لا يضيف مستوى التطلع والحلم.

2 - بلى: أمتنا في حاجة إلى التحديث والترجمة والتعريب، في عصر النهضة العارمة للكومبيوتر، المعلوماتية في الانترنيت وما إليه، صرخة العولمة.

3 - لست مهيأ لترشيح رئيس للمجلس وأعضائه، وأنا لا أعرف سوى إمامين في اللغة خلال عقود خمسة، هما أبو تراب الظاهري، أحمد عبدالغفور عطار. وإن كان ليس شرطا أن يكون رئيس المجلس عالما لغويا، لكن أعضاءه ينبغي أن يكونوا علماء في اللغة ومختلف العلوم والمعارف، وقادرين على أداء الدور الكبير للمجمع، لأني رأيت أن أكثر أعضاء المجامع القائمة، مسنين، أي أن عطاءهم محدود. إن المرشحين هم: العلماء العاملون، والذين عاشوا للعربية والعاملين عليها وفيها ولها.

● إن الهمم اليوم قد أدركها الوهن، فلم تعد كما كان الأباء والأجداد، أمانة في الذمة، وشحذ في العزيمة، وطاقة في الأداء والإنجاز، عوامل كانت ثم انتابها ما عوقها عن دورها، وهذا لا يعني الخمول والقعود عن العمل والصدق فيه، وإنما متطلبات المجمع الفاعل ليس في مقدور الحال.

● إنني من الغُيُر على هذه اللغة الشريفة، ومن المعتزين بها، والعاشقين لها، والذين يريدون استمرار ازدهارها وانتشارها، لتملأ الدنيا كما أصبحت حال الإنجليزية اليوم، غير أنني أخشى الفشل والانتكاس حين نقيم مجمعا للغة العربية ثم لا يحقق شيئاً، سوى هياكل من المباني، ومكاتب فاخرة، وأنماط من الموظفين، ثم تمر الأيام والسنون، ونحن لم نصنع ما نريد، ولم نضف جديدا للعربية وما ينفع أهلها والمتعاملين معها، وأمامنا المجامع القائمة في الوطن العربي، وقد انقضى على إنشاءها عقوداً، وما أدته ليس ما يلائم الحلم والرغبة والطموح.

● إن المتحمسين عندنا لقيام مجمع للغة العربية، يندفعون من عاطفة، دفعت هذه الحماسة القوية، ولو أنهم حكموا عقولهم كما ينبغي، فلربما رأيناهم متريثين في هذا الاندفاع، حتى لا يقعوا في زلل العجلة، ويومئذ لا يجدي التراجع، وإنما المحصلة ستكون الإحباط وردة الفعل، وكلها سبل لا جدوى من ورائها، وتسمع آذانهم أنماطا من الأمثال العربية، مثل: سبق السيف العذل، وقول الشاعر:

«قدّر لرجلك قبل الخطوة موضعها»

أنا ممن يريد الخير لبلاده وأمته ، وللغته أن تعم أرجاء الأرض، ولا يحقق ذلك إقامة مجمع لها، لا يوازي ما ينفق عليه، ولا ينجز حلما، ولا يضيف جديداً، ولا يبني مجداً.!

● إن دعم العربية بإتقانها، بدءاً من تعليمها في المدارس في التعليم العام، والكليات، وأن يتعامل بها المدرسون والطلبة في جميع المراحل. والغيرة عليها، أن تحبها إلى حد العشق.! هذه مفاتيح العناية بالعربية، فإذا تحقق هذا الود والتعامل والإقبال عليها، بحيث يحرص أهلوها على احترامها والتعامل بها ومعها، من دافع الحرص والحب والغيرة، فيومئذ نبحث ونفكر في إقامة مجمع اللغة العربية، ونراهن على نجحه بعون الله، حين يصبح شعبنا كله يردد مع بعضه البعض: تلكم العربية السليمة، حافظ على لغتك، لا ترض بها بديلاً، وإن اهتممت بتعلم لغات أخرى، تدعم حياتك وثقافتك.

● يوم تصبح - العربية - هاجس كل مواطن في بلادنا، بل وهاجس كل عربي على ترابه، إذاً نتفاءل ونراهن على نجح مجمع اللغة العربية في الوطن العربي.!

● ولست أجنح إلى أن تخاطب سيدة البيت خادمتها أعجمية اللسان، فتقول لها بأي أسلوب خطابي: هيئ نفسك للخروج معي، أو اعطني كوبا من ماء غير مثلج، أو ردي على الهاتف إذا رن. ولا سيد البيت أن يحادث سائق سيارته بمثل هذه اللغة، ولغتنا ليست أرستقراطية، كما قد يتبادر إلى الأذهان، وإنما هي لغة حياتها في استعمالها وحبها، ورعايتها، وحمايتها.

● يوم تصبح العربية - هاجسنا - الذي لا ننفصل عنه، ويوم تمسي - هاجس - مائتي وخمسين مليون عربي، وموئل حرصه، كما يحرص على أشياء كثيرة غالية. إذا تحقق ذلك يوما ما، سيقول أمثالي، وسنقول جميعا: نعم: لإقامة مجامع للعربية في كل وطن عربي، قادر على ذلك، ويومئذ يفرح كل عربي غيور على لغته الشريفة، لغة كتابه ودينه وأمته.

● حين يعود للعربية الآثال، ولا يكون ذلك إلا بحبها وعشقها، نراهن على نجح مجمع لها، حيث سيكثر أنصارها وحاموها والمدافعون عنها، لأنها ستصبح قيمة عند الغالبية العظمى، ولكنها اليوم ليست قيمة إلا عند القلة، وهذه حال غير مشجعة، ولا تدفع إلى مغامرة غير محمودة النتائج، ذلك أننا اليوم ننطلق من - عاطفة -، لا يعول عليها، لأنها حالة لا يؤيدها دليل وبرهان، كمقاييس لاتخاذ قرار شبه ارتجالي، وأن نادى به أقوام، وأقره مجلس الشورى، وأيده المؤيدون، لأن العبرة في هذه الأمور بالنتائج والحسابات الدقيقة، والتأمل في قضية اتخاذ القرار والعدول عنه. وقد تعلمنا من شيوخنا: «قل كلمتك وامش»! وأردد مع مؤمن آل فرعون: «**فستذكرون ما أقول لكم**».

قليل جداً اهتمامنا بلغتنا، وضئيل ما ننفقه عليها.. وتلك حال المجامع في الوطن العربي، وقد زرت بعضها، فرأيت ما يشبه الإفلاس والإعراض، رأيت هياكل ليس فيها حياة،

فماذا نحن فاعلون.!؟ إن العربية اليوم تريد روحاً جديدة وأمة طامحة، يدفعها حماس بلغتها والتعلق بها، والجد في تحصيلها، والاعتزاز بها، لمقاومة روح التزهيد الذائعة، التي تلبست العقول الخاملة، التي تنظر إليها نظرة الهون.

● هل يريد المتحمسون لقيام مجمع للغة العربية في بلادنا أن يصنع هيكل ليس فيه غنى، ولا من ورائه قيمة، لأنا لسنا مهيئين لذلك، ولا مستعدون له، وإنما نحن نحلم ونريد.. وهذا لا يكفى البتة، وأقول إن العمل غير القول، والتجارب التي سبقتنا في بلاد أكثر منا قدرة علمية، وأسبق معرفياً وتعليمياً، ومع ذلك، ورغم مرور أكثر من سبعين سنة، فلم ينجح المجهود والعمل والأداء! هلا اعتبرنا بمن سبق!؟ ولو كان لهم سبل نجح لمضوا فيها، ولكنهم لم يصلوا إلى ما يراد لهذا أو ذاك المجمع من نجح يحسب للبلد وأهليه.!

* * *

رحلة في أمواج الحياة..!

1/5

● حين رحلت - بنت الشاطئ -، في شهر شعبان 1419هـ هممت أن أكتب كلمة عابرة عنها، أذكر فيها شيئا من كفاحها العلمي وجهادها نحو الارتقاء، وقد نالت جائزة الملك فيصل في عام 1994م. ولكن صرفتني شواغل عن ذلك.. حتى مرت المناسبة. وفي يوم الاثنين 13 من شوال 1421هـ وأنا في محطة مصر للسكة الحديدية، أخذت أفتش عن أخبار اليوم، فلمحت كتاباً.. كانت النسخة الأخيرة، عنوانه: «بنت الشاطئ - رحلة في أمواج الحياة»، بقلم: وفاء الغزالي.. فالتقطته، وهو من سلسلة - كتاب اليوم - الشهرية.. التي تصدر عن - دار أخبار اليوم - وهذا الكتاب تاريخه .. شهر مايو.. 1999 وعلى غلافه الأول صورتان، إحداهما لامرأة في ريعان الصبا

وشرخ الشباب، والأخرى.. لسيدة طاعنة في السن .. تداركتها الكبرة، حيث ذهب الشباب ونظرته.. التي تحسر عليه القائل: «**ألا ليت الشباب يعود يوما**».!

● وشرعت وأنا في القطار - ذاهباً إلى الاسكندرية -، أقرأ ما كتبت الكاتبة عن - بنت الشاطئ.. تلك السيدة التي تحدت نفسها والأيام - لتكون -، وقد كانت، رغم أن والدها الشيخ الأزهري كان معارضا أن تلتحق بالمدارس وتدرس ما يلقى من دروس، وهي مع غيرها، وكانت بنت الشاطئ صنواً للأستاذة - سهير القلماوي -، فكلتاهما شقتا طريقهما في وقت مبكر.. في الدراسة المنتظمة، في المدارس والجامعة.. رغم العوائق والمثبطات، غير أن الإرادة أقوى من الصعاب والمشكلات التي تقف في طريق الطموح وجد الحياة.!

● الكاتبة تعلن أن بنت الشاطئ ولدت.. في عام 1913، في مدينة دمياط، شمال القاهرة على البحر الأبيض المتوسط، وأن أباها الشيخ محمد علي كان يتمنى أن يكون مولوده الأول ذكرا.! ثم كانت الطفلة -عائشة عبدالرحمن -، تلك الفتاة، التي تتطلع إلى التعليم بشغف، غير أن الأب كان يأبى عليها ذلك، لكن جدها لأمها الشيخ - محمد الدمهوجي -.. عنى بأمر تعليمها دون أن يعلم أبوها بذلك، فألحقها بإحدى المدارس في السنة الأولى الإبتدائية.. وخلال أيام معدودة.. نقلتها المدرسة إلى السنة الثانية، لأن مستواها التعليمي كان جيداً.

ذلك أن أباها كان معلما بالمعهد الديني وإماما لمسجد قريته في دمياط. والطفلة عائشة محمد علي عبدالرحمن.. بدأت تتردد على كتّاب الشيخ - موسى - تحفظ الكتاب العزيز ، قراءة وتجويداً، كما كانت تمد يديها إلى كتب أبيها في مكتبته التي احتوت أمهات الكتب. وأبوها يشاهدها ويشفق عليها ، وكان يقول لها ويردد : «هذه الكتب كبيرة عليك يا عائشة».! ونلحظ أن الكاتبة الشهيرة ألحقت اسمها باسم جدها.. كما يبدو، حيث لم تنتسب إلى أبيها - محمد علي - وإنما الاسم الذي اشتهرت له: - عائشة عبدالرحمن -.

● وتقول الأستاذة - وفاء الغزالي -: ولم يمض العام الأول حتى كانت - الطفلة عائشة -.. حديث المدرسة كلها ، حيث قالت عنها - أبلة عزيزة الدمياطي - معلمتها في سنتها الأولى في المدرسة، بعد أن قرأت إجابتها في الامتحان: «عجيبة، هذه إجابة غير منتظرة من أي تلميذة». وأكدت هذه المقولة مكتوبة من معلماتها في شهادة آخر العام.! وتقول إحدى المعلمات إنها - شعلة ذكاء، وأخرى تقول: إنها كتلة تفكير - وتوقعن لها الفذاذة. وتعقب الكاتبة على ذلك بان مرده النبوغ والذكاء ورجاحة العقل وحسن التفكير.!

● وتمر الأيام .. وفتاتنا تنجح من سنة دراسية إلى أخرى.. حفيلة بتشجيع معلماتها و- حسد زميلاتها -، غير أنها لا تبالي بما يقال - حسداً -، وإنما همها أن تنهل من

المعرفة.. ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، فهي قد عرفت كتب التراث مبكرا ، أما الكتب التي تقرأها في المنهج الدراسي.. فإنها لا تشغلها إلا كمقرر مدرسي فقط ، وترى أنها لغيرها.. لمن دونها في المستوى المعرفي.!

● وفي يوم الامتحان الشفهي لشهادة المعلمات بطنطا، وعمرها يومئذ خمس عشرة سنة، وذلك في عام 1928م. رأى الممتحنون.. وقد أدركوا تعثر الطالبات، إلا تلك الطالبة النجيبة، فقد تلت ما اختاروه لها من سورتي: - النساء والنور - وما تحفظ من نصوص شعرية.. حين سئلت عن ذلك.! فردت: من أي عصر؟ فعجب الممتحنون لهذا السؤال، ثم طلبوا منها نصا من - العصر الجاهلي-، فأنشدت أبياتاً من معلقة - طرفة بن العبد -، ومرثية للمهلل بن ربيعة التغلبي. ثم طلبوا إليها شيئاً من شعر صدر الإسلام، فأنشدت - لامية كعب بن زهير -. ثم انتقلوا بها عبر العصور اللاحقة.. حتى وصلوا بها إلى العصر الحديث، فسألوها أن تسمعهم، ففوجئوا بسؤالها: «من شعري أو من شعر سواي؟». فقال أحدهم: «إن كنت شاعرة فاسمعينا إحدى قصائدك». فأنشدت قصيدة.. في الحنين إلى دمياط، مطلعها:

دمياط حبك حركت أشجانه

آلام قلب في الغرام مصفّد

ثم قصيدة أخرى، وهي صورة شعرية - لزوجة صياد.. خرج إلى البحيرة في ليل عاصف -.

● ولم يجد الممتحنون ما يسألونها فيه، سوى أن أرادوا معرفة وجهتها في التعليم، غير أنهم كما تقول الكاتبة: «أنكروا ما سمعوا من جوابها.. وزينوا لها أن تعدل عن هذا الطريق القريب إلى طريق الجامعة».!

2/5

● إن الشهادة - الابتدائية - بالأمس.. تعدل ثانوية اليوم وشهادة معهد، لأن المقررات يومئذ كانت عالية . وكان خريج الابتدائية.. سرعان ما يجد وظيفة يعيش من ورائها.!

● وبنت الشاطئ في امتحان - الابتدائية -، وكان فيها مادة اللغة الإنجليزية، وأن يكتب بها تعبير.. على حين أن طالب الثانوية اليوم.. لا يستطيع كتابة سطور محدودة بالإنجليزية.!

● كان موضوع امتحان الإنجليزية يشتمل على موضوع إنشائي. وكان - قصة السندباد البحري - مقررة يومئذ. وكاتبتنا قرأت القصة بالعربية وفهمتها، وقدرت أن مفرداتها في الإنجليزية تعينها.. لتكتب في أي موضوع في صلب القصة، وخلال كتابة التعبير.. و- نجاة السندباد من وادي

الأفاعي -، لم تستطع تذكر كلمة «نسر» بالإنجليزية. فأسقط في يدها. وفكرت أن تكتب الكلمة بـ - العربية - بين (قوسين)، غير أنها سمعت من زميلاتها.. أن مدرساتهن انجليزيات، لا يتورعن في إسقاط أية طالبة تقحم كلمة عربية خلال ذلك التعبير المحددة سماته بالإنجليزية.

● ولجأت الفتاة إلى أحد المراقبين سراً.. تسأله عن اسم النسر، فقال لها في إرباك خشية الافتضاح بممارسة الغش.. إنه تلميذ والدها، ولا يحسن غير العربية.! وجاءت النجدة من السماء، حين نظرت إلى قلم الرصاص الذي في يديها.. فرأت أنه يحمل اسم النسر مع صورة جناحيه. Eagle pencil فرحت، وأكملت موضوع التعبير، وكأنها نجت مما كان يخشاه السندباد من وادي الأفاعي. وظهرت نتيجة الامتحان.. فكانت ترتيب التلميذة النجيبة - الأولى - على القطر المصري.!، وكانت نتيجة باهرة.. أثلجت قلب والدها، الذي كان معارضا لها أن تسلك طريق التعليم والعلم. وهذه النتيجة أدت إلى سماح والدها لها.. أن تمارس التعليم في معهد المعلمات بالمنصورة.!

● لقد عشقت الطالبة العلم وذاقت حلاوته، وحققت فيه نجحا وتفوقا، وهذه النتائج تدفع أي طامح إلى المضي في التحصيل ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، لا أقول إلى آخر شوط.. ذلك أن المعرفة ليس لها أشواطاً، وليس لها حدوداً.! إن الطموح لا حدود له. كذلك فقد تعرفت فتاتنا على مكتبة

في المنصورة، وحين رأى صاحب المكتبة رغباتها وشراهتها نحو المعرفة.. عرض عليها أن يعيرها ما تشاء من كتب للاطلاع عليها.. نظير أجر زهيد. وفي خلال عام واحد.. قرأت ما كان لدى المكتبة من كتب حديثة - لم يكن لها بها عهد من قبل، حيث تفتحت «أمامها آفاق جديدة للمعرفة».! ويا أسفى.. أين إقبال أبنائنا وبناتنا اليوم نحو المعرفة، وهم يغشون المعاهد العلمية والكليات.. أين طموحهم.. إن كان لهم شيء من طموح نحو المعارف، وما أكثرها اليوم في الأرض.!؟

● ومضت الفتاة الطامحة.. نحو الثانوية عام 1932م. وفوجئت ذات يوم بكلمة: «الترمس» وهي قد وعت درسها حفظا ومراجعة ، في التاريخ عن - مارتن لوثر ، وسؤال في - الجيولوجيا -، عن العصر الفحمي ، ثم في الطبيعة عن طرق نقل الحرارة، لكنها فوجئت بسؤال عن مفتاح النجح لـ «شرح خاصية الترمس» في حفظ - الحرارة - الترمس -. وذهب تفكيرها إلى «البقل» المعروف. وسألت مراقب الامتحان.. عن - دخل - هذه اللفظة في - الحرارة -، وأجابها بالنفي، ورجعت إلى ذكائها.. ظانة أن أهل المدن يستعملون.. بقل الترمس - في تلطيف الحرارة -، واستعانت بما قرأت.. من أن - نوى - المشمش يستعمل في تنقية مياه الأزيار. وسرحت بفكرها نحو باعة - الترمس - على عرباتهم وبجانبه - قلل

- الماء.. في الصيف لري الظامئين، وأرجعت استنتاجها إلى أن الترمس يلطف الجو.!

وقابلت إحدى المعلمات.. لتسألها عن اللغز، فأرتها علبة معدنية اسطوانية الشكل، كانت معها، فسقتها منها ماءً مثلجاً، قالت إنه فيها منذ مطلع الشمس. وأخبرتها أن هذا الوعاء.. يحفظ فيه الشاي. وظهرت نتيجة الامتحان، وكانت فتاتنا ساقطة في مادة - الطبيعة -، وناجحة بدرجات - النهاية - العظمى في المواد الأدبية، ومعها الحساب والجبر، وبدرجة جيدة في اللغتين الأوربيتين ، وفي الهندسة. وتقول بنت الشاطئ: «وكانت حكاية - الترمس - فكاهة الموسم.. فرجت عن السادة المصححين كرب عملهم في الصيف».

في كلية البنات

● تقول الدكتورة بنت الشاطئ: وكان نقلي إلى كلية البنات نجدة، ففيها أخذت فكرة عن «المعمل»، وقد نجحت في مادة الطبيعة في الدور الآخر. وأرجو أن تصحح وزارة المعارف والرئاسة العامة لتعليم البنات.. هذا الخطأ السائر، وهو - الدور الثاني -، ليكون الدور الآخر، لأن كلمة الثاني.. تعنى أن هناك ثالثاً ورابعاً إلخ. مثل: ربيع الآخر، وجمادى الآخرة.

● بنت الشاطئ حمدت حال رسوبها، وردت ذلك إلى ما انتابها من غرور. حيث قالت: «فقد غرني بالعلم الغرور». ثم

كبح جماح غرورها، فقالت: ولولا هذه الصدمة لضللت ضلالا بعيداً، وعشت عمري في جهالة عمياء.. لا أفرق بين ترمس وترمس.!

3/5

في الجامعة.!

● اختارت بنت الشاطئ.. كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول - قسم اللغة العربية، وكان ذلك حلمها.. منذ جلست على مقعدها الخشبي.. في كتّاب - سيدنا - بدمياط، ذلك أن اللغة العربية عشق فتاتنا منذ البداية، مع أنها خطت خطواتها الأولى.. حين تركت الريف، تبحث عن الصحافة قبل السعي إلى الجامعة، حيث أصبحت كاتبة في جريدة - الأهرام -. وقد كانت تراسلها بخطابات.. تناقش موضوعات تعنى بالفلاحين، لأنها تنتمي إليهم. غير أنها كانت توقع تلك الخطابات باسم - ابنة الشاطئ -، خوفاً من ثورة أبيها عليها.. وهو الذي سبق أن حال بينها وبين التعليم.. لولا تدخل جدها الذي فتح لها طريق أحلامها.!

● وأصبح لها مكتب بجريدة الأهرام، وكانت تتنقل بينها وبين الجامعة الشامخة وما تقدمه من معارف شتى. وكانت طالبتنا سعيدة بما تحقق لها من سعي مرجعه طموحها الذي لا حدود له . وكذلك يقود الطموح إلى ما لانهاية له.!

● كان التحاق بنت الشاطئ بالجامعة.. في عام 1935م. وفي صيف 1936م بدأت العطلة الصيفية، وقد أعلنت الجامعة النتائج الرسمية للامتحانات، وكان للبرلمان يومئذ طلبة وفيه أغلبية، لم يتحقق لهم نجح . وتدخل البرلمان في الجامعة.. لتهبط نسبة درجات النجح من 60٪ إلى 50٪ وأصدر قانون لذلك. على أن يسري بأثر رجعي على نتائج الامتحانات التي أعلنتها الجامعة، وتجاوز البرلمان حدوده القانونية.. حين رفض رسوب غير الناجحين، وقضى الحزب الحاكم في البرلمان بنقض قرار الجامعة، ونقل الطلبة بما سمي قوة القانون من صف الراسبين إلى صف الناجحين. وغضبت بنت الشاطئ لهذا العدوان الصارخ - على حرمة الامتحان الجامعي - وفكرت في الخروج من الجامعة التي لم تستطع أن تحمي قراراتها.. غير أنها آثرت الحسنى، لأنها ذات هدف وطموح لا تفضي إلى التوقف والهزيمة.!

● كانت بنت الشاطئ.. تسمع عن الأستاذ الكبير أمين الخولي، وحدثها الطلاب عن علمه وثقافته، وأنه لا غنى لها عما عند الرجل من ثقافة.

وأخذت بنت الشاطئ مكانها في قاعة الدرس بالجامعة، وجاء أستاذ الحصة الأستاذ أمين الخولي.. كما وصفته: «بسمته المهيب المتفرد». وكان الدرس عن علوم القرآن، وعلى الطلبة اختيار مباحثهم من خلال هذه المادة. واختارت الطالبة

الفتاة البحث في «نزول القرآن». وعجب رفاقها من سرعة الاختيار.. في شيء من السخرية، وسأل الأستاذ طلابه عن الوقت المحتاج إليه في إنجاز بحث كل طالب. وبادرت صاحبتنا معلنة في غير تردد .. أنها يكفيها يوم أو بعض يوم. وقال الأستاذ ما وصفته الطالبة - في نبرة إشفاق وتحذير: «كذا! فكري ملياً، فربما بدا لك أنك في حاجة إلى مزيد من الوقت». لكن الطالبة.. أبت التراجع، تقديراً منها أن المادة مهيأة في مصادرها الأصلية وهي في تناول يدها، وأنها لا تحتاج إلى أكثر من بضع ساعات لتنجز بحثها.. بعد بضع ساعات للمراجعة.!

● وعرضت الطالبة على أستاذها بعض أسماء الكتب.. كالاتقان واللباب، البرهان، وطبقات ابن سعد، وتفسير ابن جرير إلخ. فرد عليها بقوله: «كتاب واحد منها يكفي الآن.. لو انك عرفت حقا كيف تقرئين».!

وتقول الكاتبة: «وكان هذا آخر ما توقعت أن أسمع! ونراها تقول في شيء من اعتزاز وثقة: ألمثلي يقال ذلك، وما من كتاب من أصول العربية والإسلام يعيبني أن أقرأه؟». غير أنها كبحت غضبها كما تقول.. وهي تلتمس لأستاذها العذر.. اعتقاداً منه أنها كغيرها من الطلبة مستوى، إذ إن فيهم من لا يعرف كيف يقرأ. ومع ذلك أكد لها أستاذها.. أنها - لو أدركت الفرق بين المصادر والمراجع.. لما تورطت في مثل هذا

السؤال المنكر.. وذلك حين أعلنت إليه أن الكتب التي ذكرتها له قد قرأتها واستوعبت ما فيها. واعترفت بأنها لم تفكر في التمييز بين المصدر والمرجع.!

• وبعد ذلك حرصت أن تظل تستمع مصغية لكل ما يقول وتتعلم. حتى إنها ودت - لو يتوقف الزمن -، فلا تدق ساعة الجامعة معلنة انتهاء المحاضرة. وتعلن الكاتبة - الطالبة - يومئذ أنها منذ ذلك اللقاء الأول ارتبطت - به نفسياً وعقلياً -. وقالت: «وكأني قطعت العمر كله أبحث عنه في متاهة الدنيا وخضم المجهول»! وتعلن في شجاعة: «وقد انصرفت من درسه الأول في اليوم السادس من نوفمبر 1936م وأنا أحس أني ولدت من جديد».! وتعترف الكاتبة أنها حين وقفت بعد أسبوع تؤدي أمامه امتحانها الأول.. لم تمكث سوى دقائق معدودات، حين أدركت أن حصيلتها من كنز الثقافة الإسلامية.. التي ظنت أنها نالته.. لا تعدو - القشور والأصداف -، وأنها بعيدة عن الذخائر المكنونة. وقررت أن تعود إلى قراءة مجددة في كتب التراث، وقد كانت تظن أنها نالت منها مبتغاها. حيث استأنفت تقرأ في أناة وريث. وكانت من قبل تتم قراءة كتاب في أمسية واحدة.!

4/5

• تقول بنت الشاطئ: «إنه مضى وقت طويل قبل أن أجرؤ على الوقوف مرة ثانية أقرأ على الأستاذ الخولي في

قاعة الدرس، بتهيب وخشوع فصلا من «مقدمة ابن الصلاح» في علوم الحديث.. عن ضوابط المنهج النقلي للرواية».!

• وانتهت المرحلة الجامعية الأولى للطالبة - عائشة عبدالرحمن -، ولم يبق لها من زهو الطموح إلا إدراكها لحاجتها إلى التعلم والتطلع إلى أن تظل ما عاشت تلميذة لهذا الأستاذ الذي علمها - كيف تقرأ -.! وتعلن أنه لم يعد لها ما تتطلع إليه في مجال التنافس العلمي مع زملائها من الطلاب.. إلا أن تباهي بما تعلم من قصورها عن بلوغ مدى الأستاذ الخولي.!

• ويتم زواج بنت الشاطئ من الأستاذ أمين الخولي.. وهو يكبرها بسنوات كثيرة، ولعل ثم دوافع شدتها إلى أستاذها.. منها: رجولته واعتداده بنفسه وعلمه الغزير، وهو قد اختارها، وليس تفاصيل أخرى باح بها هو أو هي.! ولعل إعجاب كل منهما بصاحبه هو ما ربط بينهما ليكونا زوجين، اختارا عن قناعة ورضا. وندرك من الكلمات التي فاهت بها بعد رحيله.. أنه كان يمثل في حياتها شيئا كبيرا، فقالت: «على الجسر ما بين الحياة والموت في متاهة الحيرة والضياع لا أكف عن رصد حركاتي وإحصاء أنفاس مستغرقة في تأمل هذا المشهد الغريب من قصتنا، مرددة مع كل نفس: كيف مضى.. وبقيت؟». أسفاه: «كل الذي كان في حياتنا معا انتقل إلى منطقة الأحلام والذكريات».

● أصدرت الكاتبة أول كتاب لها عام 1936م عن - الريف المصري -، وكان عملها.. كصحفية بجريدة الأهرام. وحصلت على ليسانس الآداب - قسم اللغة العربية -، واختيرت معيدة بهذا القسم.. في عام 1939م . وبعد عامين تحصلت على الماجستير 1941م بامتياز . وفي عام 1944م أصبحت أماً لثلاثة أبناء . وفي هذه السنة نفسها.. تستقيل من الجامعة.. حيث رأت أن أبناءها أحوج إليها من الجامعة. وهي التي كانت بالأمس تتحدى إرادة أبيها - وتكمل تعليمها بدون علمه -.!

تقول الكاتبة عن بنت الشاطئ: ولكنها لم تعشق المناصب والألقاب ويهمها أن تحصّل العلم، وهي قادرة عليه وكفيلة به، ولكن لا يهمها أن تكون مدرساً أو استاذاً بالجامعة.. فهذه أشياء يقدر عليها من هم دونها وهذا يقود إلى أن العلم عند بنت الشاطئ هدف وليس وسيلة. وهذا متاح لها . سواء كانت في الجامعة أو بعيدة عنها».!

● وتتقدم في عام 1959م لنيل درجة الدكتوراه حيث أصبحت كما تقول الكاتبة - حديث الصحف والمجلات، وكان المشرف على رسالتها.. عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين، وزير المعارف يومئذ. الذي قال عند امتحان الدكتورة بنت الشاطئ، وعنوان الرسالة: «رسالة الغفران» لأبي العلاء المعري.. التي استغرق.. إنجازها تسع سنين! قال الدكتور طه

حسين، بعد أن قدمت الطالبة ملخصا لرسالتها.. وجهودها في تحقيقها: «سيدتي - ليس من شك في أن العمل الذي تقدمينه اليوم عمل خطير خليق بالإكبار، وخليق بالتقدير». ومضى الدكتور طه في خطابه.. في الثناء على الرسالة ومجهود الأستاذة.. حتى قال: «وأنت في هذا تقدمين نصا جديرا بأن يقدمه عالم متخصص إلى علماء متخصصين».. إلى أن قال: «ولست أدري ماذا أتيت تنشدين هنا؟ إن جئت تلتمسين الموافقة على جهدك، فأنت وافقت عليه مقدما!.. وإن كنت تلتمسين التشجيع فقد شجعت نفسك أكثر مما نستطيع!.. فإن كنت تلتمسين الثناء.. فقد أثنيت على نفسك ثناء فيه إسراف قارب الغرور!!».

● وكانت لجنة الامتحان مكونة من:

1 - الدكتور طه حسين بك - مشرفا -.

2 - الدكتور زكي محمد حسن - رئيسا بحكم منصبه -.

3 - الأستاذ إبراهيم مصطفى بك.

4 - الدكتور فؤاد حسنين.

5 - الأستاذ مصطفى السقا.

وأثنى أعضاء لجنة الامتحان على الرسالة وصاحبتها.. التي نالت درجة الدكتوراه - بتقدير ممتاز -.

● بعد نيل الدكتوراه.. عملت بنت الشاطئ .. رئيسا لقسم الأدب العربي بجامعة - عين شمس - في عام 1958، ثم أستاذ كرسي إلى عمادة كلية الآداب . ولقد اتجهت الكاتبة إلى القضايا الإسلامية، ودخلت بعد ذلك في معاركها، مع الأستاذ الكبير.. عباس محمود العقاد، وأحمد عبدالغفور عطار، ومصطفى محمود.! وكانت عنيفة في تلك المعارك، لذلك هابها الكثيرون.. فلم يدخلوا معها في جدل ، لأنها كانت متخصصة فيما أثير حوله من معارك ، وكانت تملك الحجة والدليل، لذلك فهي لم تهزم فيما خاضت من معارك.. مع الذين انتقدتهم أو تحرشوا بها.!

5/5

● انساقت بنت الشاطئ كغيرها.. مع تيار الاشتراكية، التي فرضت على بلادها، وانبهرت كغيرها بالشعارات.. التي لا مضمون لها، ولكنها لتلهية الجمهور وإشغالهم.. لتتحول حياتهم إلى فقر مدقع وبؤس.. من جراء الشيوعية والاشتراكية الفارغة، التي لم تجلب لأهلها.. الذين اعتنقوها إلا خسارا وحياة محطمة لا شيء فيها، لأنها بلا قيم ومثل، مجردة من الدين.. الذي هو عماد الحياة الكريمة والسعادة في الدارين. وهكذا سائر الشعوب التي ابتليت بالركون إلى الشيوعية والاشتراكية.. كان مآلها الخسران المبين، فانطحنت وذابت فيما ابتليت به .. مما سامها به حكامها المبطلون.!

● قاومت بنت الشاطئ.. جوائز نجوم السينما، وخاطبت الرئيس جمال عبدالناصر في ذلك، كيف تنفق آلاف الجنيهات جوائز لأبطال النجوم و- الشعب جائع -.!؟

● كان اندفاع بنت الشاطئ اندفاعاً عاطفيًا مع تيار الثورة والشعارات الجوف، ظناً منها أنها تدافع عن بناء وإصلاح.. لمبدأ أساسي في حياة الأمم والشعوب. ولا أدري: هل تراجعت بنت الشاطئ عن رأيها الذي ساقها إلى الدفاع عن تلك الشعارات الفارغة.. بعد نضوجها وفهمها للإسلام ومعطياته، أم أنها اعتبرته من لغو الصبا.!؟

● لقد رأينا ما آلت إليه - الثورة الاشتراكية -، ليس في مصر وحدها المقلدة والجالبة لتلك التيارات التي تحيل الشعوب إلى ركامات من البؤس والذل والجوع، وإفراغها من كل قيمة للإنسانية.. التي كرمها خالقها، لكنها الأحكام المتسلطة.. التي ابتليت بها الشعوب المستضعفة، لتصبح فريسة مبادئ حاقدة ومبيدة للشعوب، لتمسي أحقر من الأنعام وأدنى ما خلق الله.!

● ورأينا ما آلت إليه ثورة عبدالناصر من فشل وفساد في الأرض.. التي ينطبق عليها قول الشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري: «نامي جياع الشعب نامي». كما فشل نظام الاتحاد السوفيتي وانهار بعد عقود.. وكذلك كل الدول

والشعوب التي اعتنقت الشيوعية والماركسية الباطلة.. لأنها تدعو إلى البؤس وإذلال الإنسان وطحنه وحرمانه من كل حق ومن كل خير أفاء الله به على خلقه.! لقد سحقت الشيوعية الشعوب.. فلم يبق منها إلا ركامات بائدة حقيرة، ومرد ذلك التسلط والطغيان والجبروت، غير أن الحق يمهل ولا يهمل، حيث يأخذ أولئك الظالمين أخذ عزيز مقتدر.!

● وبنت الشاطئ.. عايشت فشل الثورة والاشتراكية، لذلك تركت بلادها، حين تبين لها أن تلك التيارات والشعارات.. لا تقود إلا إلى الخراب والحرمان.

● بعدت بنت الشاطئ عن بلادها عقوداً، في الرياض.. في - كلية البنات -، وفي الكويت والمغرب، حين خابت آمالها في التغيير الذي سايرته في بداية ظهوره. ولعلها كانت مضطرة أن تساير وتصانع، إلى جانب أنها كانت مخدوعة كغيرها.. وهم كثير. غرتهم مماويل الاشتراكية الضبابية الفاشلة.. عند أهلها، وعند الذين فرضوها على شعوبهم.. لإذابتهم وطحنهم، فلا يكون لهم كيان ولا قيمة.!

● ورأينا بنت الشاطئ حين ظهرت لها حقائق ما يجري في بلادها.. أن تكتب وتطالب الحاكم.. بضمان حد أدنى - للدخل -، وتدافع عن الضعفاء والمساكين والمطحونين. وتطالب بالمقومات الأساسية للمجتمع.

ونتساءل: ماذا بقي من تلك القوانين الاشتراكية.. التي كان يدافع رجل قانون كبير، هو رفعت المحجوب الذي أصبح رئيس مجلس الشعب!؟ وأي شعب يستطيع أن يعيش في ظل هذه الصرامة والحرمان والموات الأبدي!؟ ورحم الله الشاعر الكبير أحمد شوقي القائل:

أحرام على بلابله الدوح

حلال للطير من كل جنس

• وقد كبلت الاشتراكية الفكر، وأماتت الحرية، وكممت الأفواه، وهذه هي الديموقراطية الزائفة.. التي كانت تردد في عبث ومزايدات لا يعوّل عليها ، لأنها لا قيمة لها! وهل ثم شئ اسمه ديموقراطية.. في ظل - الاشتراكية السالبة- لكل حقوق الإنسانية، وقد ذهبت ولم يبق لها شيء.!

• ولقد سمعت نجيب محفوظ يقول، في ملتقى تلفازي، عبر القناة الفضائية المصرية، في برنامج، قدمه - مفيد فوزي -، مساء الأحد، 2002/1/6، والبرنامج معاد. قال الروائي محفوظ: «الدكتاتورية أم الكبائر، وهذا ما وقع فيه جمال عبدالناصر..».

• وتركت بنت الشاطئ رصيداً قيماً من المؤلفات، منها ما يختص بالدراسات القرآنية الإسلامية، كالإعجاز البياني للقرآن، والقرآن والتغيير العصري.. والقرآن وقضايا الإنسان،

الشخصية الإسلامية، مع المصطفى، تراجم سيدات بيت النبوة. وغير ذلك من الدراسات اللغوية والأدبية والتاريخية.. مثل:

- رسالة الغفران - رسالة الدكتوراه - تحقيق.
- رسالة الصاهل والشاحج - تحقيق ودراسة.
- قراءة جديدة في رسالة الغفران.
- مع أبي العلاء في رحلة حياته.
- قيم جديدة للأدب العربي.
- لغتنا والحياة.
- تراثنا بين ماض وحاضر.
- الخنساء الشاعرة العربية.
- أعداء البشر - دراسة تاريخية.
- بين الإنسانية وأعداء البشر.
- أرض المعجزات.
- على الجسر - جانباً من سيرتها الذاتية.

- قرأت لبنت الشاطئ شعراً جيداً.. عبر نماذج ساقتها الأستاذة - وفاء الغزالي -. ولعل الدكتورة انصرفت عن الشعر.. حين لم تجد نفسها فيه، كما صنع غيرها من الكبار. وحصلت الكاتبة بنت الشاطئ على:

1 - جائزة الدولة المصرية الأولى للدراسات الاجتماعية - الريف المصري - عام 1936.

2 - جائزة المجمع اللغوي بالقاهرة - لتحقيق النصوص، عام 1950.

3 - جائزة المجمع اللغوي للقصة القصيرة، عام 1953.

إلى جانب أوسمة الكفاءة الفكرية من المغرب عام 1967، ووسام الاستحقاق من الطبقة الأولى من مصر.. عام 1973. وجائزة الدولة التقديرية للأدب - مصر، عام 1978. جائزة مؤسسة الكويت للتقدم العلمي. وأخيراً: جائزة الملك فيصل في الأدب العربي عام 1994.

● وعبرت بنت الشاطئ الجسر.. بعد حياة علمية حافلة، وذلك في يوم الثلاثاء 12 من شعبان 1419هـ الموافق 1 ديسمبر 1998م. رحمها الله.

* * *

ثقافية .. تبوك..!

«1»

مدّ إليّ الأخ الدكتور يوسف العارف.. ونحن في طريقنا إلى كلية المعلمين بالطائف ، تلبية لدعوة كريمة.. تلقيتها من عميد الكلية هناك.. وباقتراح وتأكيد.. من أخي الكاتب الناقد الدكتور عالي القرشي، وذلك في شهر ذي القعدة 1419هـ، وأفضل أخي الدكتور.. عبدالعزيز السبيل أن أكون في ركابه، وهو دأب المتجملين بأدب النفس، قبل أدب الدرس.. فكيف بهما إذا التقيا.. في نفس واحدة؟ إنه فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

مدّ إليّ الدكتور عارف نسخة من «المجلة الثقافية»، العدد الأول، وهي حولية ، تصدر عن كلية المعلمين في تبوك،

ويشرف على هذا الإصدار الأخ الدكتور.. موسى العبيدان - عميد الكلية.

وهو عدد متواضع في.. صفحاته، التي لا تزيد عن ست ملازم.. « 96 » صفحة. ومادام عدداً سنوياً، فكنت أتوقع.. أن يكون أوسع وأكبر، بحيث لا تقل صفحاته عن الثلاثمائة. ولكني لا أستعجل الزمن، فلعل الأعداد الثاني والثالث والرابع.. تكون علامة تميز للكلية الفتية، وكذلك جهد عميدها. وأكبر الظن أن إصدار عدد سنوي.. لا يتطلب جهدا كبيرا، وإن كان إصدار مطبوعة يعتبر مسؤولية.. لا تتجزأ. وقديما قالوا: «لا يعرف الشوق إلا من يكابده». فالعمل الجيد جهد ومتابعة، وسعي نحو الارتقاء والنجح، والنجاح ثمنه غال، ويعرف ذلك العاملون والمجربون والكادحون.![1]

أقول لأخي الدكتور العبيدان.. إن التصدي لإصدار مطبوعة.. يتطلب حسابات للنجح والإخفاق، وبدون هذه الحسابات، فإن العمل يعتبر مغامرة، كإقدام أي إنسان بكتابة وجمع أي كلام - كما يقال -، لكن العبرة.. بقيمة ومستوى الطرح وأسلوب الأداء . وإن الشيء في نفس صاحبه خبيء، فإذا أرسله.. لم يعد ملكه ولا يملكه. والتصدي لإصدار مطبوعة.. يحتاج إلى إعداد وعدة، وإلى حسابات، وإدراك قيمة ما يصدر إلى الآخرين. وإن من أصعب الأمور إصدار مطبوعة فكرية، بلا ريث، وبلا غربلة ما فيها، اعتماداً على

أسماء ذات ألقاب علمية، ذلك أن المهم في رأيي القيمة والمستوى، وليس مجرد استكتاب مجيد وغير مجيد، فيكون الإصدار خليطا غير متجانس، والضعيف الهزيل فيه.. أكثر من الجيد. والإقدام ينبغي أن تسبقه حسابات. والدكتور العبيدان.. يدرك ذلك جيداً. ولعل الرغبة والطموح يدفعان أحيانا إلى إنتاج مطبوعة.. ليست على مستوى التطلع. ولقد قال الدكتور طه حسين مرة: إن أخطر شيء على الأدب هو السرعة ، إنتاجاً وإخراجاً.. ودفعاً إلى الساحة. والعمل الرديء الضعيف.. محسوب على صاحبه الذي وراءه، كما أن العمل الجيد محسوب له. وأتذكر مقولة الأستاذ العميد.. يوم استقبل الأستاذ توفيق الحكيم في مجمع اللغة العربية بمصر، حيث بدأها بقوله: «صديقي الأستاذ توفيق الحكيم ! حسب الناس لك وحسبوا عليك».

لست بهذه الكلمات.. أثبط جهود العاملين، ولا أستنقص منها، ولكني أنبه إلى مخاطر العمل الفكري، لأنه عمل يكشفه عرضه، وما أسرع ما يظهر ما فيه من عوار. وأرجو أن تكون الأعداد القادمة من «الثقافية» عميقة الطرح، بما يوافق الأخ الصديق موسى، ومن حوله من رجال الكلية الكاتبين، نهوضا برسالة المعرفة، وأداء الواجب الوطني. والإصدار الثقافي مكلف، وليس له عائد، ولابد له من دعم..

يعين على الارتقاء والتطور بجهود لا ينقصها الإخلاص

والوفاء بالتزاماتها وأدائها والإقدام على المزيد من المسؤوليات. وأريد أن أشير أن تلك المجلة.. لم تصل إلى المنابر الثقافية فيما أعلم، ولم أر كتابات عن هذا الإصدار الجديد، فيما اطلعت من صحفنا، وإن أي مطبوعة، يراد لها الرواج والذيوع أن يطلع عليها الناس، إلا إذا كانت ثقافية تبوك.. خاصة بكليتها أو منطقتها، ولا أعتقد أن ذلك مرسوم في ذهن إدارة المجلة الوليدة.

وحين أدلف إلى صفحات المجلة، يصادفني كلمة عميد الكلية - مقدمة - قصيرة. وأعجبني طموح العميد، بالتطلع إلى أن تصبح هذه المطبوعة منتشرة في البلاد، وكذلك وصولها إلى الوطن العربي العريض. أقول إن هذه الإرادة.. سوف تتحقق بفضل الله وعونه أولاً، ثم بالطموح والعمل الجاد المتصل. وأنا أردد: أن الثقافة كلها مغارم، ومن مغارمها عطاء بلا عائد. وليس كل إنسان بمقتنع أن يمنح ولا يأخذ. ثم إن هذا العمل الفكري، يحتاج إلى المزيد من الصبر والعمل.. الذي لا يعرف التوقف، لأن النجح صعب وغالي الثمن. والدكتور العبيدان ومن حوله من الجادين وطلاب الكلية الطامحون، يستطيعون تحقيق الأحلام، والقفز بالمجلة إلى ما وراء الحدود، وإني لأردد: بقدر ما تعطي بقدر ما تحقق.. مع توفيق الله.

واقرأ كلمة وكيل الكلية.. الأستاذ عليان بن سبيتان الشامان، ص «12»، بعنوان: «رؤى في دور كليات المعلمين». وفي مطلعها.. يعلن الكاتب، أن التعليم الجامعي، يرمي إلى تحقيق ثلاثة أهداف.. هي: التعليم، البحث العلمي، خدمة المجتمع. وأنا قد وعيت الهدفين الأولين: «التعليم، البحث العلمي. لكن الكاتب ووكيل الكلية للشؤون التعليمية، لم يقل لقراء مجلته وأنا أحدهم، ما هي خدمة المجتمع.. التي تؤديها أو سوف تؤديها كلية أو كليات المعلمين في البلاد؟ سؤال أحسب أنه لم يقدم له جواب!

ومما قرأت في كلمة وكيل الكلية، ص «12»، وجود عدد - هائل - من أعضاء هيئة التدريس إلخ: حول إعداد المعلم المطلوب. وأنا لا أشكك في تلك القدرات، غير أن الإعداد وحده لا يكفي، إذا كان - المعد - بفتح العين المشددة، غير مهيأ.. ليكون المعلم الذي تحتاجه المرحلة. فالتعليم.. ليس أي وظيفة تؤدى على نمط ما، ولكنه مسؤولية عريضة، لأنها بناء أجيال واعية، بأسلوب تعليمي حضاري.. متجدد ومتطور، وقدرة المعلم على توصيل المعارف إلى طلابه. قدرة وتميز، وإخلاص. والسؤال التلقائي: هل معلمونا.. في هذا المستوى، من الأمانة وأدائها وكذلك القدرات التي يؤدي بها التعليم، ذلك هو المحك والهدف و - مربط الفرس - كما يقال؟

وفي ص «13» يقول الأستاذ عليان: «إن الخريج عليه الدور الأكبر في تحقيق التعليم وتنمية قدراته». هذا كلام جميل وصحيح! والسؤال الذي يفرض نفسه: إذا كان هذا المعلم.. لم يطور، وإذا لم تنم قدراته.. يصبح هذا الكلام حبراً على ورق، لأنه نظري فقط، وأسأل عن التقويم والمتابعة، في مدارسنا، وإدارات التعليم، ووزارة المعارف، وكذلك الرئاسة العامة لتعليم البنات!. نحن لا نريد كلاماً لا يفضي إلى شيء، ولكنا نريد أعمالاً ونتائج، تحقق المعنى السامي في قول الله عز وجل: ﴿**وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون**﴾. والأستاذ عليان يستعمل كلمة - طالما - بمعنى مادام، وهذا خطأ، لا يليق بمجلة ثقافية.. تصدر عن كلية تعد المعلم لغوياً ومنهجياً، إنه البناء، وما أصعب البناء عند مقدريه وعارفيه. قال الشاعر:

إن تجفني فلطالما واصلتني هذا بذاك فلا عليك ملام

وفي الصفحة نفسها، يقول الكاتب: تُولي كليات المعلمين البحث العلمي - اهتمام كبير - إلخ. وكلمتا اهتمام، وكبير موقعهما «النصب»، فالأولى مفعول به، والثانية صفة للمفعول به. وساءني أن يكون نصيب العلوم التجريبية ضعيفاً في كليات المعلمين، وذلك راجع إلى نقص المعامل. فهل وزارة معارفنا راضية بهذا النقص. الذي يفضي إلى خلل، لأن النقص

يؤدي إلى نقص! ولم يعجبني قول وكيل الكلية.. في آخر كلمته: «ولا يتوقف عن الارتقاء - ألا نستكين - إلى الرضا». فكلمة نستكين هنا قلقة، ولو قال ألا نجنح إلى الرضا، أو نستسلم، أو ألا نرضى، بدون - نستكين -.. هذه!

وفي صفحة «15» موضوع.. لوكيل الكلية، لشؤون الطلاب، الأستاذ سعود بن محمد الشمري، عنوانه: «والكرة في ملعب الوزارة»، وبدءاً.. لا يرضيني ولا يرضي في تقديري الدكتور العبيدان، عميد الكلية والمشرف على هذه المجلة، وسمتها يفترض الوقار والقيمة الثقافية. أما الكرة وملعبها، فهما خارج أقواس المعرفة.. في تقديري على الأقل -، وهو عنوان - هزيل -!

وفي رأس ص «16»، والكاتب يتحدث عن الإنتاج الإنساني، يقول والطلاقة والمرونة والتفاصيل، ولا شك أن هناك - ارتباط - بين هذه المصطلحات - بصورة - أو بأخرى.

ولا يغيب عن بال الواعين والجادين والعالمين، أن الارتقاء باللغة شيء أساسي.. في نجح المطبوعة، وكذلك جمال الصياغة، ليكون الطرح جذاباً، وإني أرى ركاكة و تعابير لا تغري، فكيف يتاح لنا تصدير ما نكتب وننتج، والعدد الأول - في رأيي - ينبغي أن يكون قوياً، وليس كيفما اتفق. فما معنى: الطلاقة والتفاصيل، وكذلك - المصطلحات

الثلاثة - بصوره - على أي عائد.. هذا التعبير الفرد؟. وكلمة - ارتباط - ما محلها من الإعراب؟ أيعتبرها الكاتب خبر - أن -، على حين أنها اسمها، وينبغي أن تكون منصوبة.!

ولم يعجبني قول الكاتب في رأس ص «17»: «ومن هنا حري بنا». ولو قال: ويجدر بنا أن نتوقف - مثلاً -، لكان خيراً . وفي السطر الثاني قول الكاتب: «استشعار معالي الوزير في إهدائه - لذلك - الطفل». والصحيح: إلى ذلك الطفل. وابن الخطاب رضى الله عنه قال: «رحم الله أمرءاً أهدى إلينا عيوبنا». وانه لتعبير ركيك قول الكاتب: «إذن فنحن بحاجة إلى تقديم تكريم يتعلق بالجوانب الإثرائية».

«2»

ولم يعجبني قوله: «قد اقترحت برامج إثرائية»! غنائية وما أجمل لو قال: - فيها غنى -. ولم يعجبني كذلك قوله: «وثانيها النظر في آلية «تقفيز» المتخوفين الخ». واللغة العربية، كما يقول الكاتب الكبير - عباس محمود العقاد: «لغة شاعرة»، لذلك فكلمة - تقفيز -، أقرب إلى التعبير العامي، وهي تنطلق من رجل ينتسب إلى كلية، تعلم فيما تعلم، العربية الفصحى! ولو قال كاتبنا - الارتقاء - بالمتفوقين.. لكان أتقن!. ولم يعجبني كذلك، كلمة -

التسريع - ص «18» ولماذا لا يكون الإسراع، إذ قد يفضي التسريع إلى التصريع، أو هكذا يفهم!. ولماذا نحيد عن الألفاظ من السهل الممتنع. وتكررت جملة: «والكرة في ملعب الوزارة».. في آخر كلمة الأستاذ سعود الشمري. فهل هذا تعبير جمالي عال.. يمكن أن يصدر إلى الوطن العربي؟ والسؤال موجه إلى الدكتور العبيدان.!

ومقالة الدكتور/ أحمد علي بدوي، بعنوان: «أسئلة للأطفال»، وهو يندرج في تخصصه - التربية وعلم النفس -، وهو موضوع جيد، مركز، وذو أهداف تربوية قويمة، ولا ملاحظات لي عليه، ولكني أشيد بهذا الطرح المتميز البناء المتقن.

وللدكتور/ أحمد حامد «قسم العلوم» مقالة: «أساسيات أولية في فهم الوراثة الخلوية»، جيد ومتكامل في موضوعه. ومقال: «تلوث البيئة البحرية» للدكتور فايز عبدالمقصود شكر، جيد، وقد أعجبني تناوله لقضايا التلوث وأضراره.. للأحياء البحرية وللإنسان، وما أجدرنا.. أن نعالج مشاكل التلوث وأضراره وأوضاره، لنعيش أصحاء، ننعم بالعافية، بعيدين عن أذى التلوث، الذي عم البر والبحر، من سوء ما يصنع الإنسان ويفسد في الأرض. وما أجدر أمم الأرض الواعية، والحكومات والهيئات التي تعنى بصحة الإنسان وسلامته، أن تعمل وتتدخل، لدفع الأذى.. عن

الإنسان الضعيف المسكين، الذي اصطلحت عليه أسقام الدنيا وهموم الحياة، والذي لا يملك من أمره شيئاً. وهو حقيق بالحماية والرعاية، ليعيش حياته.. في سلام وأمن وصفاء - معافى -، لأن رصيد الإنسان الأول.. هو عافيته. «الصحة» هي عنوان الحياة الكريمة الوادعة، هي السعادة كلها. وحسبنا اتكاء على قول من أوتي جوامع الكلم.. صلى الله عليه وسلم: «ما أعطي ابن أدم بعد اليقين خيرا من العافية». وقوله عليه السلام: «إذا أصبح ابن آدم معافى في بدنه، آمنا في سربه، فكأنما حيزت له الدنيا». نسأل الله أن يعافينا فيمن عافى، ويتولانا فيمن تولى، إنه هو البر الرحيم.

وأرى خللاً فنياً في إخراج مقال الدكتور/ محمد عبداللطيف حسين، الذي عنوانه: «الحقيقة التي سهرت بياجيه طيلة ستين عاماً». فقد بتر في صفحته الأولى، حيث خرجت بيضاء.. في ربعها الأخير، وكان ينبغي ملء الفراغ بجزء مما في الصفحة التالية، غير أن بعض من نسميهم - المخرجين -، لهم فلسفات، تنحرف بهم، فيخرج العمل مشوهاً، وهم يرون أنهم على حق، ولكن تلك الحال.. ينقصها - الذوق -، وهو نعمة من الله!

ولاحظت في آخر صفحة «48» بتراً، بنقص سطرين.. عن الصفحة المقابلة - بلا مبرر -، وذلك مسؤولية المطبعة وفنييها، لأن العوار عيب في الصنعة الفنية.

وأخي وصديق العزيز.. الدكتور - مبارك المعبدي -، رجل حبيب، أرجو أن يتسع صدره لي، فإني أحب فيه وفاءه وأدب نفسه، وهو أثير عندي. ولاحظت في مقالته، ص (52)، وطرحه: «الموضوعية في كتابة التاريخ في الزمن المعاصر». وصاحبنا.. لا يتعامل مع - الفواصل - رغم أنها تريح القارئ، لكن - رص - الكلام بلا فراغات.. يتعب العين القارئة، ولابد في عرف الكتابة.. من انتهاء جمل ما يكتب ويقرأ، ليكون للكتابة والقراءة إمتاع وتذوق، من ذوق الكاتب ودوره وحسه.

وأريد من صديقي العزيز، أن يطور أسلوب كتاباته.. في لغتنا الشاعرة، ليكون الجمال في الأداء والسلاسة في ربط الجمل وموسيقية تناغمها، لتكون لغتنا شاعرة بحق، حين يُعنى بها كاتبوها والمتعاملون معها، بأذن واعية، ولسان ذرب، وبراجم تخط الجميل من جمال نفسها، وأخي المعبدي أهل لهذه الصفات الحميمية.

مررت بمقاله.. متابعاً طرحه ، فرأيت أن استهلاله جميلاً وجيداً، ويبقى أن يعنى بأسلوبه ولغته كما ينبغي. ولم يعجبني قوله: وكان يظن أنه طالما أصبح في الإمكان نقداً لوثيقة.. إلخ. وكان يكفى أن يقول كاتبنا : وكان يظن أو يقدر مادام في الإمكان.. إلخ. أو أنه أصبح في الإمكان، فذلك أجدى،

أما زحمة: يظن ومادام وأصبح فغير مسبوكة ولا رشيقة. وكذلك قوله: فإنه صار من الميسور، لو كان أصبح بدل صار لكان خيراً. وقوله: «ونعيد تصوير بناء ذلك الماضي كما كان بالضبط». كيف نفهم : تصوير بناء ذلك الماضي؟ أم هو - تطوير -، وحدث خطأ مطبعي أفسد المعنى! وكلمة «بالضبط» قلقة، ولو قال الدكتور مبارك: كما كان حقيقة.. لأجاد. وقوله: ولكن إذا أمعنا النظر تجمع لدينا من إمكانيات.. إلخ، وكلمة - تجمع - حشرت إكراهاً، وهي قلقة هنا. ولو قال: إذا أمعنا النظر تكونت لدينا إمكانات.. إلخ. وقوله: «وهو في حالة فراغ عاطفي ودون هد أمر يناقض تماما المبادئ». إلخ. وبعد ثلاثة أسطر.. يقول الكاتب: «وهو الرأي الذي أصبح مقبولا تماما». و- تماماً - لا محل لها من الإعراب هنا.. كسابقتها. وبعد سطرين يأتي «التمام»، وكأن الصديق يعمل في الانضباط العسكري.. في بلد ما عربي، حيث يقال: «تمام يا افندم. ومبارك يردد.. في السطر الأخير من ص (52) وقد يكون من تمام الحديث أن نقول أن كل حدث» إلخ، والصحيح - أن - بعد قال ونقول وقالوا - مكسورة - الهمزة -، ويعرف ذلك مصحح العربية الجيد، والدكتور العبيدان، ونحن نقرأ مجلة ثقافية، تصدر عن كلية، وليس من مدرسة ابتدائية.!.

ويقول مبارك.. في ص - 54 -: «وليس له شبيه ولا يتكرر كلية مرة ثانية». و - كلية - مثل تماماً، يحشوها

صديقنا بلا حاجة إليها، ويكفي النفي بـ: ولا. وقوله: «فإن هؤلاء قد أغفلوا برأيهم تسعة أعشار ماضي البشر. و- برأيهم-، فإن الأستاذ العواد.. يسمي هذه - الباء -، التي تأتي في أول الكلمة.. وفي غير موضعها - بالباء الشامية -، والدكتور المعبدي.. رجل بدوي، فما علاقته بهذه الباء؟ ولماذا لم يقل : أغفلوا في رأيهم إلخ؟. ولم يعجبني قوله: «أعمرت الأرض بعد دمارها» إلخ فـ - أعمرت - قلقة. ولو قال - عمرت - بتشديد الميم لأجاد وأصاب. وفي التنزيل: **﴿وعمروها أكثر مما عمروها﴾** سورة الروم - آية "9".

ويقول الكاتب في الصفحة نفسها: «ونحن نعرف المقولة التي تقول بأن» إلخ. ومقولة وتقول، تعبير سطحي. ولو قال: ونحن نعرف أو نعلم المقولة التي تعلن أن البحث. لكان التناسق اللفظي أجمل وأدعى لسبك الجمل. والدكتور مبارك يعلم.. أن الأسلوب هو الرجل.. كما يقال. والأسلوب رشاقة ونمط جمالي ساحر.. إذا اتسق - وأحكم أداؤه وصياغته.!

ويقول كاتبنا: «ولكن بالبحث فقط أن يكون التاريخ بأي حال من الأحوال». وهذا التعبير التراكمي.. أشبه بما كان يقوله الدكتور طه حسين، أن العرب كانت إذا مرت بكلام فلم تفهمه، تقول: «يوناني فلا يقرأ». ما هذا ياصديقي وأخي العزيز، وأنت من أمة ذات لسان عربي مبين.. من مهد العرب، في الجزيرة العربية؟

ويقول مبارك: «ونحلل وننظم ثم ندرس بعقلية مؤهلة - تماما - لديها القدرة». ومازلنا في ساحته - التمام -.! ويقول: «وبهذا يمكن القول أن البحث التاريخ». ومازالت همزة - إن - مفتوحة.. بعد القول. ولو قرأ الدكتور العبيدان المجلة التي يشرف عليها، وصفحاتها ليست كثرة، لصحح وعالج الأخطاء، وأحسب أن ذلك دوره.. في إصدار سنوي.. لا تبلغ صفحاته المائة، وكيف الحال بمن عندهم من الإصدارات السنوية. ما ينوف عن أربعة آلاف صفحة، يقرؤونها.. كلمة كلمة، بجانب شواغل أخرى يتهضون بها؟

ويقول مبارك.. في ص - 54 -: «ويتحقق ذلك إلى حد ما، وإلى حد أخير. ويقول: ينقيها ويغربلها وينظفها». وهذه تعابير هزيلة.. أشبه بالعامية، لا تليق بأستاذ جامعي، إنها سطحية الأداء. وقال: «إن هناك كثير ممن ينتمون» إلخ. والصحيح أن هناك كثيراً - اسم إن -. ويقول: «وإذا كانت المجاملة وحسن الذوق» إلخ . ما معنى هذا الكلم.. في المجاملة وحسن الذوق، وما هو الرابط بينهما يا ترى؟

في ص - 56 - بعد فاصل فتحت همزة - إن -، ومحلها الكسر، لأنها في أول كلام جديد. وفي الصفحة نفسها يقول الكاتب: ومعنى ذلك أن للمؤرخين الأحياء أن - يفعلون - هكذا الفعل المضارع، وهو من الأفعال الخمسة، ومسبوق بناصب، ظلت - نونه - باقية.؟

ويتكرر استعمال كلمة - طالما في - موضع - مادام - في الصفحة نفسها. وفي ص - 57 - جمل تقول: «إذا المؤرخ هو الأساس الأول والأخير في إظهار هذه الحقائق في موضوعها الأقرب إلى الصواب». وأضيف إلى المؤرخ: الصدق والإخلاص في عمله، والجاد الفطن اللماح.. إلخ.

في ص - 58 - بقية سطور المقال، قال مبارك: وجملة القول أنه: «بفتح همزة - إنه - بعد - القول - ». يقول: «وعلى هذا الأساس ربما كان أكثر فائدة أن نقيم الحقيقة على أساس مدى فائدتها لنا بدلا من تقييمها على أساس صحتها أو عدم صحتها». وأقول: مطلوب الاثنان معاً يادكتور مبارك.!

وأعتذر لصديقي.. إن أثقلت عليه في نقدي، ذلك أني أريد له الخير.. كما أريده لنفسي، ومن أجل أن يقوّم أسلوبه.. ليكون شائقا جذاباً جميلاً. وقد تجاوزت عن بعض الأخطاء والهنات.. حتى لا أغضب أخي العزيز أكثر. وأؤكد أن الدكتور موسى لم يقرأ مجلته.. ليستدرك ما فيها من أخطاء لغوية وتركيبية، لتكون أكثر صفاء وسليمة مما انتابها من أخطاء كاتبيها، وطباعية. ولعل التجربة تحقق المزيد من الإتقان.. في أعداد قادمة. راجياً لهذا العطاء.. مزيد النجح والانتشار والجدوى. وما ينفع الناس.

هامش

(1) - تابعت ما وصلني م هذا الإصدار، ولم أر ارتقاءً ولا تطويراً، ولا جدة. ويبدو أن شواغل عميد الكلية وكاتبي هذه المطبوعة، لم يُتح لهم النهوض بهذا - الملف -، الذي يصدر وفق الظروف المتاحة.!

* * *

علاقة الأكفاء

للأستاذ علي أدهم كتاب اسمه: «تلاقي الأكفاء»، يتحدث فيه عن الأدباء.. أو قل عن شريحة منهم، من ذوي الكفايات، الذين تلتقي آراؤهم، والذين يثرون الحركة الفكرية، وتجمعهم رابطة المعرفة، ويجمعهم الأدب، ويتقاربون.. في طرحهم وتوجهاتهم. ويلتقون.. في توافق وسياحة المعرفة، بما ينتجون.. من أدب ويجمعهم ناد وحوارات، ليس من أجل أن يبز أحدهم أخاه وصديقه، وإنما لإثراء الحركة المعرفية.. بالثقافة التي اكتسبوها، وصاروا عنوانها ودليلاً عليها. والأكفاء حين يلتقون.. فإنهم يبثون المعرفة في أي ملتقى ثقافي، ويستمتع جمهورهم بما يقدمون ويحاورون.. حول قضية من قضايا المعرفة الحقة، التي تنفع المتلقي وتفيده، لأنها إثراء وعطاء معرفي متجدد ناضج.. له فعالية وسمات باقية، في نبضه وينعه وجدواه!

سقت السطور الآنفة.. كي أصل في هذه الوقفة إلى نموذجين شعريين، بين أخوين كريمين، وهما من أدب الرسائل.. الذي توقف نبضه اليوم، في عصر الثقافة والتطور العلمي، وجاءت سبل جديدة.. قضت على ذلك الجمال البياني والبلاغي، الذي كان سمة رسائل الكبار من الأدباء، تحمل آمالهم وأحلامهم وتطلعاتهم، وشوقهم إلى التلاقي.. والأحاديث الطلية، وإلى السمر والإيناس، والذكريات.. التي وصفها الشاعر الكبير أحمد شوقي.. رحمه الله بأنها «صدى السنين الحاكي».

والرسالتان اللتان بين يدي.. هما قصيدتان جميلتان. الأولى، انطلقت من جوار البيت العتيق إلى الذي فر من قيظ البلد الحرام.. إلى الطائف، وكأني بشاعر العرب الكبير فؤاد الخطيب يردد هناك:

وسل الطائف عن أيامنا تنطق الدار وأبراج القصور
والمروج الخضر في رأد الضحى لبست ثوبين من نَور ونُور
كم جررنا فيه من أذيالنا فنسينا الصد والجد العثور

معذرة، فلست أتحدث عن خريدة شاعر.. في الطائف، وإنما أنا واقف مع أخوين محبين، بعداً بعض الوقت، وما هما عن بعضهما ببعيد، أحدهما في مكة، ينعم في جوار كريم

غال، عند البيت الحرام، والآخر.. يتفيأ ظلال الكروم الفواحة وأشباهها من التين والرمان، وهو في الهواء العليل.

واشتاق جار البيت الحرام، وكأني بالشاعر القديم.. يتلفت إلى هذا الشوق المتجدد السريع ليردد على الأسماع:

أشوقاً ولما تنقضي غير ليلة　　　فكيف إذا جدّ المطي بنا عشرا

والود الصادق.. حين يربط بين اثنين، تقوى أواصره، ويتعمق صداه، وتغدو وشائجه رفافة، لأنه صدق ووفاء، وليس زيفاً وتصنعاً و- مصالح -، وهي أشبه بالمصانع، وليست المصانعة!

شاعر مكة أو قل شاعر من مكة، تلتهب مشاعره، ولعل للجو بعض التأثير، وإن كانت الأشواق.. لا تأثير للمناخ عليها، لأنها تتقد في الداخل، من النفس الجياشة المشاعر، ولاسيما عند الشعراء والأدباء.

يقول شاعرنا.. أستاذنا عبدالله بلخير معاتباً صاحبه.. الذي ربما شغله مناخ الخمائل والثمر في الطائف، فانصرف بعض الوقت عن الصديق.. في الجوار العبق، ولا أقول نسي، ولعله كان يتيحن الفرص.. التي تنداح معها الشاعرية، فيفاجئ صاحبه بنتفات بيانه، سطوراً من النثر.. ربطة الجوى، إن صح هذا التعبير، لأنها مضمخة، ورداً وآساً وشذى، علها،

شوق ومناخ اصطلحا، ليندفعها معاً إلى شماريخ الجبال وظلال الدوح.. بتلك الحرارة، لتمتزج مع فوح الجنات المعروشات، وذاك النسيم الرفّاف، والجدول الخرّار، والسمر العاشق، وربما ولهان، في قلب ومشاعر الشباب الشاعر. إنه امتزاج على نحو ما.

ونقرأ الشعر المبادر.. من جوار البيت العتيق، ليقول عنوانه: «حنانيك».. ويقول مطلعه: تنزع شيئاً من وقد الهجير في البلد الحرام. قلت لعل ساكن الطائف.. ينهز بهذه الالتفاتة إلى صاحبه، فيوصل ما انقطع..

حنانيك! هل هذا الصدود وذا الجفا   لذنب جرى مني، فقد مسني الضر

نفس الشاعر.. حتى وهي تعتب رقيقة شفافة، لأنها تحب وتؤثر وتحس، والشعر انفعال نفس، وهاجس مشاعر، وارتقاء تعبيري، وأعني الشعر الصادق الحي، الذي ينبع من الوجدان.. وصفاء النفس. ومن يقرأ مطلع قصيدة مكة، ربما يفاجأ بأن ثمة حالة غير طبعية، وأن شيئاً ما حدث، وأن الأمر جلل وخطير. ولكنه لا يكاد يمضي في قراءة أبياتها.. حتى يطمئن إلى أن الأمر لا يعدو أن يكون عتباً رقيقاً، وصدىً نفسياً، لوحشة، تركها الفراغ والبعد النسبي، والإنسان أسير ما ألف واعتاد. والشعر جيشان، غير أن اختيار الشاعر للكلمات.. يهدئ من فوران الشوق العارم. ونقرأ أبياتاً تتموج أثراً

وتأثيراً، لعل شاعرنا الكبير عبدالله بلخير.. أراد أن يهز كيان صاحبه، وكأنه شيء من امتحان نفسي. وهكذا الشعر فيض نفس جياشة، تهفو بما فيها، لتعطي من ذاتها شيئاً ممرعاً، في تدفق تلقائي، ينساب كأنه شلال دافق.. يومض.. إلى حد الانبهار، حين يرتقي التعبير الوجداني والنفسي، وكأنه لهب.. يموج مضطرباً رائعاً، لأنه شعر وشعور، من موهبة دفاقة، تتوثب.. لتسابق الخيال! يقول الأستاذ بلخير:

أم الطائف المأنوس أنساك مغرماً ... بحبك، أم آنستك أقماره الزهر
أم الظبيات الغيد ما بين - شبرة - ... أسرتك قهراً أم خمائلها النضر
تذكر ليال قد مضت في مسرة ... «بأجياد» يحكي عرفها المسك والعطر
وأوقات أنس بين - زمزم والصفا - ... وقد غفل الواشي، ولم يفتش السر
وما كان ظني فيك ذاك ولم أكن ... أظن بأن الوصل يعقبه الهجر
إذا كان هذا في «الحجاز» فكيف إن ... نأيت وحالت بيننا البيد والقفر؟

* * *

لك الله غرّد ما استطعت فإنما ... تردد شعراً بعض مفعوله السحر

على الجانب الآخر.. صوت الشاعر والأديب الكبير الأستاذ علي أحمد باكثير، الذي هجر.. على رأي الأستاذ بلخير، وأغراه الطائف بينعه وهواه، فشغل وانشغل، وانساح.. مع الخيال والتخييل، يرتشف الهوى صافياً، وينعم مع الطيف،

ولعله كان يحلم، فأنساه الهوى والحلم صاحبه، يتقلّب في الحرور، متلهفاً.. إلى نفحة من نسمة وسنى في السحر، تغري بالسرح «بين أحشاء الربى» و- خلوة الورق جثوماً في الوكور - كما يقول فؤاد باشا الخطيب!

ويصحو الباكثير.. على أصداء وأنغام شعر صاحبه المعاتب والمستوحش، وكأنه كان غاضباً، وكأنه كان غافياً، أو هارباً مع نفسه، ويسارع بإرسال صوته، فقد جاءه الشعر، مستجيباً لذلك العتب، والحديث عن أخيلة وأمان وآمال يطفو بها الهوى!

يبادر باكثير، ويتساءل: هل يسمع له صوت، وهل يبلغ صاحبه اعتذاره، ولعله متهم، وليس له ذنب، ولم يقترف ما يستحق عليه العتب والاحتجاج! ثم يثني على آهات وزفرات صاحبه.. الأستاذ بلخير، ثناءً عاطراً، وينظر فيما جاءه من قريض، فيه ثناء عليه، فيعلن أن ليس له، أو ليس أهلاً له، وهذا تواضع الأديب الحق، رغم أن الباكثير.. أديب كبير، وأهل للتقدير والاحتفاء والثناء المستطاب! واسمعه يقول:

وما عابه الأمد يحيى فإنني لأدرى بأني من خلال العلا صفر

والضمير في - عابه - يعود على شعر الأستاذ بلخير. أما مطلع قصيدة الشاعر علي أحمد باكثير فإنه:

أيسمع لي صول ويقبل لي عذر فرب ملوم لا يُصاب له وزر

أتاني عتاب في قريض كأنه تراجيع صوت الثغر يلثمه الثغر

وإنه لشعر عذب، لأن قائله شاعر، ولأنه حب ووفاء ومشاعر، لذلك وصفه بتلك العذوبة الشهية، التي ينثال عليها صفاء الإنسان، ولأنها هوى. وما أعذب الهوى وأشجاه وأعمقه، وما أشد تأثيره ووقده وآلامه وشجنه.!

يطول وقوف الفكر بين رياضه ... يرفّ بها زهر ويجري بها نهر

وأشهد أن الأستاذ باكثير شاعر.. عميق الرؤى والتخييل، في شعره جمال وقوة وسبك وصور، كأنه يغترفه من نهر دفّاق قراح.

وما ذاك إلا الشوق أرهفه النوى ... وهيجه الذكرى فمثّله الشعر

وما عابه الأمد يحيى فإنني ... لأدرى بأني من خلال العلى صفر

وما أجمل قوله وما أمتعه، وإنه لتعبير الكبار الأخّاذ، من ذوي المواهب العالية، والنفوس الكبار.. والإيثار والمروءة والوداد النثير على مرافئ الوفاء الصادق، وهذا التعبير الذي سنقرؤه في البيت التالي.. من أساليب الكبار، التي يؤثر التوقف عندها طويلاً، تحليلاً وبحثاً وتعمقاً في معانٍ، لا تجري بها إلاّ أقلام ونفوس موهوبة، متواضعة حرة، لأنها تملك أمرها وحالها، بعيدة عن الأنانية والكبر، ولكنها حانية.. وادعة، أثيرة، بلورية الرؤى، من رقة الوجد.. وعمق التأمل، والجمال النفسي، وهو الجمال الباقي، لأنه عنوان وسمة ومروءة وصفاء، ليس زيفاً ورياءً وباطلاً وظلاً زائلاً.

ولـكـنّ مـولاه رآنـي وسـيـلـة قد انعكست فيها محاسنه الكثر

يعني صاحبه الأستاذ بلخير، فذلك الثناء الذي أضفاه على صاحبه الباكثير، هو صورة لنفس الشاعر عبدالله بلخير، إنه رد الجميل.. الذي لا ينساه الأوفياء، لأنهم فطروا وعاشوا الوفاء والصدق والمروءة والحب!

وانظروا إلى البيت التالي، المرادف لسابقه، فهو تأكيد لمؤكد.. إن صح هذا التعبير، مع أن المؤكد لا يؤكد.. كما يقول النحاة:

فقلدني ما قد رأى من خلاله وقد يتراءى النجم في الماء والبدر

كلمات.. تكتب بماء الذهب، وأغلى من الذهب، إذا وجد مادة أثمن، وهذا كلام لا يثمن، لأنه أثمن من الجواهر واللآلئ، التي تذهب، ولكن الجوهر باق. وتاريخ هذا الشعر.. أربع وستون سنة قمرية. وكأني بالشاعر أمجد الطرابلسي، وهو يحادث سيف الدولة الحمداني، ويتأمل في شعر أبي الطيب الذي قاله فيه، ونال عليه جوائز.. ذهبت مع صاحبها والأيام، والجوهر الذي صاغه المتنبي باق مضى عليه أكثر من ألف عام. فاستمعوا إلى ترديد أمجد الطرابلسي:

يا ابن حمدان أنت لولا أبو الطـ يّب أنّى لـذكـرك التـخـلـيـد

أنـت أولـيـتـه الـعـطـايـا جزافـا والـعـطـايـا مـع الـزمـان تـبـيـد

أنت لـولاه ما رأيـنـاك في الـسـا ح ولـلـحـرب ضـجـة وبـنـود

ومع اعتذار الباكثير لصديقه وأخيه، يعلن في غير تحفظ أنه قصّر، وأنه باق على العهد، ولكن قلبه جنح إلى ما هو فيه من الدعة، وما حوله من مناخ.. وقد يصرف عن التذكر والانشغال بالأحبة. إنه سرحان شاعر وأديب وسط طبيعة غنّاء، تلهي، ولا أقول تنسي!

وما أدفع التقصير عني وإنما ... وثقت فراح القلب بالأمن يفتر

الشاعر شغل وانهمّ في منتجعه، ولعله لم يكن يتوقع شيئاً مما ناله، وقد باح بحاله.. في قوله:

قصدت إلى هدى الربى متنزهاً ... فكان نصيبي الهم والضر والأسر

فياليتني لم أنأ عنكم ولم أزل ... (بمكة حيث البيت والركن والحجر)

لم يكن في تقدير الشاعر.. أن يلقى ما آل إليه وحلّ به. وكان يؤثر لو علم، أو كان له خيار، وهو ماضٍ في غيب، لو درى.. لبقي في الحر، مؤثراً العافية.. مما حل به، وأنى له أن يعلم ما في الغيب؟

إذاً لتملى القلب من طيب وصلكم ... ولم يؤذني في ظل عطفكم الحر

ويصل في هذا الشعر الجميل، والتصوير الرائع.. إلى قوله:

(ولكن إذا حم القضاء على امرئ ... فليس له بر يقيه ولا بحر)

وهو بيت مقتبس، في اختيار جيد التوفيق، في هذا الشعر النابض، الذي أتيح لي قراءته في مجلة: «أهلاً وسهلاً»، التي تصدرها - السعودية -، لشهري.. المحرم وصفر 1416هـ. ولولا خشية الإطالة، لمضت سباحتي مع هذا الشعر الماتع، رغم انقضاء أكثر من ستة عقود على نظمه. والأدب الحي الجيد.. يتجدد مع الزمن، لأن نبضه مصدر قوته وجاذبيته والإلتفات إليه. ومازلنا نقرأ الشعر القديم، وكأنه.. حديث عهد، ذلك أنه من السهل الممتنع.. كما يقال.

* * *

صديقي: ابن بطوطة.!

«1»

قبل نحو ثلاثة عقود.. صاحبت - جواب الآفاق - ابن بطوطة.. رحمه الله، في رحلته الطويلة الأولى.. التي بلغت ربع قرن من الزمن، جاب فيها أصقاع الدنيا، حيث وصل إلى - الصين -، شرقاً، وإلى سيبريا.. في منتصف الكرة الأرضية الشمالي.

واسم هذا الرحالة: أبو عبدالله، بن محمد بن إبراهيم، بن عبدالرحمن بن يوسف اللواتي - الطنجي. ولد في طنجة.. يوم الاثنين 16 رجب الفرد سنة 703هـ، الموافق 24 فبراير عام 1304م، ونشأ بطنجة بلده في شمال المغرب، وتلقى دراسته على مشايخها، فدرس العربية والفقه. وهي بلده توفي عام 779هـ الموافق 1377م.

صحبت ابن بطوطة.. في رحلته تلك الطويلة. حيث خرج من طنجة في المغرب في يوم الخميس، 2 من شهر رجب سنة «725هـ»، الموافق سنة 1324م. وابن بطوطة ولد وتوفي عام 704-779 الموافق 1304-1377م.. وقد استغرقت رحلاته، نحو تسع وعشرين سنة، وقد بدأها وعمره ثنتان وعشرون سنة، قاصداً الحج إلى المسجد الحرام بمكة وكان أول حجة للرحالة، سنة «726هـ،» الموافق - 1325م -. ثم ساح في ملك الله الواسع تلك الحقبة من الزمن. وأقام ما شاء الله له أن يقيم.. وهو في طريقه إلى البلد الحرام. وأذكر أنه أقام بعض الوقت في طرابلس الغرب.. وصار فيها قاضيا، وتزوج من هناك. وجاء إلى مصر، وأقام فيها بعض الوقت، وزار الأزهر، ولقي بعض شيوخه.. خلال إقامته ببلد المعز ، وزار الإسكندرية. وأذكر أنه لقي تاجرا في سوقها، وخلال حديثهما.. قال التاجر لصاحبنا: إذا زرت الهند.. فسلّم لي على أخي الموجود هناك. ويبدو من هذه الإشارة، ومن إقامة رحالتنا في ليبيا ومصر، أنه خرج من بدله المغرب.. وفي نيته أن يسوح في أرض الله الواسعة . وكان عمره يومئذ «18» سنة[1].

وحج ابن بطوطة، ثم شرّق نحو الخليج، ومنه انطلق شمالا.. إلى العراق وإيران، وغاص في البلاد الإسلامية العريضة، التي افتتحها المسلمون.. أيام أمجاد الأمة

الإسلامية وجهادها وأبطالها الشجعان، الذين جابوا الآفاق - فاتحين - شعارهم.. كلمة التوحيد: لا إله إلا الله. باعوا أرواحهم لخالقهم، فدانت لهم الدنيا، لأنهم يريدون الثمن الغالي.. لقاء هذا الفدا، وهو الجنة. وليسوا يريدون الدنيا، كما قال ذلك الرجل التونسي.. في أطروحته للدكتوراه، «المال في الشعر العربي»، التي حضرت مناقشتها.. في جامعة تونس الأولى بمنوبة، فقد قال: إن الفاتحين المسلمين، كانوا يسعون إلى المال. وقد كذب، فتلك الأمة.. كانت مجاهدة، لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى. وقد رد على صاحب تلك الفرية.. الدكتور اليعلاوي، أحد مناقشي الأطروحة، أمام المناقشين والجمهور، بأن ذلك ليس صحيحاً. والمسلم الصادق يحزن حين يسمع من منتم إلى الإسلام هذه المقولة الباطلة، التي تسيء إلى الإسلام، وإلى الأمة المسلمة المجاهدة. ولو كان هدف الغازين المال.. لوصل إليهم من أهل وحاكمي تلك البلاد التي فتحوها بالسيف وسلما، ولكنهم كانوا مجاهدين حقاً، لتبلغ وتتردد كلمة التوحيد في أصقاع الأرض. ولو كان هدفهم المال.. لما نصرهم الله، ولما فتحوا تلك الأمصار، فالهدف رخيص، لأنه دنيوي . والحق قد أعلن في كتابه العزيز قوله: ﴿**ولينصرن الله من ينصره، إن الله لقوي عزيز**﴾. وقوله سبحانه: ﴿**إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم**﴾. إذن النصر لم يكن لقاء عرض دنيوي زائل، ولكنه

ثمن جهاد في سبيل الله ، والمحصلة النصر، أو الشهادة والجنة. وصدق الله القائل: ﴿**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم بأن لهم الجنة يجاهدون في سبيل فيقتلون ويقتلون، وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن، ومن أوفى بعهده من الله، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم**﴾. لو كان هدف المسلمين المال والدنيا لما قيّض الله لهم ذلك النصر المؤزر المبين، لأنهم أقل عددا وعدة من أعدائهم، وحال الجهاد والغزو، تختلف عن الدفاع عن الوطن والنفس والمال، لأن الغزاة المسلمين.. ينطلقون إلى بلاد غريبة وبعيدة، ولكن في سبيل الله.. يهون الصعب، وينصر الله عباده الصادقين.. الذين باعوا أنفسهم وأموالهم في سبيل دعوة الحق والفتح، ليدخل الناس أفواجا في دين الله. إنه لهدف سام، لإبلاغ رسالة الإسلام إلى أصقاع الأرض، حتى قال أحد القادة في الأندلس.. يشهد خالقه وهو يقسم، وتبقى كلمته الصادقة.. تتردد في أسماع الأجيال والأرض.. حتى قيام الساعة. قال: «والله لو عرفت أن وراء هذا البحر أرضاً.. لخضته جهادا في سبيلك». الله أكبر، أي نفوس هذه التي تخوض غمار اليم وتغوص فيه بأقدامها.. نشرا لكلمة التوحيد، ترخص النفس والنفيس لإعلاء كلمة الله. أي أمة هذه.. التي دانت لها الدنيا، إيمانا وشجاعة ووفاء بعهد، فتحقق لها ما أرادت، لأنها صادقة وفيّة ، قوية بإيمانها

بخالقها، لأنها تحمل رسالة، وجب عليها أن تبلغها إلى أقاصي الأرض، حتى تسمعها الجبال والوهاد والنبات والطير والحيتان وكل شيء يسبح بحمد الله.!

وحين يقول كاتب وإنسان ينتمي إلى الإسلام تلك الفرية، ليقال: وشهد شاهد من أهله. ويردد أعداء الإسلام أن أحد المنسوبين إليه.. يعلن، أن الفتوحات الإسلامية، كانت ترمي إلى هدف دنيوي، وليس جهادا في سبيل الحق ونشر دعوة السماء في الأرض، وأهلوها قد أمروا بذلك! أقول وأيم الحق، لو كان ذلك الجهاد الذي يشكك فيه. كان بهدف الدنيا، ما تحقق منه شيء، لا نصر ولا فتوحات، ولا دخول الناس أفواجاً في الإسلام، لأن الهدف رخيص، لا يعين الله على تحقيقه. وصدق من لا ينطق عن الهوى.. حين قال: «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»..

أعتذر إلى صديقي ابن بطوطة ، فقد شغلت عنه فيما سقت من كلام، دعا إليه الحديث، وهو ذو شجون. ولست اليوم أعود إلى جواب الآفاق، لأعيد ما قلت قبل ثلاثين سنة، ولكن الشيء بالشيء يذكر.. كما يقال.

لقد زرت طنجة قبل «12» سنة، ولكني ذهبت إليها بالقطار، ونسيت يومئذ.. صديقي القديم ابن بطوطة. وشاعرنا

أحمد شوقي.. رحمه الله يقول: «اختلاف النهار والليل ينسي». لكن هذه المرة، مع مطلع شهر رجب 1420هـ أكتوبر 1999م، ذهبت إلى طنجا.. من أغادير، عبر الدار البيضاء بالطائرة. وخلال حديث - مذيع - برنامج الرحلة ونحن في المدرج.. قال: «إن الرحلة إلى مطار - ابن بطوطة - في طنجة تستغرق نحو خمسين دقيقة.. ففرحت، وشكرت حكومة المغرب في نفسي، التي قدرت الرحالة الشهير، فسمت مطار بلده باسمه، وكما يقال.. كدت أطير من الفرح، وقررت زيارة قبر صديقي.. الذي صحبته أياماً، قارئاً لتجواله، وكاتباً عنه، حفيا بتلك الصّحبة الثرية الغنية، وبقيت ذكراه وأحاديثه الطلية في نفسي تتجدد.. كلما همت بترحال في أرض الله الواسعة، وأكبر الظن أن قراءتي رحلة، جواب الآفاق»، وعدوى الخال.. رحمه الله ، أدى إلى عشقي السفر. وشيخنا حمد الجاسر.. حفظه الله يقول في السفر كل الفوائد، وليس فقط سبع، وهو صادق، وعهدت شيخنا.. عافاه الله، يحب السفر والترحال، ولاسيما.. وراء البحث عن المخطوطات والمعرفة.

استعجل الفندق الذي نزلنا فيه بطنجة مغادرتنا إلى غيره، لأنه سيشغل بحاشية الزائر، فلم يرق لنا التحول إلى سكن آخر، وإنما آثرنا أن نرحل إلى - أصيلة - المدينة الصغيرة الهادئة الوادعة، على البحر، التي تحتضن الملتقيات

الثقافية.. التي تلتئم بالمغرب في الصيف، لأني لم أزرها من قبل، وهي قريبة من طنجة بنحو « 43 » كم.

« 2 »

سعينا إلى أصيلة، وكان في نفسي شيء من قلق، ربما لا ينتهي حتى أزور صديقي الرحالة.. الذي صحبت وأحببت. وفي مساء الأربعاء 4 رجب 1420هـ اتفقت مع سائق سيارة أجرة على العودة إلى طنجة، امتداداً للترحال، والذهاب إلى جبل طارق، مروراً بمغارة - هرقل - في الطريق - على شاطئ البحر، وإذا سمحت الحال.. نمر بتطوان. ومضينا صباح الخميس.. نحو طنجة ومعي بعض أسرتي. وعرّجنا على مغارة « هرقل ». ورأيت السياح يقصدونها. وتذكرت وأنا وإياهم داخل المغارة.. لو أنها سدت علينا منافذها، من منا له أعمال صالحة.. يتقرّب بها إلى الله ليفرج بفضله عنا - لا أحد -، سوى رحمة الله.. التي وسعت كل شيء.!

وحين تركنا المغارة.. قاصدين طنجة، وجدنا الطرق موصدة، فطفقنا ندور حول المنافذ نحو الساعة، حتى فتحت بعض الطرق، فلسلكنا من فجوات حتى دخلنا طنجة. وقلت للسائق الذي جاء صحبنا من أصيلة: أبحث عن قبر ابن بطوطة، وقد قال لي سائق سيارة أجرة، حملنا يوم مغادرة طنجة إلى أصيلة، وهو رجل مسن، إن قبر الرحالة في وسط

المدينة القديمة. وأخذنا نجوب الشوارع صعوداً وهبوطاً، لأن جزء كبير من طنجة على ربوات. أخذنا نسير - ونسأل الناس.. عن قبر الصديق العزيز، قضينا وقتاً - هبوطاً وصعوداً، عبر أزقة ضيقة ودرج متصاعد من جهة، وهابط من أخرى، أناس يقولون: إنهم لا يعرفونه، وآخرون يدلوننا إلى أماكن فنسلكها. وثمة ميدان وأكثر من مكان باسم صاحبنا الشهير، وإن كان غير معروف عند الكثير. وحبذا لو أن الجهات المعنية بالتعليم في المغرب الشقيق، وهي المقدرة لمواطن جاب الأرض، حبذا لو تقرر نبذاً عن المواطن المغربي - ابن بطوطة - ورحلته لتبقى ذكراه في أذهان التلاميذ والمواطن المغربي. وقد عرفت من الرجل الذي عنده مفتاح الحجرة التي بها قبر صديقي، أن نحو 150 سائحاً.. يمرون بالقبر سنوياً، لأنهم قرؤوا وعرفوا.. فيما ترجم إلى لغاتهم، هذا الرجل المغامر الشجاع، الذي ساح في الأرض ربع قرن، قبل سبعة قرون، فوصل إلى أقاصي الدنيا، وسجل رحلته الشهيرة.. في كتاب يقرؤه الناس، ونقلت إلى لغات أخرى، فعرفه الناس.. عربهم وعجمهم.

وصلنا إذن بعد مشقة الصعود والهبوط المتعبين، في أزقة ضيقة ومنطقة عاجة بالسكان. وصلنا قبر رحالتنا العزيز، فسلمت عليه، ووقفت دقائق بجانب القبر، وكأنني أدير حديثنا

صحافياً مع أكبر رحالة عربي مسلم، ولكنه لا يرد على ما في نفسي من أسئلة كثيرة. وغادرت المكان، وقد أتيح لي أن أقف حيث يرقد رجل.. أعجبت بمغامرة أسفاره وترحاله وشجاعته، وتلك الإرادة القوية، التي دفعته.. إلى أسفار، فيها أخطار ومشاكل، غير آمنة، ولكنه العزم والتصميم والتحدي، تدفع إلى ما يسمى مخاطر.. لا يقدم عليها إلا الشجعان، الذين يستلذون العناء، لأنهم.. نحو أهداف أقدموا عليها، بدوافع نفسية، فتحقق لهم ما أرادوا، لأنهم طامحون، ومنهم صاحبنا - ابن بطوطة - رحمه الله.

وجالت في نفسي خواطر: منها: لو أن صاحبنا بعث اليوم، ورأى الدنيا، وجاء إلى حكومة المغرب.. في بلده.. ليجدد تلك الرحلة، التي خاضها، براً وبحراً، وتعرض من خلالها إلى أخطار شتى.. عبر ربع قرن من الزمان. وذلك لكي توفر له طائرة نفاثة (مثلاً) وقطارات ومواخر، كسفير لبلده جوال، ليرى اليوم الدنيا، بعد سبعة قرون، ويعيد قراءة ما كتب. ماذا سيدون اليوم، وقد انطوت الأرض، وانتشرت المواصلات والاتصالات، وأن أي حدث في الدنيا يشيع في ثوان.. ليعم وجه الأرض. ماذا سيسجل صاحبنا؟ وما هي الخواطر التي ستجول في نفسه؟

إذا وقف ابن بطوطة.. على الارتقاء الحياتي، ورأى السرعة والتواصل، ولم تعد هناك أسرار ولا غرائب، ربما يقنع،

بأن لا جديد سيأتي به، ذلك أنه كسب وسجل ما رأى وسمع، أيام كانت الدنيا بدائية، ونقل إلى القارئ العربي غرائب.. ما كان ليعرفها ولا يسمع بها. أما اليوم، قد كفى التطور السريع الرحالة مؤونة التعب والعناء ومشاق الأسفار والأخطار، لم يكن اليوم أشياء غريبة وعجيبة خافية عن الناس.. أينما كانوا، فوسائل الاتصالات، قربت البعيد، وذللت الصعب، وليس للرحالة اليوم، إلا مذكرات ومشاهدات وعادات وطبائع الشعوب وحيواتهم وسبل حياتهم، هذا هو الباقي. وقوف على الكائن المعاش.. على وجه الأرض، وترفيه عن النفوس.. التي تجوب الأرض، وراء المتعة، والوقوف على أنماط الشعوب وحياتها، ذلك أن السفر حياة، وأن الحياة سفر.!

رحم الله ابن بطوطة، فقد أمتعنا في وقت مبكر بما لم نكن نعرفه، فعرّفنا بالكثير، الذي لم يصل إلينا.. إلا بعد انتشار الوسائل الحديثة للتنقل والسفر، وكذلك وسائل الإعلام. فابن بطوطة إذن سبّاق إلى اكتشافات حيوات شعوب في أبعاد الأرض، وصل إليها بجهده الفردي ومغامراته الشجاعة، لأنه عشق السفر والترحال، فتحقق له.. ما تاقت إليه روحه المثوبة، لأنه جواب آفاق طموح صابر، قوي الإرادة، فبقي ذكره عبر الأيام، لأنه حفر اسمه وأيام حياته - خاصة شبابه -، يسيح في الأرض، لأنه طامح، وشاب من الأسفار

والأهوال التي رأى، واستطاع أن يدون كل ذلك، حسبما رأى وسمع، فبقيت رحلته سجلاً.. يطاول الزمن، وتتجدد مع الأيام، لأنها كانت في وقت وزمن، لا تواصل بين العالم على الأرض.. إلا بتلك الوسائل البدائية. وعبر سبل غير آمنة، والقرصنة منتشرة باغية عاتية. وهو ما يحسب لرحالتنا المغامر، فله قصب السبق.. الذي يفاخر به.. في سجل الأيام الدائرة والمتجددة مع الحياة، ذلك أن الأيام صفحات مفتوحة، كتبها من عاشها ووعاها وعرفها، وتأثر بها.. وأثر فيها. إنها أيام الدنيا ودورانها وتجددها وتقلباتها، وأنماط الحياة فيها.! والحياة كما قال الكتاب العزيز: ﴿**لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد**﴾. أكبر الظن أن رحالتنا سيقول، لا جديد أضيفه وإن كانت الحياة متجددة، ودعوني أعود إلى قبري فقد انتهى دوري وزمني، وأنتم اليوم لكم حياتكم وتطوركم، وقد قدمت رسالتي في وقت ما كان يتاح لكم أن تقفوا على ما وقفت عليه في أيامي الخوالي، عبر أسفاري ومغامراتي.. التي ما كان لكم أن تقتحموا أخطارها وأوضارها وعناءها، تلك أيام قد خلت، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم. فدعوني في نومي الطويل، إلى أن يأذن الله بقيام الساعة، ويبعث الموتى للحساب والعقاب، فياله من يوم شاق طويل مهول. نرجو الله أن يرحمنا فيه، ويكفينا سوءه ويعفو عنا، إنه هو البر الرحيم.

وخلال زيارتنا لطنجة.. وددنا الذهاب إلى جبل طارق، لكن قالوا لنا في الميناء.. إن ذلك متوقف، لخلافات بين الإنجليز والأسبان، وثمة رحلات بحرية إلى الجزيرة «الخضراء»، لكنها تحتاج إلى تأشيرة من أسبانيا، ونحن لا نملكها، ولا تعطى لنا من أي سفارة أسبانية، وهي تعليمات جارية وسارية، لا عدول عنها.!

هامش

(1) - «رحلة ابن بطوطة، دار صادر، دار بيروت للطباعة والنشر، 1384هـ - 1964م.

* * *

مؤلفات للكاتب

- أمواج وأثباج – نقد أدبي.
- في معترك الحياة – موضوعات نقدية واجتماعية –.
- وتلك الأيام – تجربة صحافية.
- حكاية الفتى مفتاح – سيرة ذاتية.
- الصخر والأظافر – في النقد.
- حمزة شحاتة – ظلمه عصره –.
- هؤلاء عرفت.

من المقدمة ..

غير أن الأستاذ عبدالفتاح أبو مدين في كتابه هذا اتبع منهجاً رابعاً يشبه في بعض وجوهه أسلوب بعض العلماء في جمع المسائل التي يضمها حقل معرفي واحد أو موضوع معين في كتاب كمسائل أبي علي الفارسي وسفريات ابن هشام الأنصاري مع تباعد ما بين تلك المسائل والموضوعات، كما يشبه من أوجه آخرى صنيع النساخ في جمع الرسائل التي لا يبلغ إحداها مبلغ كتاب مستقل وضمها إلى مثيلاتها في مجموع يحوي عدد من الرسائل، وهو ما فعله الكاتب في «الحياة بين الكلمات» فمن محاضرة في ناد أدبي إلى ورقة في مؤتمر أو ملتقى، ومن نقد لكتاب إلى قراءة في كتاب أو حديث عن أدباء أو تعليق يسير على بعض الموضوعات، وهذا النهج شاع كثيراً عند الأكاديميين.

عثمان الصيني

رقم الإيداع : ٢٢/٥٥٢٤